وزارة الثقافة
مديرية إحياء ونشر التراث العربي
إحياء التراث العربي
(١٣٢)

حلب عاصمة الثقافة الإسلامية

شعراء النزعة الشعبية

في العصر العباسي

أحمد الحسين

وزارة الثقافة

شعراء النزعة الشعبية

في العصر العباسي

وزارة الثقافة
مديرية إحياء ونشر التراث العربي
إحياء التراث العربي
(١٢٢)

حلب ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م
عاصمة الثقافة الإسلامية

شعراء النزعة الشعبية

في العصر العباسي

أحمد الحسين

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٦

طبع هذا الكتاب
بمناسبة الاحتفال بحلب
عاصمة الثقافة الإسلامية
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

شعراء النزعة الشعبية في العصر العباسي / أحمد الحسين .- دمشق :
وزارة الثقافة، ٢٠٠٥ .- ٢٠٨ ص ؛ ٢٥ سم .

(إحياء التراث العربي ؛ ١٢٢)

١- ٨١١,٥٠٠٩ ح س ي   ش ٢- ٨١١,٥٠٠٨ ح س ي
ش ٣- العنوان   ٤- الحسين   ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

مُقَدِّمَة

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على بعض شعراء النزعة الشعبية، التي ظهرت في الشعر العباسي، من خلال تناول أربعة شعراء هم : أبو الشَّمَقْمَق، الأحنف العكبري، أبو دلف الخزرجي، أبو العبر الهاشمي.

وبهدف الإحاطة بمفهوم النزعة الشعبية، والوقوف على دلالتها، بصفتها تمثل تغيّراً طرأ على منحى الشعر العباسي، واتجاهاته العامة من حيث اقترابه من العامة، وتصويره معاناة شرائحها وفئاتها، فقد خصصت الفصل الأول لدراسة مفهوم النزعة الشعبية، التي أصبحت تياراً عاماً، لم يعد يقتصر فيه الشعر على الخاصة دون شرائح المجتمع الأخرى، وإنما صار الشعر ينزع إلى القاع الاجتماعي، ويصور الوجه الآخر للحياة، حيث مهدت لذلك عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية، أدّت إلى تمايز اجتماعي بين طبقتين: إحداهما طبقة الخاصة، ذات الثروة والحياة والمكانة، وأخرى طبقة العامة التي تعاني من البؤس والفقر الشديدين، مما دفع الكثير من تلك الشرائح إلى انتهاج طرق وأساليب مختلفة، لتكسب بها قوت عيالها، ورزق أطفالها، تارة بالمسكنة والاستجداء والتضرع والشكوى، وتارة أخرى بالاحتيال، والمخرقة، والتهريج، والتسلية.

ووقفت في الفصل الثاني عند أبي الشَّمَقْمَق مروان بن محمد، الشاعر الذي عبّر بشعره عن بؤس أقرانه من الشعراء، والذي اقتصر شعره أو كاد يقتصر على الشكوى الذاتية، ووصف بؤسه، وشدة خصاصته، وبيته المجدب الذي هجرته الحشرات، والحيوانات؛ لأنه كان خالياً من كل شيء، فليس به سوى النوى والنخالة.

وتناولت في الفصل الثالث الأحنف العكبري، وهو شاعر أضرَّت به العاهة، وإعراض أهل زمانه عن طلب العلوم والآداب، وتقريب أصحابها، مما دفع به إلى عالم الكدية، وانتهاج أساليبها في المكر والخديعة، والاحتيال، وإيثار العزلة والشعور بمرارة الوحدة والاغتراب.

وعرضت في الفصل الرابع جوانب من حياة أبي دلف الخزرجي، الشاعر الذي كان جواب آفاق، لا يستقر به مقام، والذي بالرغم من كونه شاعراً، وطبيباً، ومنجماً، ورحالة جغرافياً إلا أن حظه كان عاثراً كأقرانه من شعراء الكدية، فظل يشكو مفارقات الحياة من حوله في إطار نزعة ساخرة، يطغى عليها الإحساس بالغبن، والشعور بالتمرد، والسخط واللاانتماء.

أما الفصل الخامس، فقد وقفت فيه على سيرة أبي العبر الهاشمي، وتحولاته الفكرية والسلوكية، التي دفعته أخيراً إلى هجر العقل، وترك الجد، والانتقال من ذلك إلى الحماقة والرقاعة، وإظهار المهازل والمخرقات، مما زاد من إقبال الخاصة والعامة على أدبه فنفق، وكسب بالحمق أضعاف ما كسبه كل شاعر في عصره بالجد.

ثم أضفت إلى الفصول السابقة ملحقاً يضم نماذج اخترها من نصوص أولئك الشعراء، ليقف القارئ على صورة هذا الأدب، وملامحه الفنية والفكرية، وخصائصه الصياغة والجمالية، ولغته السرية والاصطلاحية.

وقد اعترضت البحث عدة صعوبات من أبرزها: ندرة المصادر حول أدب هؤلاء الشعراء، فما زال أكثر أدبهم ضائعاً ومفقوداً، وليس بين أيدينا من ذلك سوى شذرات ونصوص متفرقة تناثرت في بطون المصادر وكتب الأدب القديمة، فأبو الشَّمَقْمَق الذي قيل إن ديوان شعره يقع في سبعين ورقة، لم نجد له بالرغم من جهود العديد من الباحثين المعاصرين من «عرب ومستشرقين» الذين انصرفوا

إلى جمع أشعاره، ما يزيد على ثلاثمائة بيت، وأقلّ من ذلك ما وقفنا عليه من شعر أبي دلف الخزرجي، والأمر نفسه يقال فيما يخص أدب أبي العبر الذي نسبت إليه عدة مؤلفات، ضاعت كما يبدو، فلم نعثر له سوى على جزء يسير من القصائد والأخبار، ومجالس الحماقة ومشاهد التسلية، ونستثني من ذلك الأحنف العكبري، الذي ظل الاعتقاد سائداً بضياع ديوانه إلى سنوات قليلة خلت، حتى وقع الباحث سلطان بن سعد السلطان على مخطوطة نادرة له، فقام بتحقيقها وطباعتها، مما شكّل مكسباً هاماً وأسدى خدمة كبيرة في هذا المجال.

وإحدى المشكلات التي تطالع الباحث في أدب الفئات الشعبية أن النظرة النقدية أو الاجتماعية مازالت تضع هذا الأدب في دائرة الإهمال والدونية، لاعتبارات عديدة، مما جعل أكثر الدارسين المعاصرين يعرضون عنه، منصرفين عنه إلى أدب الأعلام والقمم، وهذا ما يفسر لنا قلة الدراسات والبحوث حول تيارات الأدب الشعبي، وأعلامه باستثناء ما يكتب هنا أو هناك من مقالات أو بعض فصول تمر بهذه الظاهرة مروراً عابراً دون أن تتقصاها، أو تحيط بجوانبها المختلفة.

وقد حرصت في هذه الدراسة أن أتتبع المصادر التراثية القديمة التي وردت فيها أخبار هؤلاء الشعراء، والتي يرجع الفضل إلى أصحابها في الإشارة إلى هؤلاء الشعراء، والترجمة لهم، وذكر منتخبات من أشعارهم، وطرائف من أخبارهم، مما يشير إلى اتساع رؤية أولئك الأدباء والمصنفين، التي جعلتهم يولون الاهتمام بنتاج عصرهم، بصرف النظر عن مكانة أصحابه، أو أهميته البلاغية، ولعل في ذلك ما يمثل أحد مظاهر الاهتمام والاحتفاء بالنزعة العشبية.

وأشير إلى أنني اعتمدت في هذه الدراسة المنهج التكاملي في البحث والتحليل لما له من مزايا تجمع بين خصائص المناهج البحثية الأخرى، وقضيت وقتاً طويلاً في صحبة هؤلاء الشعراء، والبحث عن نصوصهم وأخبارهم، ومعايشتها ومحاورتها، كما استفدت من بعض الإضاءات التي أشار إليها بعض الدارسين المعاصرين حول مفهوم النزعة الشعبية، مؤكداً في الوقت ذاته أنني لم أقتصر جهداً إلا بذلته في هذا البحث، الذي أرجو أن يحقق الفائدة والغاية، ويسهم في الكشف عن جوانب ما تزال مجهولة من أدب الفئات الشعبية، وأسأل الله النجاح والتوفيق.

دمشق - أيار ٢٠٠٥

أحمد الحسين

الفصل الأول

مفهوم النزعة الشعبية

الشعبية مصطلح يطلق للتعبير عن التغيير الذي طرأ على اتجاهات الشعر العباسي، لا سيما منذ مطلع القرن الثاني الهجري، هذا التغيير الذي طال معنى الشعر ومبناه، والذي كان يهدف إلى الاقتراب من بيئة العامة، والتعبير «المباشر عن حاجة الشاعر في شعبية واقعية من غير ما تقيّد بالتقاليد الموروثة، إذ لم يعد الشعر كله يعنى بتصوير طبقة معينة من الناس، ولم يُعد كله يقال في طائفة بعينها، وإنما اتسع ذلك باتساع الحياة الجديدة، فقصد به الجميع، رجل الشارع ورجل القصر السُّوقي والأمير على حد سواء»[(١)].

والمنحى الشعبي في القصيدة العباسية كان أحد نتائج الصراع الذي احتدم بين دعاة التقليد وأنصار التجديد، وقد مثّل هذا التيار طائفة من الشعراء على رأسهم: بشار بن برد، وأبو نُوَاس، وحَمَّاد عَجْرد، ودِعْبِل الخُزاعي، وأبو العَتاهيةَ وسواهم[(٢)].

وكان أبو نُواس في طليعة الشعراء الذين رفعوا راية التجديد بهجومه العنيف على مطالع القصيدة التقليدية وسخريته من الوقوف على الأطلال والبكاء على الديار، ودعوته إلى التخلي عن ذلك، ومجاراة الحياة الحضارية الجديدة، والانتماء إليها بدلاً من التغني بالديار والأطلال التي خلت عهودها، وأصبحت من مخلفات الماضي بعد أن استقر الناس في المدن، وعرفوا أسباب الحياة الاجتماعية والحضارية فيها، فدعا إلى الاستفتاح بذكر الخمرة وأصنافها وأنواعها قائلاً[(٣)]:

قُـلْ لمَـنْ يَبْكي على رَسْمٍ دَرَسْ وَاقِفـاً مَـا ضَـرَّ لـو كَانَ جَلَسْ
تَصِـفُ الـرَّبْعَ ومَـنْ كَـان بهِ مِـثْلُ سَـلْمى وكُبَيْـنَى وخُـنَسْ
اتْـركِ الـرَّبْعَ وسُـلمى جَانِـبَاً واصْـطَبِحْ كَرْخِـيَّةً مـثْلَ القَـبَسْ

وقد عبر الاتجاه الشعبي في الشعر عن نزوع إلى الحياة الشعبية بعيداً عن «بلاط الخلفاء والدوائر الرسمية التي طالما كان الشعر العربي مرتبطاً بها، و ظهر أثر هذه النزعة الشعبية في مضمون الشعر وشكله على السواء»[٤].

والواقع أن الشعبية الشعرية لم تقتصر على غرض شعري دون آخر، فقد لامست بتأثيرها الأغراض الشعرية كافة من مديح وغزل وهجاء، وزهد، ومالت إلى البساطة في تناول المعاني والاقتراب من ذهنية العامة، واختيار المفردات والصور والألفاظ الشعبية القريبة من حياتها اللغوية والاجتماعية، حيث أن السهولة التي اتصف بها بعض الشعراء لم تعد ظاهرة فردية، يتحلى بها بعض الشعراء دون بعضهم الآخر، بل أصبحت في هذا العصر ظاهرة اجتماعية، «وصارت مذهباً شعرياً واتجاهاً عاماً»[٥]، يحرص الشعراء من خلاله على التواصل مع الشرائح الاجتماعية الواسعة، بما يضمن لشعرهم الانتشار الواسع على ألسنة مختلف الطبقات الشعبية .

وفي هذا الإطار بدا حرص الشعراء على الاستفادة من الموروث الشفاهي الشعبي، والاقتراب من التصورات الشعبية، واقتباس الأغاني، والألفاظ الشعبية، وقد بدا في مرحلة أولى أن ثمة ازدواجية تمثّل مرحلة الانتقال أو التعايش بين الجديد والقديم[٦]، حيث ظهر ذلك لدى أكثر من شاعر عباسي، مما يسمح عندئذ بالحديث حول "ثنائية تكّون شخصية الشاعر الجديد، وكان للشاعر من هنا شعر شعبي، وآخر رسمي، والشعبي أصدق وأفضل في القلوب من الرسمي[٧].

وإذا كان لنا أن نمثّل لهذا المنحى فإننا نرى أن بَشَار بن بُرْد في قصائد المدح والفخر كان شاعراً رسمياً وتقليداً، بمعنى أنه كان يحرص على استخدام الموروث الشعري القديم من حيث فخامة الألفاظ وقوة العبارة، وجزالة التراكيب، والميل إلى المبالغة في القصيدة المدحية، والوقوف على الديار وذكر الرحلة في الصحراء، والنسيب وذكر الأحباب، ووصف الظباء التي ترصدها سهام الصيادين، كما في قصيدته التي يقول في مطلعها(٨):

جَفَا وُدُّهُ فازْوَرَّ أوْ مَلَّ صاحِبُهْ ... وَأزْرَى بِهِ ألاَّ يَزَالُ يُعَاتِبُهْ

وفيها يفخر فيقول(٩):

إذا المَلِكُ الجَّبارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ... مَشِينا إلِيهِ بالسُّيوفِ نُعَاتِبُه

وكُنَّا إذا دَبَّ العَدُوّ لسِخْطِنَا ... وَرَاقَبَنَا في ظَاهِرٍ لا نُراقِبُهْ

رَكِبنَا لَهُ جَهْراً بكلِّ مُثَقَّفٍ ... وَأبْيَضَ تَسْتَسْقي الدِّماءَ مَضَارِبُهْ

ولكن بشار بالرغم من ذلك أخذ يميل إلى الشعبية، سواء في تطعيم القصيدة بالمفردات والتعبيرات العامية، أو من خلال التطرّق إلى موضوعات يبرز فيها الحس الشعبي، والبساطة الشعبية، فهو على سبيل المثال ومن موقع الميل إلى التسلية والترفيه التي أصبحت إحدى سمات النزعة الشعبية في الشعر(١٠) يصف جارية له تدعى ربابة ، ويذكر ما تقوم به من أعمال يومية كتحضير الطعام، وتربية الطيور، فيقول(١١):

رَبَابَةُ رُبَّةُ البيتِ ... تَصُبُّ الخَلَّ بالزَّيْتِ

لهـا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ ... وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

أو نجده مثلاً يميل إلى الظرافة، والنظم في الموضوعات الهزلية المسلية، كما في قصيدته التي يتخيل فيها أنه رأى حماراً له قد مات، فسأله عن سبب موته فأجابه ذلك الحمار بالقول على لسان بَشَّار(١٢):

سَـــيدي مِـــلْ بَعنانـــــي نَحْـــوَ بَـــابِ الأَصْـــبَهاني

إنَّ بالــــــــبابِ أتَانـــــاً فَضُــــــلَتْ كــــلَّ أتــــانِ

تَيَّمتنــــــــي بِبَــــــنان وبـــــدلٌ قـــــد شَـــجَاني

تيَّمتنـــــي يِـــومَ رُحْــــنَاً بِثَــــــناياها الحِسَــــــانِ

وَبِغُــــــــــــــنجٍ ودَلالٍ سَــــلَّ جِسْـــمي وبَرَانِــــي

ولَهَـــــا خَـــــدٌ أسَـــيلٌ مِــــثْلُ خَـــدِّ الشِّـــيفَرانِ

فَلِــذا مِــتُّ ولــو عِشْــتُ إذنْ طَــــــال هَوَانـــــــي

وحين سأله أحد جلسائه ما الشيفران يا أبا معاذ؟ قال بشار: ما يدريني، هذا من غريب الحمير، فإذا لقيت حماراً فسله.

وبشار الرسمي في قصائد المديح هو غير بشار الشعبي في قصائد الغزل التي بلغ من شعبيتها أن كل غزل وغزلة كان يرددها، لأنه بالميل إلى البساطة، مدَّ جسوراً من التواصل مع شرائح المجتمع فأقبلت على شعره، ترويه وتتمثل به، ومن ذلك على سبيل المثال ولكي تتضح دلالة ما نذهب إليه نورد قوله(١٣):

لقَـــد كُنْـــتُ علـــى العَيْنَيْـــــــنِ والـــرَّأس فَنُحِّيْــتُ

وقوله(١٤):

لاَ تلعبـــي بَحياتـــي واقْطَعِي أملي صَبْرَاً على المَوْتِ إنَّ المَوْتَ مَوْرُودُ

أنْتِ الأَميْرةُ في رُوْحِي وفي جَسَدي فابْــرِي وَرِيْشِـــي بِكَفَّيكِ الأَقَالِيْدُ.

فمن الواضح أن عبارة على العينين والرأس، واللعب بالحياة، أو أنت الأميرة، هي عبارات مما تتداوله البيئات الشعبية، وبالتالي فإن بشار بذلك يكون قد غاص في بيئته العامة وانتشر فيها، واقتبس مفرداتها وتعابيرها اللغوية.

ولم تقتصر الشعبية كما أشرنا على الغزل فحسب، بل وجدت لها مجالاً واسعاً في فن الهجاء «لأن صوغ الهجاء في قالب شعبي يجعل معانيه قريبة من نفوس الجماهير، مما يكفل له انتشاراً واسعاً»[١٥]، ولهذا كان بشار بن برد والشعراء الآخرون من معاصريه يخشون هجاء أبي الشَّمَقْمَق لما عرف به من طابع شعبي، ورواج بين الصبيان والغلمان[١٦].

ومما يذكر أن أبا العَتَاهية قد نحا بقصائده الزهدية المنحى الشعبي، مستفيداً من أغاني الملاحين، حيث استطاع توظيف مفرداتها، وبعض صورها في زهدياته، ذات البساطة الواضحة والاقتراب من ذهنية العامة، ولغة النثر اليومي، مما جعل الملاحين يغنون قصائده للخليفة هارون الرشيد على نمط قوله[١٧]:

نُـــحْ علـــى نَفْسِـــكَ يـــا مَسْـــكِيْنُ إنْ كُنْـــتَ تَـــنوحْ
لَسْـــتَ بِالْبَاقـــي ولو عُمِّـــــــرْتَ مـــا عُمِّـــرَ نُـــوحْ

وقد كان أبو العَتَاهية كما يروى عنه شديد الحرص على مخالطة الشرائح الشعبية الدّنيا، والتمثّل بها في العمل والسلوك والمظهر، كي يتعلم كيادها، ويحفظ مفرداتها، وقد رفع في قصائده لواء الدفاع عن الفقراء والمعدمين، الذين اكتووا بغلاء الأسعار، فأسمع صوت معاناتهم، وشكواهم المريرة، مما يجدونه من بؤس، وما يعانون منه من ضنك العيش، وقسوة الحياة، فيخاطب الخليفة بقوله[١٨]:

مَـــنْ مُـــبْلِغٌ عنّـــي الإمَـــا مَ نَصَـــائِحاً مُتَتَالِـــيهْ
إنّـــي أرَى الأسْـــعَارَ أسْعَـــــــارَ الرَّعِـــيَّةِ غَالِـــيهْ
وأرَى المكَاسِـــبَ نَـــزْرَةً وَأرَى الضَّـــرُورَةَ فَاشِـــيهْ
مَـــنْ يُـــرْتَجَى للنَّاسِ غيرُ كَ، لِلعيـــونِ البَاكِـــيهْ
مِـــنْ مُصْـــبِيَاتٍ جُـــوَّعٍ تُمْسِـــي وتُصْـــبِحُ طَاوِيـــهْ
مَـــنْ يُـــرْتَجَى لدِفَـــاعِ كرْ بُ مِلِمَّـــةٍ هـــيَ مـــا هَـــيِه

مَــنْ للــبُطُونِ الجَــائِعــ ـــتِ، وللجُســومِ العَاريه

ألقيْـــتُ أخْـــبَاراً إلَـــيـ ـــكَ مِــنَ الرَّعِيَّةِ شَافِيهْ

وقد كانت الشرائح الشعبية غالباً ما تقع ضحية الفوضى السياسية، وتدفع ثمن الاضطرابات والتمرد، وصراع القادة والولاة، وقد انتقلت معاناتها تلك إلى الشعر، فأصبح بين موضوعات الشعر ما يتطرق إلى معاناتها، وصار بين الشعراء من يتحدث بلسانها، ويصف ما تحس به من جور وتعسف، وابتزاز مادي، وتنكيل وتعذيب جسدي، كالذي يذكر عن جور الوزير أبي الصقر إسماعيل بن بُلْبُل، الذي أمعن وأعوانه في ارتكاب المظالم، والتفنن في أساليب الاستيلاء على أموال الناس من دون رحمة ولا شفقة(١٩)، بل في قسوة ما بعدها قسوة، إذ كان أعوانه يضعون في أيدي المطلوبين الأبرياء وأرجلهم السلاسل والأغلال، ويزجون بهم في السجون، و ويذيقونهم من ألوان العذاب ضرباً وصفعاً حتى يذعنوا لهم ، فيدفعوا لهم من المال ما يطلبون (٢٠):

فَكَــمْ وكَــمْ مِنْ رَجُلٍ نَبِيْلِ ذِيْ هَيْــبَةٍ وَمَرْكَــبٍ جَلَيْلِ

رَأَيْـــتُهُ يُحْمَــلُ بـــالأَعْوَانِ إِلى الحُبُوْسِ وإِلى الدِّيْوَانِ

وَجَعَلــوا فـــي يــدِهِ حِبَالا مِــنْ قِنَّــبٍ يقطِّعُ الأَوْصَالا

وعلَّقَــوهُ في عُرَى الجِدارِ كَأَنَّـــهُ بُـــرْدَاةٌ فـــي الـــدَّارِ

وَصَــفعُوا قَفَاهُ صَفْقَ الطَّبْلِ نَصْــباً بِعَيْــنِ شامِتٍ وَخِلٍّ

على أن الشعبية في الشعر العباسي لم تقتصر على هذه الجوانب الجديدة التي طرأت على بعض الأغراض الشعرية المعروفة، وإنما تمثلت من خلال بروز موضوعات شعبية جديدة من خلال تعبيرها عن حياة العامة، ومعاناتها الاقتصادية، وتحولاتها الاجتماعية والسلوكية، وبهذا اتخذ الشعر من هذه الموضوعات الجديدة مادة له، وهذا ما يعبر عن جوهر الشعبية التي نريد الإشارة إليها في هذا المجال.

الشعبية في هذا الجانب إذن هي تعبير عن الصورة الأخرى للواقع غير الرسمي، أو لنقل هي تعبير عن صوت القاع الاجتماعي للفئات الدنيا، وما يمكن أن يطلق عليه العامة، بصفتها خلاف الخاصة(٢١).

والواقع أن المجتمع العباسي انقسم إلى طبقتين أساسيتين(٢٢): إحداهما الطبقة الخاصة، والأخرى الطبقة العامة، وقد ارتبطت بكل منهما فئات اجتماعية، حيث قيل أشباه العامة، وأشباه الخاصة.

وإذا كانت الطبقة الخاصة تعني الخليفة العباسي وكبار رجالات دولته، ومن ارتبط بهم بسبب من الأسباب، فإن الطبقة العامة ضمت شرائح واسعة من المجتمع من بينها: أصحاب الحرف والمهن والصنائع والزراع وصغار التجار والباعة، ممن كانت الأدبيات الرسمية تطلق عليهم عبارات: السُّوقة، والرّعاع، والهمج، والغوغاء، والدّهماء، والسفل، والسقط، وأهل السفه والخفة(٢٣).

وقد عانت هذه الفئات كما تذكر مصادر الأدب والتاريخ من جور فادح، وبؤس شديد إذ لم تكن الثروة العباسية موزعة توزيعاً عادلاً بين الناس والرعية، فالخلفاء والوزراء وحواشيهما يعيشون في الحلية والزينة، وكل ما يمكن من أسباب الترف ووسائل النعيم، ويمدّون من حولهم، ومن يختصون بهم من المغنّين والشعراء والعلماء والاتباع بكثير من هذه الوسائل، والأسباب وتجثم في البؤس والمسغبة كثرة الشعب التي لا تجد يداً تمتد إليها، وتخمد نار الفقر والضنك المشتعلة بين طبقاتها(٢٤).

والواقع أن عوامل ومظاهر الغلو والإفراط في الإنفاق، والإسراف والتبذير، والفساد الإداري الذي انتشر بين كبار الوزراء وعمال الدولة، ومغالاتهم في البذخ في حياتهم الخاصة ومناسبات الأعياد، والزواج والختان، ومجالس الأنس والمتعة(٢٥)، وما يضاف إلى ذلك من زيادة نفقات الجيوش، والاضطرابات التي ما إن تنتهي حتى تبدأ بين قادتها والطامعين بالسلطة والثروة والنفوذ قد خلقت تبايناً

اجتماعياً وفروقاً قائمة بين الناس، وأدت بالتالي إلى انتشار الفقر والخصاصة، والجوع، وغلاء الأسعار، وقد خلق التباين بين الغنى والفقر تباينات أخرى من حيث القوة والضعف، والرفعة والدونية والجاه والخمول، والنفوذ والإهمال وهذا ما يفسر لنا ما طرأ على المجتمع العباسي من تحولات اجتماعية بين طبقة العامة، ويفسر لنا ظهور فئات الحمقى والمتحامقين، والمكدين والمتسولين والشحاذين، وطوائف المندرين والمضحكين، وتيارات الزهاد والمتصوفة، وظهور فئات الفتيان والشطار والعيارين والطفيليين واللصوص، وكلّ هؤلاء اختار الأسلوب الذي كان يناسبه لتحصيل قوته(٢٦).

فإذا كان بعض هؤلاء اتخذ من الكدية أو المخرقة وسيلة للكسب، فإن قسماً آخر اتخذ من السلب واللصوصية وسيلة لإقامة نوع من التوازن، وتحقيق ضرب من العدالة الاجتماعية المفقودة، وصارت كل فئة من هذه الفئات تجد في الأسلوب الذي اختارته ما يبرر لها طلب المعاش بالطريقة التي تناسبها.

وفي هذا المنحى عبّر الأدب الشعبي عن صورة الحياة بألوانها القاتمة، وقد برز في هذا الجانب عشرات الأدباء الذين حين لم تجد عليهم آدابهم نفعاً انخرطوا في مسلك التحامق، والتجانن والتهريج.

وقد مثّل هذه النزعة الشعبية التي صوّرت لنا تحولات الواقع، ومعاناة شرائحه الواسعة عدد من الأدباء الذين اقتصر شعرهم على هذا الجانب أو كاد، وكان من بينهم على وجه الخصوص: أبو المُخفّفْ عَاذِر بن شَاكر، وأبو فِرْعَون السَّاسيّ، وأبو الشَّمَقْمَق، والأَحْنَف العُكْبري، وأبو دُلَف الخَزْرجي، وأبو العِبَر الهاشميّ، وابن الحَجَّاج، وابن سُكَّرَة الهاشِمي، وأبو العَيْناء، وأبو العِجْل، وأبو العَنْبَس الصَّيْمَريُّ، والكَتَنْجي، وأبو دُلامة، وسواهم من الأدباء الذين عبروا بأدبهم، وشعرهم عن تحولات عصرهم، ومعاناة أقرانهم، وأهل طبقتهم.

وقد عبّر عن هذه الصورة بشكل دقيق أبو المُخَفَّف عَاذِر بن شاكر الشاعر الذي لم يجد وسيلة لكسب قوت عياله سوى بالمسألة والاستجداء، إذ كان يطوف على الأسواق، ويسأل التجار والصناع القليل من الرفد والزاد.

وقد تجلّت شعبية أبي المُخَفِّفِ في اقتصار شعره على وصف الرغيف إذ لم يطرق موضوعاً سواه، فكان يصف أشكاله وأنواعه وألوانه، ويشبهه تارة بالشمس، وأخرى بالقمر، ويظهر شغفه بحب الرغيف والتغني بوصفه والزهد في وصف الديار، ومجالس الأنس والغلمان والجواري، فيقول(٢٧):

دَعْ عَـنْكَ رَسْـمَ الدِّيْـارِ ... وَدَعْ صِـفَاتِ القِفَـارِ
وَعَـدِّ عَـن ذِكْـرِ قَـومٍ ... قَـد أكْـثَرُوا فـي العُقَـارِ
ودَعْ صَـفَاتِ الزَّنَانِـيرِ ... فـي خُصُـورِ العَـذَارِي
وَصِـفْ رَغِـيفاً سَـرِيّاً ... حَكَـتْهُ شَـمْسُ الـنَّهارِ
أو صَـورَةُ البَدْرِ لمَّا استَـ ... ـتَمَّ فـي الاسْـتِدارِ
فلـيسَ تَحْسُـنُ إلاَّ ... فـي وَصْـفِهِ أشْـعَارِي
وذاكَ أنِّـي قَدِيمـاً ... خَلَعْـتُ فِـيهِ عِـذارِي

وكان على شاكلته أبو فِرْعَون السَّاسِيُّ ذلك الأعرابي الساخط على زمنه، المتذمر من حياة المدن وقسوة أهلها، والذي رسم لنا صورة قاتمة عن فقره، وشظف حياته، وجوع صغاره، في صورة شعرية واقعية قال فيها(٢٨):

وصِـبْيَةٍ مِـثْلُ فِرَاخِ الذَّرِ ... سُـودُ الوُجُوهِ كَسَوادِ القِدْرِ
جَـاءَ الشِّـتاءُ وهـمُ بِشَرِّ ... بِغَـيرِ قُمْـصٍ وبغَيْرِ أُزْرِ
حـتَّى إذا لاحَ عَمُودُ الفَجْرِ ... وجاءَنِي الصُّبْحُ غَدَوْتُ أسْرِي
وبعضُـهمُ مُلْتَصِقٌ بِصَدْرِي ... وبعضُـهمُ مُنْحَجِرٌ بِحُجْرِي
أسْـبقُهُمْ إلى أُصُولِ الجُذْرِ ... هـذاَ جميعُ قِصَّتي وأمْرِي

وهو الذي وصف لنا بيته الموحش الذي خلا من كل شيء، فأغلقه ليخفي بؤسه عن عيون المارة فقال(٢٩):

لــيْسَ إغْلاقي لِبَابي أنَّ لي فيهِ ما أَخْشى عليهِ السَّرقَا
إنَّمــا أُغْلقُــهُ كــيلا يَرَى سُوْءَ حَالي مَنْ يَجُوْبُ الطُّرقَا
مَــنْزِلٌ أَوْطَــنَهُ الفَقْرُ فلو دَخَــلَ السَّــارِقُ فيهِ سُرِقَا
لا تَرَانْــي كَاذِباً في وَصْفِهِ لَــو تَرَاْهُ قُلْتَ لي: قَدْ صَدَقَا

وقد شاع هذا النمط من القصائد والمقطعات التي يصف بها الشعراء بيوتهم المجدبة التي خلت من الطعام والأثاث، والتي تدل على سوء طالعهم، ونكاية الأيام بهم، وهذا ما نسمعه على لسان شاعر مكد آخر هو مُحَمَّد بن عبد العزيز السُّوسيّ إذ يقول (٣٠):

الحَمْــدُ للهِ لــيسَ لي بَخْتُ ولا ثــيابٌ يَضُــمُّها تَخْــتُ
ســيَّانِ بيتــي لِمَــنْ تَأمَلَهُ والمَهْمَــــهُ الصَّحْصَــــحَانُ
أَمِنْتُ في بيتيَ اللصُوْصَ فما للــصِّ فــيهِ فَوْقُ ولا تَحْتُ
فَمنْزِلــي مُطْبَقٌ بلا حَرَسِ صِفْرٌ من الصُفْرِ حَيْثُما دِرْتُ
إبريقي الكُوْزَ إنْ غَسَلْتُ يدي والطِّيْنَ سَعْدي وداريَ الطَّسْتُ

والواقع أن هذه الأوضاع - عدا عن كونها - فتحت باباً للشعبية في الشعر العباسي، فإنها توضح لنا من ناحية أخرى التحولات الاجتماعية والفكرية والسلوكية، التي انتهجتها بعض الطوائف والشرائح لكسب القوت، وتحصيل أسباب الرزق، وميلها إلى التسول أو الاستجداء، والتحايل، والتحامق، والتطفيل والتصوف، والشطارة واللصوصية، وسواها من الأبواب الأخرى، وهذا ما عبر عنه أكثر من شاعر، وفي هذا الجانب نسوق بعضاً من اعترافات السوسي، في وصف تحولاته الاجتماعية من أجل كسب القوت إذ يقول(٣١):

سَـلَكْتُ فـي مَسْلَكِ التَّصوُّفِ تَنْـ ـمِيَسَـاً فَكَـم للذُّيُـولِ قَصَّـرْتُ

سَـوَيْتُ سِـجَّادَةً بِـيَوْمٍ وَأَحْفَـ ـيْـتُ سِـبَالاً قـد كُنْـتُ طَوَّلْتُ

وفـي مُقَـام الخَلـيلِ قُمْـتُ كما قَـام لأنـي بـه تَبَرَّكْـتُ

ثـم كَتَبْـتُ العُطُـوفَ حـتَّى بَدْ نـيري بيـنَ الـرُّؤُوسِ أَلْفَـتُ

حـتَّى إذا رُمْـتُ عَطْفَ بَغْلٍ على عِـرْسٍ عَكَسْـتُ المُـنَى وَطَلَّقْتُ

يـا لَيْتَ شِعْرِي، ماليَ حرمتَ ولا أعطـى، مِـنْ إنْ رَأَيـتُهُ اغْتَظْتُ

بل ليتَ شِعْري لمَّا بَدَا يُقْسِمُ الأرْزَا قَ فـي أيِّ مُطْـبَقٍ كُنْـتُ

وقد مضى كثير من الشعراء المحرومين يصوّرون حياة البؤس التي يحيونها، وفي مقدمتهم جَحْظَة البَرْمَكي، الذي يصف بؤس أمثاله من أبناء الشعب من خلال المقارنة بين حياته وحياة المترفين بما لديهم من أصناف لطعام والشراب، وما يملكون من الخدم والرياش، والبيوت العامرة فيقول(٣٢):

أَحْمَـدُ اللهَ لـم أَقُـلْ قَـطُّ يـا بَدْ رُ ويـا مُنْصِـفَاً، ويـا كَـافورُ

لا ولا قُلْـتُ أيـنَ أينَ الشَوَاهِيـ ـنُ، ووَزَّانُـنا وأيـنَ الـبُذُورُ

لا، ولا قِـيلَ قـد أَتَاكَ من الضَّيْـ ـعـةِ بُـرٌ مُوَخَّـرٌ وَشَـعِيرُ

أنـا خِلْـوٌ مِـنَ المَمَالِيكِ والأمْـ ـلاكِ، جَلْـدٌ على البَلا وَصَبُورُ

لـيسَ إلا كُسَـيرَةٌ وقُدَيـحٌ وَخِلـيقٌ أَتَـتْ علـيهِ الدُّهُـورُ

وتشيع هذه الشكوى لدى شعراء آخرين كان من بينهم : ابن الحجاج، وابن سكرة الهاشمي، وأبو العيناء وسواهم من طوائف الشعراء المحرومين والمعدمين.

ولعلنا نتبين مما سبق أن النزعة الشعبية في الشعر العباسي صارت تمثّل اتجاهاً عاماً في الشعر، فأكثر طوائف الشعراء الذين وقفنا عند مقطعات

ونصوص شعرية لهم كانوا من الشرائح الدّونية، والطوائف الشعبية المعدمة والفقيرة، مما أتاح للشعر عندئذ أن يتغلغل بين أفراد جميع الطبقات، وبين أصحاب المهن والحرف، والجماعات والفرق الاجتماعية، التي عبَّرت بالشعر عن معاناتها، وما كانت ترسف فيه من جوع ومسغبة، وصورت بقصائدها ما كانت العامة تكابده من متاعب ومشقات، فصار الشعر لسان حالها، والناطق باسمها، وحامل متاعبها سواء من حيث الموضوعات الشاكية، أو اللغة الشعرية التي اقتربت من لغة الحياة اليومية، باحتوائها على الكثير من الألفاظ المتداولة بين العامة، وأصحاب المهن، والتنظيمات الاجتماعية، فيشيع وينتشر بين أفرادها في خفة ويسر وسهولة.

هوامش الفصل الأول

١- الحياة الأدبية في البصرة: أحمد كمال زكي، دار الفكر، دمشق ط١، ١٩٦١، ص ٣٦٣.
٢- العصر العباسي الأول: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر ط٤، ١٩٧٢، ص ١٥٩، ١٨١، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: محمد مصطفى هداره، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٣، ص ٢١١.
٣- ديوان أبي نواس: شرح عمر فاروق الطباع، نشر دار الأرقم ، بيروت، ط١ ، ١٩٨٨ ص ٣٣٢.
٤- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: محمد مصطفى هداره، ص ١٨٨.
٥- الحياة الأدبية في البصرة: أحمد كمال زكي، ص ٣٦٥.
٦- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: محمد مصطفى هداره، ص ١٨٨، العصر العباسي الأول: شوقي ضيف دار المعارف، مصر ط٤، ١٩٧٢، ص ٤٣٥.
٧- الحياة الأدبية في البصرة: أحمد كمال زكي، ص ٣٦٤.
٨- ديوان بشار بن برد، شرح محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١/ ٣٠٦.
٩- ديوان بشار ١/ ٣١٧، ٣١٨ .
١٠- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: محمد مصطفى هداره، ص ١٩٢.
١١- ديوان بشار ٢٧/٤.
١٢- ديوان بشار ٢١٤/٣.
١٣- ديوان بشار ١٨/٢.
١٤- ديوان بشار ٢٦٧/٢.
١٥- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: محمد مصطفى هداره، ص ٤٢١.
١٦- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، نشر صلاح الخليل، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠، ٤٧/٣.
١٧- ديوان أبو العتاهية: نشر دار صادر، بيروت ١٩٦٤ ،ص ٤٨٧.
١٨- ديوان أبو العتاهية ص ١١٧ .
١٩- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور: شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧، ط١، ص ٩٨، ٩٩.
٢٠- ديوان عبد الله بن المعتز، دار صادر، بيروت ١٩٦١ ، ٤٩٤/١.

٢١- أدب الكدية في العصر العباسي: أحمد الحسين، دار الحصاد، دمشق ١٩٩٥، ص ٣١، ٣٤، ٣٧ .
ومقالات في أدب الحمقى والمتحامقين: أحمد الحسين، دار الحصاد، دمشق ١٩٩١، ص٨٨.
٢٢- العامة في بغداد: فهمي عبد الرزاق سعد: الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٣، ص ٦٤.
٢٣- العامة في بغداد: فهمي عبد الرزاق سعد، ص ٦٦.
٢٤- العصر العباسي الأول: شوقي ضيف، ص ٤٣٥.
٢٥- العامة في بغداد: فهمي عبد الرزاق سعد، ص ٢٣٤.
٢٦- العامة في بغداد: فهمي عبد الرزاق سعد، ص ٢١٢.
٢٧- الورقة: أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح، تحقيق عبد الوهاب عزام، وعبد الستار أحمد فراج، دار المعارف مصر، ١٩٦٣، ص ١١٥.
٢٨- الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٦٢/٧، و أشعار الشحاذين في العصر العباسي: أحمد الحسين، دار الجليل، دمشق ١٩٨٦، ص ٢٣.
٢٩- طبقات الشعراء: ابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر، ص ٣٧، العقد الفريد، ابن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين وإبراهيم الأبياري، وعبد السلام هارون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٤٩، ٢١٧/٦.
٣٠- يتيمة الدهر: أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ــ مصر ١٩٥٦، ٤٢٧/٣.
٣١- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٤٢٧/٣.
٣٢- جحظة البرمكي الأديب الشاعر: مزهر السوداني، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٧، ص ٣٠٣.

الفصل الثاني

أبو الشَّمَقْمَق شاعر الحرمان

يذكر الجاحظ أنّ أبا الشَّمَقْمَق ردّ على من سأله عن اسمه ونسبه وشهرته بالقول: «أما اسمي ونسبي فأنا مَروان بن مُحَمَّد، مولى مروان بن محمد، وأما بلدي فالبصرة، وأما شهوتي فالنبيذ على اللحم السَّمين»[١].

والشَّمَقْمَق لقب أطلق عليه، ومعناه الطويل، فكان يقال له تارة: أبو الشَّمَقْمَق، كما يقال له أحياناً الشَّمَقْمَق، وفي اللغة «الشَّمق: مَرَحُ الجنون، وثوب شَمِق: مُخَرَّقٌ، والشَّمَقْمَق: الطويل، الجسيم من الرجال[٢]، وقد وصفه المَرْزُبَاني بأنه كان "خفيف العثنون، عظيم الأنف، أهرت الشدقين، منكر المنظر»[٣]، وربما تفسر لنا هذه الصفات الخلقية عدم حظوته لدى الخلفاء والولاة، إذ لم يكن قريباً منهم، ولم يكن من ندمائهم ومداحيهم، ولم يحظ بأعطياتهم وجوائزهم السخية، وبما أنه «كان نادر الحظوة عند الخلفاء والأمراء، فقد سلك سبيلاً جديداً في الشعر بابتعاده عن الخاصة، والاقتراب من العامة، وبالأحرى الابتعاد عن الرسمية، والاقتراب من الشعبية»[٤].

وأبو الشَّمَقْمَق هو محمَّد بن مروان، وقد كان مولى مروان بن محمد بن الحكم آخر الخلفاء الأمويين[٥]، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، قدم على بغداد كما يقول الخطيب البغدادي: في أيام هارون الرَّشيد[٦]. على أن هذه الفترة من حياته - ونريد المرحلة الأموية - ظلت مجهولة المعالم، فلم نعثر على

إضاءة تنير لنا ملامح سيرته وحياته خلالها، ولم نجد كذلك شعراً له في مديح الخلفاء أو الولاة الأمويين، ولم نعرف عن علاقاته العامة أو الخاصة ما يفيد البحث في هذا المجال، وتعليل ذلك إنما يرجع إلى التحول السياسي الذي انتهى بزوال الدولة الأموية وسطوع شمس الدولة العباسية، ولما كان أبو الشَّمَقْمَق من المحسوبين على الدولة الأموية ومن المقربين من خلفائها، فإنه أراد أن يطوي هذه الصفحة من حياته، وفي الوقت ذاته لم يفسح له المجال إلى جانب نفور شكله ليكون قريباً من قصور العباسيين، ورجالات دولتهم.

نشأ أبو الشَّمَقْمَق في البخارية بالبصرة، وهي كما يقول يَاقوت: «سكة فيها، أسكنها عبيد الله بن زياد أهل بخارى، الذين نقلهم منها إلى البصرة، وبنى لهم هذه السكة، فعرفت بهم»(٧)، ومعنى هذا أن أصل أبي الشَّمَقْمَق يرجع إلى خُراسان، ولم تشر المصادر الأدبية إلى تاريخ ولادته، ولكنها ذكرت أن وفاته كانت على وجه الظن والتقريب(٨) في حدود سنة ١٨٠هـ، ولكن البَغْدادي (٩) يجعل وفاته سنة ٢٠٠ هـ، وإذا ما قبلنا بالرواية التي تقول: إنه كان مع يَزيد بن مَزْيد، لما تولى الموصل سنة ٢٠٩ هـ، وجب على حد رأي الباحثة كارين صادر تأخير وفاته بضع سنوات »(١٠).

وقد عرف عن أبي الشَّمَقْمَق شدة إحساسه بالإهمال والضياع، وزاد من ضياعه «أنه لم يكن فيه ما يتنافس الناس بسببه في اصطحابه ومنادمته، إذ كانت العيون تقتحمه، وكانت فيه خشونة وجفوة، مع نزق وطول لسان، وتَعُجُّلٌ في اللوم والهجاء، فساءت حاله واشتد ضيقاً وتَبَرُّماً بالناس، يتجرع الفاقة والبؤس، ويلزم بيته في أطمار بالية، وثياب خلقة متوارياً عن الناس إلا من أنس إليه»(١١).

وكان ابن عبد ربّه قد ترجم له في العقد الفريد، فعدّه من بين الشعراء الظرفاء والمحارفين فقال: «كان أديباً ظريفاً محارفاً، وكان صعلوكاً متبرّماً بالناس، وقد لزم بيته في أطمار مسحوقة، وكان إذا استفتح عليه أحد بابه خرج، فنظر من فروج الباب، فإن أعجبه الواقف فتح له، وإلا سكت عنه، فأقبل عليه يوماً بعض

إخوانه من الملطفين له، فدخل عليه فلما رأى سوء حاله قال له: أبشر أبا الشَّمَقْمَق، فإنّا روينا في بعض الحديث إن العارين في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة، فقال: إن صحّ والله هذا الحديث كنت أنا في ذلك اليوم بزازاً»(١٢).

وهذه الحادثة التي تروى في إطار من التندر والظرافة المسلية، إنما تعبّر عن بؤس أبي الشَّمَقْمَق، وسوء حاله، وشدة فقره، وخصاصته، وما كان يكابده ويشكو منه، مما يفسر لنا عندئذ الإشارة إلى تبرّمه من الناس، وإقباله على الهجاء المقذع، يصبّه على أهل عصره ويجعلهم في موضع السخرية والخزي، لأنهم أعرضوا عنه، ولم يرحموا فقره وسوء حاله وشكايته.

والواقع أننا عندما نرصد محيط علاقات أبي الشَّمَقْمَق الاجتماعية، نجد أن صلاته الاجتماعية اقتصرت على العامة من أهل المدن والأسواق وأصحاب الحرف والصناعات الشعبية، وبعض الولاة وكتاب الدولة العباسية(١٣)، إضافة إلى نقائضه مع شعراء عصره الذين كان يتعرّض لهم، ومن بينهم: بشار بن برد، وأبو نواس، وأبو العتاهية، ومروان بن أبي حفصة، ودعبل الخزاعي، وسلم الخاسر... وسواهم.

- **صلاته برجالات عصره:**

وللأسباب السابقة فإن أكثر أهل عصره قد تحاموه «وازورّوا عنه، فلم يفتحوا له أبوابهم إلا قليلاً، وسرعان ما كان الباب الذي يفتح في وجهه يغلق من دونه، فعاش فقيراً، إلا من بعض ما كان يسقط إليه من قائد أو أمير، أو من بعض زملائه الشعراء في الحين الطويل بعد الحين»(١٤).

وتشير بعض المصادر التي ترجمت لأبي الشَّمَقْمَق «أن خَالد بن يَزِيْد بن مِزْيَد الشَّيباني اصطحب أبا الشَّمَقْمَق عندما ولاه المأمون الموصل، فلما كان وقت دخوله البلد اندقَ اللواء، فتطيَر خالد لذلك واغتمَ غماً شديداً، فقال أبو الشَّمَقْمَق فيه(١٥):

مَـا كـانَ مُـندَقُّ اللِّـواءِ لِرِيبَةٍ   تُخْشَـى، ولا سـببٍ يكونُ مُزَيِّلا

لكـنْ رأى صِـغَرَ الوِلايةِ فانثنى   مُتَقَصِّـداً لمَّـا اسـتقلَّ المَوْصِلا

وتذكر المصادر أن أصحاب الأخبار كتبوا بذلك إلى المَأمُون، فولَى خالداً ديار ربيعة كلَها، وكتب إليه: هذا لاستقلال لوائك ولاية الموصل؛ فأحسن إلى أبي الشَّمَقْمَق، ووصله بعشرة آلاف درهم».

وما نريد أن نتوقف عنده في هذه الحادثة، أنّ أبا الشَّمَقْمَق بفطنته وسرعة خاطره، استطاع ببيتين من الشعر أن ينقذ الموقف، ويقرأ الواقعة بطريقة متفائلة، وقد تحقَق له ذلك حين زاد المأمون في ولاية خالد بن يزيد، فأضاف له ديار ربيعة كلها، كما جاء في سياق الخبر.

وقريب من هذا المنحى الإيجابي ما يروى في وفادته على مُحمَّد بن عبد السَّلام، وكان قصده طالباً رفده وهو في مدينة نيسابور، فوافاه وهو في دار الخراج يطالب، "فدخل عليه يتوجَع له، فلما رآه قال[١٦]:

وَلَقَـدْ قَدُمْـتَ علـى رِجَال طالما   قَـدُمَ الـرِّجالُ علـيهُم فَـتَمَوَّلوا

أخْـنى الـزَّمانُ علـيهمُ، فَكَأنمَّا   كَـانوا بـأرضٍ أقْفَـرتْ فَتَحوَّلوا

فارتجل أبو الشَّمَقْمَق:

الجُـودُ أفْلسَـهَمْ، وَأذْهَـبَ مَالَهمْ   فالَـيومَ إنْ رَامُوا السَّمَاحَةَ يَبْخَلُوا

قال: فخلع محمد ثوبه وخاتمه، ودفعهما إليه، فكتب بذلك مستوفي الخراج إلى الخليفة، فوقَع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السَّلام في تلك السنة، وإسقاط ما عليه من البقايا، وأمر له بمائة ألف درهم معونة له على مروءته».

وفي هذا السياق يذكر أن أبا دَهْمان تقلّد سابور، وهي من كور فارس، وتقلّد جَمِيْل بن محفوظ المُهلبِّي أرجان، «فزارهما أبو الشَّمَقْمَق، فأحسن إليه أبو دهمان، ولم يلتفت إليه جميل فقال[١٧]:

رَأَيْـتُ جَمِـيْلَ الأزْدِ قد عَقَّ أُمَّهُ   فَـنَاكَ أبـو دَهْمَـانَ أُمَّ جَمِـيْلِ

فحمل يَحْيى بن خالد بعد ذلك إلى الديوان بمدينة السلام عمّال فارس، وفيهم أبو دهمان، وجميل، فرفعوا حسابهم، ونوظروا فيه بحضرة يحيى، فردَ أمر أبي دَهْمان إلى جميل، فألزمه مالاً لحسابه، فقال أبو دهمان: احفظ الصهر، فغضب، وسمعهما يحيى، فسأله عن معنى الصهر، فأنشده بيت أبي الشَّمَقْمَق، فضحك، وأمر بإبراء أبي دَهْمان مما لزمه من المال». على أن طبيعة العلاقة بين أبي الشَّمَقْمَق وولاة الدولة العباسية وعمالها وكتابها، قد حددت أبعادها الإيجابية، أو السلبية قضية المنفعة المادية، إذ كان أبو الشَّمَقْمَق يفد على هؤلاء، ويتعرض لبرهم ويلتمس عونهم، فمن أكرم وفادته منهم، ومدّ له يد العون والمساعدة، أثابه عل ذلك مديحه وثناءه، وإلا فإنه يسلّط عليه شواظ لسانه وخبيث هجائه.

ومما يذكر في هذا الباب أن أبا الشَّمَقْمَق، هجا «يحَيْى بن خالد البَرْمكي، وفَرَجاً الرَّخَجي، وجَمِيْل بن محفوظ، وزيْد بن عِمارة، وعُمَر بن مُسَاور، وسَعيْد بن مُسلِم، وجماعة من كبار أرباب السلطان وقواده»[١٨].

ومن ذلك أن أبا الشَّمَقْمَق وفد على عُمَر بن مُسَاور، وقد كان في ناحية الفَضْل بن الرَّبيع، ثم تحوّل عنه إلى البرامكة، فتولَى بعض أعمالهم في الأهواز، فلم يحسن وفادته ورفادته، فذمَه قائلاً[١٩]:

أنـا بـالأهوازِ جَـارٌ لعُمَـرْ   لِعَظَـيْم زَعَمـوا ضَخْمَ الخَطَـرْ
لا يُـرَى فـيه علينا أثَـرٌ   لا يكـونُ الجُـوْدُ إلا بِأثَـر
إنْ تَكُـنْ وُرْقُـكَ عـنَّا عَجِـزَتْ   يَـا أبَـا حَفْـصٍ فَجُـدْ لي بِحَجَر
يَكْسِـرُ الجَـوْزَ بـهِ صـبيانُنا   وإذا مـا حضـرَ اللـوْزُ كُسِـرْ

أما الولاة والكتاب الذين حازوا رضى أبي الشَّمَقْمَق، وفازوا بمديحه ونالوا ثناءه فمنهم: خالد بن يَزِيْد بن مزيَد، وأبو دَهْمان الغَّلابي، ومحمد بن عبد السَّلام، ومَالك بن علي الخُزَاعي، وابن إِدْريس وغيرهم.

● **علاقته بشعراء عصره :**

وتنطلق علاقة أبي الشَّمَقْمَق بشعراء عصره من باب التهديد والتكسّب والابتزاز، إذ كان يفرض عليهم ذاته، ويجعل له عليهم إتاوة يدفعونها له اتقاء شرّ لسانه، إذ كانوا يخشون خبث هجائه، لما اتسم به من شعبية وسرعة الانتشار بين فئات العامة، وخاصة بين الصبيان، الذين كان يلقّنهم ما يهجو به بعض الشعراء، فيتعرّضون لهم، ويسخرون منهم في السكك والأزقّة، ويركضون من ورائهم، وهم يرددون ذلك الهجاء، مما يجعل المهجوّ منهم في موقع لا يحسد عليه بين الناس.

وإذا كان بعض الشعراء يجود على أبي الشَّمَقْمَق عطفاً ومساعدة، إلا أنّ أبا الشَّمَقْمَق يأنف عن ذلك، ويعتبر أن ما يناله من بشار والشعراء الآخرين ليس سوى جزية مفروضة عليهم، ومما ورد في معاهد التنصيص «أن بَشَّار بن بُرْد كان يعطي أبا الشَّمَقْمَق في كل سنة مائتي درهم، فأتاه في بعض السنين فقال له: هلمَ الجزية يا أبا معاذ، فقال: ويحك، أجزية هي أيضاً؟ قال: هو ما تسمع، فقال له بشار يمازحه: أأنت أفصح مني؟ قال: لا، فألَم مني بمثالب الناس، قال: لا، قال: فأشعر مني، قال: لا، قال: فلم أعطيك؟ قال: لئلا أهجوك، فقال له: إن هجوتني هجوتك، فقال أبو الشَّمَقْمَق(٢٠):

إنِّـــي إذا ما شَاعرٌ هَجَانِيَه ... ولـــجَّ في القولِ لُه لِسانيه

أدْخلتُهُ في استِ أمّهِ عَلانيه ... بشَـــارُ يـــا بشـــارُ...

وأراد أن يقول: يابن الزانية، فوثب بشار، فأمسك فاه، وقال: أراد والله أن يشتمني، ثم دفع إليه مائتي درهم، وقال: لا يسمعن منك هذا الصبيان».

وقد عرف هذا المسلك من أبي الشَّمَقْمَق، واشتهر به بين الشعراء، فذكر الكَتَبِي أنَ أبا الشَّمَقْمَق كان «يهجو الشعراء الكبار مثل بَشَّار بن برد، وغيره من أهل عصره، وكانوا يصانعونه بالمال، وله عليهم رسم في كل سنة»(٢١).

وهذا ما أشار إليه المرزباني بقوله: «إن أبا الشَّمَقْمَق هجا كثيراً من متقدمي شعراء زمانه، ومنهم: بَشَّار، وأبو العَتَاهية، ومَرْوَان بن أبي حَفْصَة، وأبو نُواس، وبَكْر بن النَّطاح، وأبو حَنَش خضَير بن قيْس»(٢٢)، كما هجا إلى جانب هؤلاء: سَلْماً الخاسر، ودِعْبِلاً، ويُوسف الشاعر، والممزَّق، وغيرهم من الشعراء الآخرين(٢٣).

وقد تعرَض أبو الشَّمَقْمَق لأبي نُواس يسأله أن يدفع ضريبته، فدخل أبو نواس منزله، وأخرج رقعة ملفوفة، وأعطاها لأبي الشَّمَقْمَق، فإذا بها أبيات في هجاء أمه، وشتمها، فردَ عليه أبو الشَّمَقْمَق، وجرت بينهما مساجلات في الهجاء، عمَ أمرها وتداولت أخبارها ألسنة العامة، وانتشرت بين الصبيان(٢٤).

ومما يروى على لسان أبي الشَّمَقْمَق أنه قال : «أتيت بَشَّاراً، وقد أخذ صلة جزيلة بشعر عمله، فسألته مواساتي بشيء، فقال لي: عافاك الله، تسألني، وما لي صنعة، ولا مكسب سوى الشعر، وأنت شاعر مثلي تتكسب بالشعر؟ فقلت: صدقت، ولكنني مررت الساعة بصبيان يقولون(٢٥):

سَـــبْعُ جَـــوْزَاتٍ وَتِيــــنه   فـــتحوا بــــابَ المديــــنةْ
إنَّ بشَّـــــارَ بــــنَ بُــــرْدٍ   تــيسُ أعمـــى في سفينةْ

فسكت ساعة، ثم قال: يا جارية هاتي مائة درهم لشمقمق، ثم قال: خذها يا أبا محمد، ولا تكن راوية للصبيان، فأخذتها، وخرجت، فألقيتها على الصبيان».

ومن عجائب المصادفات أن بَشَّار بن بُرْد كان قد قبض عليه، وضرب بالسياط وطرح في سفينة فقال وهو يتألم: «ليت عين أبي الشَّمَقْمَق تراني، حيث يقول(٢٦):

إنَّ بشَّـــــارَ بــــنَ بــــردٍ   تــيسُ أعمـــى في سفينةْ

وهنالك العديد من الأخبار التي تروى حول ما كان يدور بين أبي الشَّمَقْمَق وشعراء عصره، ومن كثرة تسلّطه على سلم الخاسر الذي كان يتقي هجاءه بالمال، دون أن ينجو من ناره في بعض الحالات، فقد طالب سلماً مرة أن يهب له شيئاً، وقد علم أن جائزة خرجت له فلم يفعل، فهجا أبو الشَّمَقْمَق أمَ سلْم ببيتين من الهجاء الفاحش، فجاءه سلم فأعطاه خمسة دنانير وقال: أحبّ أن تعفيني عن استزارتك أمي، وتأخذ هذه الدنانير، فتنفقها» (٢٧).

ويبدو أنَ أبا الشَّمَقْمَق كلما احتاج إلى المال، عاد إلى شائع أمره، ومألوف عادته، فقد استماح سلماً الخاسر مرة، فمنعه؛ فتعرَض له بأربعة أبيات رماه فيها بم لا يحمد من الصفات والطباع، ونعته بالخناثة والفسولة، فضحك منه سلْم، وأعطاه خمسة دنانير «وقال: أحب - جعلت فداك - أن تصرف راهبك الأصلع عن باب ديرنا»(٢٨).

ومما يروى في هذا الجانب أن «المَهْدي فرَق على الشعراء جوائز، فأعطى مروان ثلاثين ألفاً، فجاءه أبو الشَّمَقْمَق فقال له: اجزني من الجائزة، فقال له: أنا وأنت نأخذ ولا نعطي، قال: فاسمع مني بيتين، فقال: هات، فقال أبو الشَّمَقْمَق (٢٩):

لِحْـيَةُ مـروانَ تَقـي عَنْـبَرا ... خَـالطَ مِسْـكاً خَالصـاً أذْفـرَا

فمـا يُقَـيمانِ بهـا سـاعةً ... إلا يعـودانِ جمـيعاً خَـرَا

فأمر له بدرهمين، وقيل بل عشرة دراهم، فقال له: خذ هذه، ولا تكن راوية للصبيان»، وحين نحلل هذه العلاقة في أبعادها، لا نجدها تصدر عن عداوة، ذلك أن أبا الشَّمَقْمَق أدرك أنه غير متاح له أن يصل إلى صفوة القوم، كي يحظى بجوائزهم، فاكتفى بأن يفرض على هؤلاء الشعراء ما يمكن أن يسمى خوة، أو جزية، ولذلك كان أبو الشَّمَقْمَق لا يتجاوز هذا الدافع المادي، الذي كان يفرض عليه ذلك السلوك، وعدا ذلك فقد كانت تقوم بينه وبين الشعراء الذين مرَ ذكرهم

منادمات ومطارحات ومداعبات، وكان هو ينكر بعض مواقفهم، ويستهجن بعض تصرفاتهم، ومن ذلك أنه رأى أبا العتاهية يحمل زاملة المخنثين، فقال له:[٣٠] «أمثلك يضع نفسه هذا الموضع مع سنك وشعرك وقدرك؟ ويذكر أبو الشَّمَقْمَق أن أبا العتاهية قال له: أريد أن أتعلم كيادهم، وأتحفظ كلامهم».

وأكثر ما كان أبو الشَّمَقْمَق يستجدي المال، ويطلب المساعدة من بَشَّار، وكان هذا يعابثه، ويمازحه، ليسمع منه ما يريد أن يهجوه به، ولكنَ بشاراً في المنحى العام كان من أكثر الشعراء عطفاً على أبي الشَّمَقْمَق، ومساعدة له. ويروى أن أبا الشَّمَقْمَق جاء إليه يشكو الضيقة، ويحلف أنه ما عنده شيء، فقال له بَشَّار[٣١]: «والله ما عندي شيء يغنيك، ولكن قم معي إلى عُقْبة بن مَسْلم، فقام معه؛ فذكر له أبا الشَّمَقْمَق، وقال: هو شاعر، وله شكر وثناء، فأمر له بخمسمائة درهم، فقال له بشار:

يَـــا وَاحِـــدَ العَـــرَبِ الـــذي ... أمســـى ولـــيسَ لَـــه نَظِـــيرُ

لـــو كَـــان مِـــثْلُكَ آخَـــراً ... مـــا كـــانَ فـــي الدُنـــيا فقـــيرُ

فأمر لبشار بألفي درهم، فقال أبو الشَّمَقْمَق: نفعتنا، ونفعناك يا أبا معاذ، فجعل بشار يضحك».

● **ديوانه:**

يذكر ابن النديم في الفهرست، والنويري في نهاية الأرب أنَ لأبي الشَّمَقْمَق ديواناً يقع في /٧٠/ ورقة[٣٢]، ولكن ما وصلنا منه لا يزيد على ثلاثمائة من الأبيات، جاءت منثورة في بطون المصادر الأدبية على شكل قصائد وأبيات متفرقة ومقطعات شعرية.

ويُعدُّ المستشرق النمساوي غوستاف فون غرنباوم أول من جمع شعر أبي الشَّمَقْمَق في دراسته الهامة عنه، وعن مطيع بن إياس وسلم الخاسر، حيث جمع من

أشعاره /٧٥/ قطعة، تضم /٢١٦/ بيتاً، وقد قام الدكتور محمد يوسف نجم بترجمة تلك الدراسة[٣٣]، وإعادة النظر في تحقيق وتصويب تلك القطع، التي جمعها غرنباوم، ونشرها في كتابه شعراء عباسيون، مضيفاً إليها /٦/ قطع، تضم /٣٥/ بيتاً.

ثم أن الدكتور واضح محمد الصمد قام في منتصف التسعينات بجمع وتحقيق أشعار أبي الشَّمَقْمَق، مستفيداً دون أدنى شك مما جمعه غرنباوم، ويوسف نجم، وزاد عليه عدة مقطوعات، وبعض الأبيات على قصائد سابقة[٣٤]، وحذف منها البيت، الذي يقول:

أرَادَ اللهُ أنْ يخـزي جميلاً   فسـلَّطني علـيهِ بأرجان

لعدم وجود ما يثبت نسبته إلى أبي الشَّمَقْمَق كما يقول، وبلغ مجموع ما أضافه /٦/ أبيات شعرية فقط.

ويبدو أن الاهتمام بجمع شعر أبي الشَّمَقْمَق لم ينقطع، وظل شعره بماله من نكهة خاصة موضع اهتمام الدارسين والباحثين، وفي هذا المجال قامت الباحثة كارين صادر بجمع أشعار أبي الشَّمَقْمَق وأخباره، معتمدة على جهود من سبقوها من باحثين عرب وأجانب، ونشرتها وزارة الثقافة السورية.

وقد أضافت صادر إلى النصوص السابقة، مقطعات وأبياتاً جديدة، بلغت نحواً من /٥٠/ بيتاً، فكانت مجموعتها في /٨١/ قطعة شعرية، وإن كانت أكثر الإضافات التي أوردتها من قصائد وأبيات، مما لم يجزم بنسبته إلى أبي الشَّمَقْمَق، حيث أنها ترد في بعض المصادر منسوبة إليه، وترد في مواضع أخرى منسوبة إلى سواه من الشعراء، وكان الأجدى في هذا المقام أن تفرد هذه القصائد في ملحق خاص بها مادامت المصادر لم تقطع بنسبتها إليه[٣٥].

ومن خلال متابعة شعر أبي الشَّمَقْمَق عثرنا على قطعتين أخريين له فيما لم يرد سابقاً، إحداهما في المديح تضم ثلاثة أبيات، وأخرى في المجون[٣٦]، تضم بيتاً واحداً، إضافة إلى بعض أخباره الأخرى[٣٧]، مما يؤكد أنَ قسماً كبيراً من شعر أبي الشَّمَقْمَق ما زال ضائعاً ومفقوداً، وهو بحاجة إلى عملية بحث متواصلة، ريثما تكشف الأيام عن ديوانه المفقود.

- **المديح:**

لأبي الشَّمَقْمَق بضع قصائد ومقطعات في المديح، جاءت من حيث الصياغة الفنية والوقع النفسي، والدلالة المعنوية متواضعة إلى حد كبير، إذا ما قيست بقصائد أقرانه من الشعراء الكبار كبشار، وأبي نواس، أو مروان بن أبي حفصة وغيرهم، وفي ذلك ما يفسر لنا كساد بضاعته في المديح، وانصرافه عن التكسّب بها، إلى التهديد بالهجاء، إذ كان به أطول باعاً، وأشد إيلاماً وإيذاء.

ولقد كان القليل من مديح أبي الشَّمَقْمَق في الخلفاء العباسيين، ولم نجد له سوى قطعتين صغيرتين، لا تزيدان على أربعة أبيات، تعرَض فيهما لنوال موسى الهادي، واصفاً إياه بالتّقى، والسَخاء والأمانة فقال(٣٨):

إنَّ أميـنَ الله موسى الذي ... لا يشـتري المِدْحَةَ بالدَّينِ

أيَـا أمينَ اللهِ والمُصطفى ... دُقَّ ثَـنَايايَ بألْفيـنِ

على أن أكثر مديحه كان للولاة والكتاب، وبعض الأمراء والشخصيات ذات المكانة الاجتماعية غير العالية المكانة، ومن ذلك أنَه قصد يزيد بن مزيد إذ كان والياً على اليمن، فوصف سفره الطويل، ورحلته التي قطعها ماشياً على قدميه، مشيراً إلى بعض صفات الممدوح ومناقبه التي جعلته مقصد طلاَب الندى، فهو كريم، يهب المال في السلم، وشجاع يخطف أرواح البطال في أوقات الحروب والمحن، ثم يطرق باب الاستجداء المباشر، دون تلميح، كما كان يفعل شعراء المديح في العادة فيقول(٣٩):

رحـلَ المَطِـيَّ إليكَ طُلاب النَّدى ... ورحلْـتُ نحـوكَ ناقـةً نَعْلَّـيه

إذْ لـم تكـنْ لـي يا يزيُد مَطَّيةٌ ... فجعلْـتُها لـي فـي السّفَارِ مطيّه

تَخْـدِي أمـام الـيَعْمَلاتِ وتغْتلي ... فـي السَّـيرِ تترُك بعدها المَهْريَّه

تَنْـتابُ أكـرمَ وائـلٍ فـي بيتِها ... حَسَـباً وُقـبَّةُ مجدهـاَ مبنـيه

أعنـي يـزيداً سـيفَ آلِ محمدٍ		فَـرَّاجَ كُـلِّ شـديدةٍ مَخْشـيةْ
يومُـاه يـومٌ للمواهـبِ والجـدا		خَضِـلٌ، ويـوُم دمٍ، وخطفِ منَيَّه
ولقـد أتيُـتَك واثقـاً بِـكَ عَالماً		أنْ لسْـتَ تسـمُع مِدْحـةً بِنَسيه

فقال: صدقت يا شمقمقي، ولست أقبل مدحة بنسيئة، أعطوه ألف دينار».

وفي بعض قصائده المدحية كان يستدر عطف الممدوح بالشكوى من سوء الحال، ويتخذ من فقره، وجوع عياله وسيلة لاستجلاب رفد الممدوح، والحصول على عطائه ونواله كما في قوله مادحاً[٤٠]:

يـا أيُّهـا المُلْـك الـذي		جَمَـعَ الجَلالـةَ والوقَارَه
ورثَ المكـارمَ صـالحاً		والجـودُ مـنهُ والعِمَـارَه
إنّـي رأيُـتكَ فـي المَـنَا		مِ، وَعَدْتنَـي منكَ الزِّيارَه
فغـدْوتُ نحَـوكَ قاصِـداً		وعلْـيكَ تصْـدِيقُ العِبَارَه
إنِّـي أتانـي بالـنَّدى		والجُـودِ منْكَ إلى البِشاره
إنَّ العـيالَ تركـتهُمُ		بالمصـرِ خُبزُهُمُ العُصَارَه
وشـرابُهمْ بَـوْلُ الحِمَـا		رِ، مِـزاجُهُ بَـوْلُ الحِمَارَه
ضَـجُّوا فقلـتُ: تصبَّروا		فالـنُّجحُ يُقـرَنُ بالصَّبارَه
حـتَّى أزورَ الهاشـمـ		ـيَّ أخَـا الغُضَـارةِ
ولقـد غَـدَوْتُ وليسَ لي		إلا مَدِيْحَـكَ مـن تِجَـارَه

ومن بين الوسائل التي كان أبو الشَّمَقْمَق يلجأ إليها، أنَه كان يعقد المقارنة بين الممدوح والمهجو في قصيدة واحدة، وهو بذلك يسير على طريقة ربيعة الرَقي، بل إنه سلخ – كما يقال – أحد أبياته المشهورة، وأغار على معنى له في قصيدة قال يمدح بها يزيد بن مزيد[٤١]:

لَشـتَّانَ مـا بينَ اليزيدينِ في النَّدى إذا عُـدَّ فـي الناسِ المكارِمُ والمجدُ
يـزيدُ بنـي شـيبَان أكـرَم مـنهما وإنْ غَضـبَت قيسُ بنُ عَيْلان والأَزْدُ
فـتى لـم تلْـدهُ مـن رُعَيْـنٍ قبيلةٌ ولا لَخْـمُ، تَنْمِـيه، ولـم تَـنْمِه نَهْدُ
ولكـنْ نَمَـتْهُ الغُـرُ مـن آلِ وائـلٍ وبَـرَّةُ تَنْمِـيهِ، ومـن بعدِهـا هِـنْدُ

وغالباً ما كان يطرق هذا الباب من المقارنات التي كان يستغل بها تأثير التضاد بين الكرم والبخل، وبين البشاشة والتجهّم في استقبال الضيف والترحيب به أو الضيق والتبرّم من وجوده، وله في هذا المنحى أكثر من قصيدة جمع فيها بين مالك بن عوف الخزاعي، وسعيد بن سلم الباهلي حيث يقول(٤٢):

قـد مـررنَا بمالكٍ فوجدْنَا هُ جَواداً إلى المكارمِ يَنْمي
مـا يُبالي أتاهُ ضيفٌ مُخِفٌ أم أتَتْه يأجوجُ من خلفِ رَدْمِ
فانتهينا إلى سعيد بن سلم فإذا ضيفه من الجوع يرمي
وإذا خـبزُهُ عليهِ سيكفيـ ـكَهُم الله ما بدا ضَوْءُ نجمِ
وإذا خـاتمُ النَّبـيِ سليما نَ بـنِ داودَ قد علاهُ بخَتْمِ
فارْتحلنا من عندِ هذا بحمدٍ وارتحلـنا من عندِ هذا بِذَمِّ

وإذا كان أبو الشَّمَقْمَق في باب الهجاء ذم بعض الولاة والكتاب، لأنهم احتجبوا عن الناس، وصدوا أبوابهم في وجه طلاب الحاجات، فإنه في مديح ابن إدريس يبرز خصلة غشيان الناس مجالسه، التي لا يحول دون الوصول إليها حاجب أو مانع فيقول(٤٣):

وليسَ على بابِ ابن إدريسَ حاجبٌ ولَيس على بابِ ابنِ إدريَس من قُفْلِ
طربْـتُ إلـى معـروفهِ فطلبْـتُهُ كما طَرِبتْ زِنجُ الحِجَازِ إلى الطَّبْلِ

ويلاحظ بشكل عام أن مديح أبي الشَّمَقْمَق أقرب ما يكون إلى الكدية والاستجداء المباشر، وهو في ذلك يقترب من مديح ابن الحَجَّاج، وابن سُكَّرة الهاشمي، وأبي فِرْعَون السَّاسيّ، إذ كان صريحاً في طلب النوال والمسألة المباشرة، وما يعبر عن ذلك أنه دخل مرة «على عُقْبة بن سَلْم، وهو جالس بين بَشَّار ومَرْوان، فاستأذنه في الإنشاد، فأذن له، فأنشده(٤٤):

يا عُقْبُ يا عُقْبُ وُقِيْتَ الرَّدَى	**يــا قاتلَ البُخْلِ ومحيي النَّدَى**
إنَّ أبــا عَمْــرَة قــد زارني	**فشــقَّ سِــرْبالي وقَــدَّ الرِّدا**
فالطُمْــهُ يــا عقُب لنا لَطْمةً	**إذا رآنــي فــي الطريقِ عدَا**

قال: بم ألطمه؟ قال: بخمسمائة درهم، قال: أنا أبو الملد، ربحت عليك أربعة آلاف درهم وخمسمائة درهم، أعطوا شميمقاً خمسمائة درهم، واحملوه على بقرة».

وقريب من ذلك ما رواه الأصمعي اللغوي إذ قال: "أتاني أبو الشَّمَقْمَق، فأنشدني(٤٥):

رأيْــتكَ فــي النَّومِ أطعمتَني	**قَوَاصِــرَ مــن تمرِكِ البَارِحَه**
فقلْــتُ لصِــبياتِنا أبشِــرُوا	**بُــرؤيا رأيْــت لكــم صَالحِه**
فــأُم العِــيَالِ وصِــبياتُها	**إلــى الــبابِ أعينُهُم طَامِحَه**
فقُــلْ لــي: نعــم إنَّها حلوةٌ	**وذع عــنكَ، لا إنَّهــا مَالِحَه**
فأنــتَ امرؤٌ تبتني المكرُمَاتِ	**سَــبُوقٌ إلى الصَّفْقَةِ الرابِحَه**
يــداكَ: يَــدٌ لِسَــهامِ العِــدَا	**وأخــرى لأفواقِهــا ماتِحَــه**

● **الهجاء:**

وإذا كان بعض دارسي شعر أبي الشَّمَقْمَق يرون أن مديحه كان دون مديح نظرائه، إلا أنَ «أهاجيه لا تقلّ عن أهاجيهم إقذاعاً، ولعلَ شاعراً معاصراً له لم يبلغ من إقذاعه ما بلغه، إذ ملأ أهاجيه بالفحش والألفاظ البذيئة، حتى لنرى شاعراً مثل

بشار المعروف بخبث لسانه يخشاه خشية شديدة»(٤٦) وهكذا يعدّ الهجاء من أوسع الأغراض الشعرية التي طرقها أبو الشَّمَقْمَق في شعره، وقد عرف عنه ذلك واشتهر، فوصف بأنه خبيث الهجاء، ولهذا كان أقرانه من الشعراء يتحاشون بذاءة لسانه، وشعبية هجائه، وسرعة انتشاره، ولا سيما بين الصبيان وشرائح العامة.

وقبل أن نتحدث عن هجاء أبي الشَّمَقْمَق للآخرين نشير إلى حادثة وقعت له، عندما مرَ به أعرابي فسأله إن كان يقول الشعر، فأجابه بنعم، ثم أن أبا الشَّمَقْمَق دفع له درهمين ليهجوه، فقال ذلك الأعرابي: ما رأيت أحداً يشتري الهجو بالثمن غيرك، فأنشده عدة أبيات، نال فيها من أم أبي الشَّمَقْمَق ورماها السوء من القول، فجزع أبو الشَّمَقْمَق مما سمع، وقال: أعوذ بالله من الشّقاء، ما كان أغناني عن هذه التجارة»(٤٧) مما يدّل على أنَ الهجاء قد أخذ من نفسه مأخذاً جعله يقدم على ذمّ نفسه، مثلما كان يذمّ ويهجو الآخرين فقال(٤٨):

مَن يكنْ إبْطهُ كآبَاطِ ذا الخَلْـــ ـــقِ فإبْطاي في عِدَادِ الفِقَاحِ

لـــي إبطـــانِ يَرْميانِ جَليسي بِمِـــثَالِ السُّلاحِ، أو بالسُّلاحِ

وعندما نعود لتحليل هجاء أبي الشَّمَقْمَق لا نجده يصدر عن خلاف في الرأي، أو للدفاع عن قضية معينة، وإنَما هو سلاح اعتمد عليه في تحصيل قوته، وكسب رزقه، وزاد من حدة هجائه وشدته ما كان عليه من فقر وبؤس شديدين، وما كان يجده من إعراض أهل عصره، ومنع أهل زمانه، فكان يصبّ عليهم نار غضبه وحقده مستخدماً المفردات البذيئة، والصور المنفّرة والهازئة والتشبيهات الساخرة، التي تضع المهجو في موقف لا يحسد عليه، ولأنَ أبا الشَّمَقْمَق كان قريباً من بيئة العامة، فإنَه كان يستخدم أكثر المعاني، وأشدَ الصور تأثيراً في ذهنية العامة، ولهذا فهو عندما يهجو ينعت المهجو بالقذارة، ويلجأ إلى القذف في شرفه، والمس بكرامته، وينسبه إلى النتانة ، ويشبّهه بالكلاب والخنازير والحمير، وبالتالي فهو يظل قريباً من بيئة العامة وتصوراتها ومفرداتها.

وعندما نصنّف الفئات التي رماها أبو الشَّمَقْمَق بالهجاء نجدها تتوزع: بين العامة من أصحاب الأسواق والتجار، والمزارعين، وبين الولاة والكتاب وعمال السلطان، ودائرة الشعراء من أقرانه، ومن ذلك أنَ أبا الشَّمَقْمَق تعرَض لنوال عيسى بن سليمان، «وكان هذا شديد البخل، وكانت له محابس يحبس فيها البياح ويبيعه، وكانت له ضيعة تعرف بدالية يبيع فيها البقول والرياحين، وكان أول من جمع السماد بالبصرة»(٤٩)، فلم يعط أبا الشَّمَقْمَق شيئاً، فما كان منه إلا أن هجاه ببيت كان وقعه شديد المرارة، فوصفه بأنه لا يرتزق من جليل الأعمال وأشرفها، كما يفعل كرام الناس، وإنّما هو يحصل على ماله ورزقه من جمع القذارة وبيعها فقال(٥٠):

إذا رُزِقَ العِبَادُ فإنَّ عيسى　　　لـهُ رِزْقٌ مِـن استَاهِ العِبَادِ

وأبو الشَّمَقْمَق لا يكترث بالمعنى، بل يركّز على الصورة، وأثرها النفسي، وتأثيرها على المهجو، والمتلقين لشعره، ولهذا نجده يحشد في بيت واحد، أو بيتين من الشعر العديد من التشبيهات المؤثرة، ومن ذلك قوله في هجاء أحدهم(٥١):

الطَّرِيقَ الطَّرِيقَ جاءكم الأحْمقُ　　　رأسُ الأنـــتانِ والقَـــذَرَه

وابنُ عَمِّ الحِمَارِ في صُورةِ الفيلِ　　　وَخَـــالُ الجـــاموسِ والــبَقَره

يمشـــي رُوَيـــداً يُـــريدُ خَتْلَكم　　　كمشـــيِ خِـــنْزِيرةٍ إلـــى عَذِرَهْ

وغالباً ما يلجأ أبو الشَّمَقْمَق إلى استخدام الصورة المركبة التي تجعل من المهجو مسخاً، يجمع بين صفات الإنسان والحيوان والطير، فيختار من بين تلك الكائنات أكثر صفاتها قذارة، ومن طباعها أشدّها سوءاً، فيسمه بذلك مؤثراً مخاطبة أكثر من حاسة من حواس المتلقي، ليزيد من تأثير الهجاء وشدّة تأثيره، فيرسم للمهجو صورة كاريكاتورية لاذعة وساخرة(٥٢)، كما نقرأ في هجائه لداود بن بكر، عندما كان والياً على الأهواز(٥٣):

قـد ولـي فارسَ والأهـ ـــــوازَ داودُ بـــنُ بكْـــرِ
ولَـــــهُ لحـــيةُ تـــيسٍ ولَـــــهُ مِـــنقارُ نِسْـــرِ
ولَـــــهُ نَكْهَـــةُ لَيْـــثٍ خَالَطَـــتْ نَكْهَـــةُ صَـــقْرِ

وإذ يصب أبو الشَّمَقْمَق هجاءه على شخص ما، فإنه لا يتورع عن استخدام أية مفردة مشينة، أو استخدام أية صورة تنال من ذلك المهجو إلا ألصقها به، ومما يصب في هذا المنحى هجاؤه لرجل يدعى سران، فنعته بالخزي والمهانة، ونسبه إلى المخازي، وشبهه في معرض الهجاء بالكلاب والتيوس والفيلة فقال(٥٤):

ألا قُــولا لِسَــرَّانِ المَخَـــازي وَوَجْهِ الكَلْبِ والتَّيْسِ الضَّرُوطِ
لــهُ بَطْـنٌ يظِـلُّ الفِـيلُ فيهِ وُدُبـرٌ مــثلُ راقُــودِ النَّشوطِ
لَــه وجــهٌ علــيهِ الفقــرُ بَادٍ مُـــرقَّعةٌ جوانـــبُهُ بُغـــوطِ
إذا نهـضَ الكرامُ إلى المعالي تــرى سرَّانَ يسفلُ في هُبُوطِ

ويستمدُّ أبو الشَّمَقْمَق من بيئة العامة أكثر الصور، وأشدها تأثيراً في وصف بخل المهجو، ولقربه من تلك البيئة، وتجواله في الأسواق وبين أصحاب الحرف والمهن، وجدناه يستعير مفردات الحدادين والنجارين والأدوات التي يستخدمونها في صنعتهم، كالمسامير والأبواب الموصدة، والأقفال المقفلة ليقرّب بذلك صورة المهجو إلى الأذهان، كما يقول في ذم أحدهم(٥٥):

يَــبسُ اليدينِ فما يَسطِيعُ بَسطَهُما كَـــأنَّ كَفَّـــيهِ شُـــدَّا بالمَسَـــاميرِ
عَهْـدي بــهِ آنِفَــاً في مَرْبَطٍ لهُمُ يُكَسْكِسُ الرَّوْثَ عن نَقْرِ العصافيرِ

ويستعير صورة الحداد الذي يعالج قفلاً ضاعت مفاتيحه، ليصف لنا بخيلاً شديد المنع، وقد أطبق كفّيه على ما جمع من مال، وامتنع عن البذل والعطاء فقال(٥٦):

إنَّ رياحَ اللُّؤمِ من شمِّهِ　　　لا يطمعُ الخنْزيرُ في سلْحِهِ
كفُاه قُفْلٌ ضاعَ مِفْتاحُهُ　　　قدَ يئِسَ الحَّدادُ من فَتْحِهِ

وقد استقى من مهنة الحدادة، وأعمال الحدادين، أكثر من تشبيه، لتمثيل صورة البخيل، الذي لا يستجيب للمديح والثناء، لأن ذلك من غير طبيعته، فكأنَه الحديد البارد الذي لا تنفع فيه مطرقة الحداد، ولا يستفاد منه، فقال في سعيد بن سلم(٥٧):

هَـيْهاتَ تَضْـرِبُ في حديدٍ باردٍ　　　إنْ كُنْـتَ تَطْمَـعُ في نَوَالِ سَعَيْدِ
واللهِ لـو مَلِـكَ الـبِحَارَ بأسرِها　　　وأتـاهُ سَـلْمٌ فـي زمـانِ مُدُوْدِ
يبغـيهِ مـنها شَـرْبَةً لُطِهُـورهِ　　　لأبـى وقَـال تيمَّـنْ بِصَـعِيد

وقد أكثر أبو الشَّمَقْمَق من هجاء الناس، ورماهم بالبخل الشديد، ومنع الزاد والخبز عن المحتاجين والمعوزين، وسخر من تقتيرهم كما في هجائه هُوْذَة بن علي إذ قال(٥٨):

يـا كَاسِـرَ حَرْفَ الرَّغيفِ　　　عَرَّضْـتَ نَفْسَـكَ للحُتُوْفِ
أوَمَـا عَلِمْـتَ بـأنّ هَوْذَ　　　ةَ غـيرُ نَـوّامٍ ضَـعيفِ
وتَـراهُ خَـوفَ مُطفّـلٍ　　　للـبُخلِ يـأكلُ في الكَنيفِ

وكان أبو الشَّمَقْمَق ربما جمع في بيت واحد بين المدح والهجاء، مما يدّل على طول باعه في هذا الفن، وتمكنه من أدواته وصناعته، ومما يروى في ذلك: "أنه صار إلى منصور بن زياد يسأله أن يبرّه، وكان منصور ضيّقاً بخيلاً، فوهب له عشرة الدراهم، وبلغ الخبر محمد بن منصور، فأرسل إليه بمائة درهم، وأمره بالعودة إليه ليبره، فأخذها، وقام وهو يقول(٥٩):

لـولا ابنُ منصورٍ وأفضالُهُ　　　سَـلَحْتُ في لِحْيَةِ منصورِ

فبلغ ذلك محمداً، فقال: إنما خفنا هذا، وما أفلتنا منه».

وإذا كان هجاء أبي الشَّمَقْمَق أكثر ما ينصب على الأفراد، فإنه في جوانب أخرى هجا أهل زمانه، فوصف أخلاقهم بالرياء والكذب والنفاق والبخل فقال[٦٠]:

الصَّــدقُ في أفواههِم عَلْقَمٌ ... والإفْــكُ مثلُ العَسلِ الماذي

وكُلُّهــمْ فــي بُخْلهِ صادِقٌ ... وفــي الــنَّدى ليسَ بُأسْتَاذِ

كما أنه مدح الموالي وذم بخل بعض العرب الذين صاروا كما يقول يطمعون بالمديح دون بذل أو عطاء[٦١]:

ذهــبَ المُــوالِ فــلا مُوا ... لِ وقــد فُجِعْــنا بالعَــرَبْ

إلا بقايـــــا أصـــــبحوا ... بالمِصْــرِ من قِشْرِ القَصَبْ

بـــالقولِ بَـــذُّوا حاتمـــاً ... والعَقْــلُ رِيْــحٌ في القِرَبْ

وقد انصب بعض هجاء أبي الشَّمَقْمَق على المدن، حين أعرض أغنياؤها عن مساعدة الفقراء والمعدمين من أهلها ، ومن ذلك ذمه مدينة بغداد إذ يقول[٦٢]:

ليسَ فيها مُرُوْءَةٌ لشريفٍ ... غــيرَ هذا القِنَاعِ بالطَّيلسَانِ

وبِقيْنَا في عُصْبةٍ من قُريشٍ ... يَشْــتهونَ المديحَ بالمَجَّانِ

وله في بغداد أكثر من قصيدة وصف بها ما كان يعانيه من بؤس شديد، دفعه إلى مغادرتها، وإعلان الرحيل عنها إلى الأهواز فقال[٦٣]:

ذاكَ خــيرٌ من التَّردُّدِ في بغدا ... دَ تَــنْزو بَــي البِغَالُ النَّوازي

كــلَّ يــومٍ فــي كُمَّةٍ وقميص ... ورداءٍ مــن الغُــبَار طِــرَازِي

لــم يَحُكْــهُ النَّساجُ يوماً لبيعٍ ... لا، ولا يُشْــترى مــن البَزَّازِ

أخــذت أهلَهــا الشياطينُ بالرَّ ... كَــضِ لطُولِ الشَّقاءِ والإعْوازِ

ولأبي الشَّمَقْمَق هجاء في حلوان وأهلها، إذ وصفهم بالخنازير، ورماهم بالبخل، وإغلاق الأبواب وطرد الضيوف فقال(٦٤):

مـــا إنْ رأيــتُ خـــنازيراً مُغَرِّبةً ... إلا ذكــرتُ بهــم قومـــاً بِحُلْوانِ

قــومٌ إذا حلَّ ضيفٌ بينَ أظهُرِهمْ ... لــم يُـنْزِلُوه ودلّــوهُ عــل الخَانِ

ويجدر بنا أن نشير إلى أن أبا الشَّمَقْمَق كان يكثر من تشبيه مهجويه بالخنازير، ويستحضر هذه الصورة دائماً في شعره ليس لمجرد التشبيه فحسب، وإنّما لما استقرَ في أذهان الناس عن الخنازير من قبح وقذارة وحرص شديد(٦٥)، كانت تضرب به الأمثال، حتى قيل في ذلك: «لو أن الكفر والإفلاس والغدر والكذب تجسدت، ثم تصورت لما زادت على قبح الخنزير»(٦٦)، وهذا ما يفسر لنا من ناحية أخرى مغزى القول عن أبي الشَّمَقْمَق بأنه «كان خبيث الهجاء»(٦٧).

- **شكوى الحال:**

نسب أبو الشَّمَقْمَق إلى الشقاء وسوء التدبير، فأصابه من ذلك عناء شديد، وقد مرَ معنا استعاذته منه لما أصابه من شراء الهجاء لنفسه، وجزعه من ذلك.

ولعلنا عندما نبحث في أسباب سوء طالعه، ونكد حظه، وشدة فقره، نجد عوامل موضوعية وأخرى ذاتية تكمن وراء ذلك، فعلى الصعيد الاجتماعي كان المجتمع العباسي قد شهد تحولات شديدة، أفرزت نتائجها أعداداً واسعة من فئات المعدمين، والمعوزين وخاصة من بين الشعراء والأدباء والكتاب، الذين زهد الناس في بضاعتهم، وقلَ اهتمامهم بالأدب والشعر، فأعرضوا عن المديح الذي كان تجارة لكثير من الشعراء، ولم يكن أبو الشَّمَقْمَق الشاعر الوحيد في هذه المعاناة، فهنالك عشرات الشعراء الذين اشتكوا الفقر والخصاصة، ومالوا إلى احتراف الكدية والاستجداء، وتحولوا إلى عالم المخرقة والاحتيال، والتظاهر بالتحامق والجنون، كسباً للعيش ومجلبة لرزق العيال(٦٨).

أما الأسباب الذاتية، فهي ترجع إلى كونه بالأساس من موالي بني أمية، وهذا مما حال دون وصوله في كثير من الأحيان إلى بلاط الخلفاء العباسيين، وكبار رجالات دولتهم، فإن أضفنا إلى ذلك مظهره الخلقي، ومستوى موهبته الشعرية، أدركنا عندئذ أن العوامل الموضوعية والذاتية في اجتماعها عليه جعلت منه إنساناً محارفاً، شديد الخصاصة، في غاية النصب والبؤس، والتبرم بالحياة والمجتمع والناس.

ولعل أشعاراً له كما يرى الدكتور شوقي ضيف «لم تمس القلوب كما مستها أشعاره التي صور بها فقره وبؤسه، وخلو داره من الطعام، وما يعانيه من العدم والإفلاس»[٦٩]، وفي هذا المجال انصبَ شعره الشاكي، في وصف سوء حاله، وما كان عليه من فقر في بيته، وشظف حياته التي عبر بمشاعر إنسانية مجروحة، تصف ما كان يتجرعه من مرارة الحاجة والحرمان فقال[٧٠]:

أنَــا فــي حَالٍ تَعالى اللــ ــــــهُ ربــي أيّ حــالِ

لــيسَ لــي شيءٌ إذا قِيــ ــــلَ لِمَــنْ ذا قُلتُ: ذا لي

فأراضــــي اللهِ فَرْشِـــي والسَّـــمواتُ ظلالــــي

ولقـــد أفلسْـــتُ حـــتى مَحَــتِ الشَّــمسُ خَيَالــي

ولقـــد أفلسْـــتُ حـــتى حَــلَّ أكْلــي لِعَيالــي

مــن رَأى شــيئاً مُحَــالاً فَأَنــا عَيْــنُ المُحَــالِ

وليس من المبالغة القول: إنَ أبا الشَّمَقْمَق كان شاعر الشكوى والمعاناة بامتياز، فقد فتح هذا الباب على مصراعيه أمام الشعراء الآخرين، وفي هذا المجال نجده يشكو دائماً سوء طالعه، وحظه العاثر في مجموعة من القصائد والمقطعات الشعرية، التي تأخذ منحى الاعترافات الذاتية، التي يشير بها إلى نكد الحياة ومتاعبها، وإعراض الدنيا عنه، وإقبالها على سواه، فيصف لنا «سوء

حظه، وأنّه أينما اتجه لم يكسب شيئاً، بل يقعد به العدم الذي تعوّده، ويقعد به سوء البخت الذي لازمه في حله وترحاله، حتى ليجفَ البحر الذي يخوضه، وحتى ليستحيل الدرّ في يده حصى وزجاجاً، والماء العذب ملحاً لا يسوغ شرابه(٧١)، وفي هذا الصدد يقول(٧٢):

لو رَكبْتُ البِحَارَ صارت فِجَاجاً	لا تــرى فــي مُتُونِهَا أمْواجَا
ولو أني وضعْتُ ياقوتةً حمرا	ءَ فــي راحتي لصَارتْ زُجَاجا
ولــو أنــي وردْتُ عَذْباً فُراتاً	عــادَ لا شَــكَّ فيهِ مِلْحاً أُجَاجَا
فــإلى اللهِ اشتكي وإلى الفَضْــ	ــلِ، فقد أصبحَتْ بُزَاتي دَجَاجا

وفي باب الشكوى عرض أبو الشَّمَقْمَق بؤس أطفاله، وشدة جوعهم وحرمانهم، وما يكابدونه من حسرات في أيام الأعياد، فيشكو قائلاً(٧٣):

وقــد دَنــا الفِطْرُ وصبياتُنا	ليســوا بذي تَمْرٍ، ولا أرْزِ
وذَاك أنَّ الدَّهــر عَــاداهُمُ	عَــدَاوةَ الشَّــاهينِ للــوزِّ
كانــت لهمْ عَنْزٌ فَأوْدي بِهَا	وأَجْدَبُــوا مــن لَبَنِ العَنْزِ
فلو رَأوا خُبْزاً على شاَهقٍ	لأســرعوا للخُــبْزِ بالجَمْزِ
ولو أطاقوا القَفْزَ ما فاتَهُمْ	وكــيفَ للجَــائِعِ بالقفْــزِ

ومن الموضوعات التي تطرق إليها أبو الشَّمَقْمَق في هذا الجانب وصفه لبيته المجدب الذي خلا من كل شيء، وقد تداعت أركانه فقال(٧٤):

بَــرزْتُ مــن المَنَازِلِ والقِبابِ	فلــم يَعْسُــرْ على أَحَدٍ حِجَابي
فمنزلــيَ السَّماءُ، وسقفُ بيتي	سَــماءُ اللهِ أو قِطَــعُ السَّحَابِ
فَأنْــتَ إذا أردتَ دخلْــتَ بيتي	علَــيَّ مُسلِّماً مــن غيرِ بَابِ
لأني لَم أجِدْ مِصْراعَ بابٍ	يكونُ من السَّحابِ إلى التُّرابِ

ولا انشقَّ الثَّرى عن عُودِ تَخْتٍ   أؤمِّــلُ أنْ أشــدَّ بــهِ ثيابــي

ولا خِفْــتُ الإباقَ على عبيدي   ولا خِفْــتُ الهَلاكَ على دَوابي

ولا حاسَــبتُ يومــاً قَهرَمَاني   مُحَاســبةً فــأغْلَطُ في حِسَابي

ويصور أبو الشَّمَقْمَق في واقعية صادقة، تصل إلى حد الاعتراف ما كان يعانيه من حرمان وعدم في طعامه وشرابه فيقول[٧٥]:

أنــا مــن زُوارِ بيتــي   وأنــا ضــيفٌ لنفســي

اشــتري فــي كــل يــوم   حِــزمَةَ الــبقلِ بفَلْــسِ

وإذا مــا ذِقْــتُ خَــلاً   كــان مــن أيــامِ عُرسي

ومما يندرج في هذا السياق أنَ أبا الشَّمَقْمَق أكثر من وصف حيوانات بيته، وحشراته، من القطط، والكلاب، والفئران والجرذان، والعناكب والذباب والبراغيث، وفي ذلك منحى جديد في التصوير الواقعي، يزيد من إدراك أبعاد الواقع المادي الذي يعيشه، والذي دفع تلك الكائنات إلى عدم احتماله والصبر عليه، فهجرت هذا البيت الخاوي إلى بيوت الآخرين التماساً للطعام والشراب، ويعمّق أبو الشَّمَقْمَق هذا المشهد من خلال الحوار الذي يقوم بينه، وبين حيوانات وحشرات بيته، حيث يستسلم لمنطقها ويعجز عن إقناعها بالبقاء معه، وتحمّل هذا القدر من الجوع والحرمان، وكان في هذا الجانب» يخلط تصوير تعاسته، وتعاسة أمثاله من أفراد الشعب بالفكاهة، والألم والمواساة[٧٦]، كما نجد في قوله[٧٧]:

ولقــد قُلــتُ حيــن أقفــرَ بيتــي   مــن جِــرَابِ الدَّقــيقِ والفَخَّــارَه

ولقــد كــانَ آهِــلاً غــيرَ قَفْــرٍ   مُخْصِــباً خَــيرُهُ كَثــيرَ العِمَــارَه

فــأرى الفــأرَ قــد تجَنَّبــنَ بيتي   عــائذاتٍ مــنهُ بــدار الإمــارَه

ودعـا بالرَّحـيلِ ذبَّـانُ بيتـي   بيـنَ مَقْصوصـةٍ إلـى طَـيَّاره
وأقَـام السِـنَّورُ فـي البيتِ حَوْلاً   مـا يَـرى في جَوَانبِ البيتِ فارَه
يُـنغضُ الـرأسَ مـن شِدةِ الجُو   عِ، وعـيشٍ فـيه أذىً ومَـرارَه
قلْـتُ لمـا رأيـتُهُ نـاكسَ الـرَّأ   سِ كئيـباً في الجَوْفِ منهُ حَرَارَه
ويْـكَ صَـبراً، فأنـتَ خيرُ سِنَّو   رٍ، رأتْـهُ عيـنايَ قَـطُّ بِحَـارَه
قـالَ: لا صَبر لي، وكيفَ مُقامي   وَسْـطَ بيتٍ، قَفْرٍ كَجَوْفِ الحمارَه
قلـتُ: سـرْ راشداً إلى بيتِ جارٍ   مُخْصِـبٍ رَحْلُـهُ كثـيرُ التِّجارَه
وإذا العنكـبوتُ تَغْـزلُ فـي دَنِّي   وحُبِّـي والكُـوزِ والقَـرْقَارَه
وأصـاب الجُحَـامُ كلبي، فأمسى   بيـن كلْـبٍ، وكلـبةٍ عَـيَّارَه

ويصف في قصيدة أخرى عبث الفئران والبراغيث بجسده، مما «يشيع بالرغم من مرارة الفقر والحرمان بعض المرح والهزل»[٧٨] على مبدأ شر البلية ما يضحك فيقول[٧٩]:

أخَـذَ الفَـأرُ بِرِجْلـي   جَعَلـوا مـنها خِفَافِـي
وسـراويلاتُ سـوءٍ   وتَبَابِيْـنَ ضِـفَافِ
دَرَجـوا حولـي بِزَفْـنٍ   وبضـربٍ بالدِّفـافِ
قُلـتُ: مـا هـذا فقـالوا   أنْـتَ مـن أهلِ الزِّفافِ

ويبدو أن أبا الشَّمَقْمَق كان يعاني من لسع تلك البراغيث، التي كانت تجعل ليله قطعة من العذاب الذي لا يحتمل فقال[٨٠]:

يا طُولَ يَوْمي، وطول لَيْلَتهِ   فَلْيَهْنَ بُرْغُوثَةٌ بِجَذْلَتِهِ
قد عَقَدتْ بَنْدَها على جَسَدي   واجتهدتْ في اقتسامِ جُمْلَتِهِ

وكثيراً ما كان أبو الشَّمَقْمَق يجنح به الخيال، فيطرق باب التمني والآمال البعيدة، عسى أن يكون في تحقيقها ما ينقذه من معاناته، ويجد فيها حلاً لهذا التباين بين حياة المعدمين والموسرين، وهو في هذه الأمنيات يظل أسير الواقع، فلا يتمادى فيما يرغب أو يريد(٨١):

مُـنايَ مـن دُنيايَ هاتي التي ... تَسْلحُ بالـرِّزقِ على غيري
الجَـرْدَقُ الحاضـرُ مع بُضعَةٍ ... مِـنْ ماعزٍ رَخْصٍ، ومن طيرِ
وَجَـرَّةٌ تَهـدرُ ملآنــةً ... تحكـي قِـراءَةَ القسِّ في الدَّيرِ
وُجـبَّةٌ دكْـناءُ فَضفَاضـةٌ ... وَطَيْلسـانٌ حَسَـنُ النَّـيرِ
وَبَغلـةٌ شَـهبَاءُ طَـيَّارَةٌ ... تطْـوي ليَ البلدانَ في السَّيرِ
وَبَـدرةٌ مملـوءةٌ عَسْـجَداً ... مـا بـالذي أذكـرُ من ضَيْرِ
ومِـنْزلٌ فـي خَـيْرِ ما جِيْرةٍ ... قَـد عُـرِفُوا بالخَـيرِ والمَيْرِ
وصـاحبٌ يَلزمُنـي دهَـرهُ ... مِـثْلَ لُـزومِ الكِـيْسِ للسَّـيرِ
مسـاعدٌ يُعجبُنـي فَهْمُـهُ ... مُـرتَفِعُ الهِمَّـةِ فـي الخَـيْرِ

- **موضوعات أخرى:**

وإلى جانب الأغراض السابقة، طرق أبو الشَّمَقْمَق باب الوصف، وله في ذلك عدة قطع في وصف مشاهداته في الحياة، ووصف ليالي الأنس ومجالس الغناء، واللهو والمتعة، التي شهدها في الأهواز فقال(٨٢):

حيثُ لا تُنْكَرُ المَعَازفُ واللَّهـ ... ـوُ، وشُرْبُ الفَتى من التَّقْمَازِ
وَجَـوارٍ كَأنَّهـن نجومُ اللَّيـ ... ـلِ زَهْرٌ مِثْلُ الظِّباءِ الجوازي
واضِـحاتُ الخُدودِ أدْمٌ وبِيْضٌ ... فاتـناتٌ، مِـيلٌ مِـنَ الأَعْجَازِ
بيـن عَـوّادَةٍ، وأخرى بِصَنْجٍ ... فـي بَسَـاتِينها، وفي الأحْوَازِ

وقد ذكر أبو الشَّمَقْمَق الخبز، ووصف أنواعه، وأشكاله، وهذا موضوع أكثر فيه شعراء الكدية والاستجداء القول كما مرّ في الإشارة العبرة إلى أبي المخفف عاذر بن شاكر، وأبي فرعون الساسي، وهذا ما سار عليه أبو الشَّمَقْمَق إذ يقول(٨٣):

مــا جمَــع الــنَّاسُ لُدنياهُمُ ... أنفــعَ في البيتِ من الخُبْزِ

والخُــبز بــاللَّحمِ إذا نِلــتَهُ ... فأنْــتَ في أمْنٍ من التَّرْزِ

ولأنّه ممن كان يلتمس الخبز، ويستجديه من بيوت كثيرة، تباينت مستويات أهلها، وتمايزت أوضاعهم من حيث الغنى والفقر، فقد أشار إلى اختلاف أشكاله وألوانه فقال(٨٤):

خــبزُ المُعَلّــم واِلــبَقَّالِ مــتفقٌ ... واللَّــونُ مُختلفٌ والطَّعَمُ والصَّوَرُ

ولم يكن أبو الشَّمَقْمَق يغفل أحياناً عن تدوين خطراته الفكرية وتأملاته الحياتية التي تنفذ إلى ما وراء ظواهر الأشياء، فكان يقول في كشف أصحاب الزيف، وأهل الرياء، ولاسيما الذين يحرصون منهم على التظاهر بالدين والتزام الشعائر الدينية(٨٥):

إذا حجَجــتَ بمــالٍ أصــلُهُ دَنِسٌ ... فمــا حجَجــتَ، ولكنْ حَجَّتِ العِيَرُ

لا يقــبلُ الله إلا كُــلَّ طَيِّــبةٍ ... مــا كــلُّ مَنْ حجَّ بيتَ الله مَبْرورُ

وينتقد ظاهرة البخل والشحّ، وجمع المال دون إنفاقه بما يعود بالخير على صاحبه فيقول(٨٦):

ضــيَّعَ مــا ورَّثَــهُ راشدٌ ... من كيلةِ الأكداسِ في صفِّهِ

فُــربَّ كُدْسٍ قد عَلا رمَسهُ ... كــالدِّيك إذ يعلو على رَفِّهِ

ورأى أنَ أهل عصره وزمانه قد قست قلوبهم، وتبلّدت مشاعرهم، فضاع بينهم البسطاء، فليس سوى صلابة الوجه كسلاح في مجاراة هؤلاء، فقال(٨٧):

صلابةُ الوجه سلاحُ الفتى ... ورقَّــةُ الوجــهِ من الحِرْفَةْ

وبالرغم من قسوة الحياة عليه، فإنه دعا إلى الاستفادة من تجاربها، والاتعاظ بأحداثها فقال(٨٨):

إذا حـلَّ أمـرٌ، ثُمَّ لم تَتَعَظ بهِ ... فأنتَ امرؤ، لم ينتفعْ بالتَّجاربِ

وكان يرى أنَ الإنسان مساق وراء قدره المرسوم له، وأنَ المرء في هذا الوجود لا يدرك كل ما يتمناه، وأنَ من طبيعة الدّهر مناكدة الأحرار، إذ إنه يسقيهم من صروفه كؤوساً مترعة بالمرارة لا تطاق فقال(٨٩):

المَـرْءُ لـيسَ بِمُـدْرِكٍ ... مـن دَهْـرِهِ مـا يَبْتَغـيه
يسـقي العَلـيلَ من الدوا ... ءِ، خِـلافَ ما هو يَشْتَهيهِ

ولأبي الشَّمَقْمَق في المجون، وطلب الملذات عدة قطع شعرية، رأى فيها – دون تفاصيل عن تجاربه ومغامراته الشخصية – أن خير متع الحياة ما كان في الصبا وشرخ الشباب، فإذا ما انقضت أيام الصّبا، فلا متعة له إلا في شرب الرّاح وتناولها فقال(٩٠):

ما العيشُ إلا في جُنُونِ الصِّبَا ... فـإنْ تقضَّـى، فجنُونُ المُدَامْ

وإذا كان أبو الشَّمَقْمَق لم يطرق باب الغزل، ولم يقترب من مشاعر الذات، ولم نجد للمرأة صدى في شعره، فإنه عبَر عن نزوع صادق في الوفاء للأصحاب والخلان، الذين ترك غيابهم أسى في نفسه، وعزلة وزهداً في متع الحياة، وأسبابها فيقول(٩١):

أأعِـيرُ وَجـهَ العَيْشِ لَحظَةَ نَاظِرٍ ... مـن بعدكـم؟ إنّـي إذن لَخَؤُونُ
لا الروضُ روضٌ ناضِرٌ وإنْ اكتسى ... زَهْـراً، ولا المـاءُ المُعِينُ معينُ

وقد طرق أبو الشَّمَقْمَق أبواب الوصف، وصور بعض مشاهداته العابرة، وانطباعته الساخرة، ومن ذلك وصفه للفيل، وما تركته ضخامة حجمه في نفس أبي الشَّمَقْمَق، من رهبة ودهشة فقال(٩٢):

يـــاقَوْمُ إنِّـــي رَأيْـــتُ الفِيْلَ بَعْدَكم تَـــبارَكَ اللهُ لـــي فـــي رُؤْيَةِ الفِيْلِ
رَأيْـــتُ بَيْـــتاً لـــــهُ شيءٌ يُحَرِّكُهُ فَكُـــدتُ أصنَعُ شيئاً في السَّراويلِ

- **مكانته الشعرية:**

يرى غرنباوم أنَ أبا الشَّمَقْمَق كان «شاعراً عظيم الموهبة، جنى عليه الإخفاق المتصل»، فأثَّر في عملية نموه الفني(٩٣)، وأشار إلى تباين مستوى شعره، واختلاف علماء الأدب في تقديره لأنَه كان يجمع بين الجيد والرديء، فقد وصفه المرزباني بأنَه «غير جيد الشعر، على إكثاره فيه، بألفاظ أكثرها ضعيف، وربَما ندر له البيت»(٩٤)، وقال عنه ابن المعتز «وشعر أبي الشَّمَقْمَق نوادر كله»(٩٥)، أما الكتبي فذكر أنَ لأبي الشَّمَقْمَق «في الجد والهزل أشياء»(٩٦)، ومن هذا القبيل رأي المُبرد الذي حمل بعض الإنصاف لأبي الشَّمَقْمَق بقوله: ربما لَحَن، ويهزل كثيراً، ويجدُّ فيكثر صوابه»(٩٧).

ويذكر الجاحظ اختلاف أهل عصره في تقدير قيمة شعر أبي الشَّمَقْمَق، وتباين آرائهم واهتماماتهم به، مشيراً إلى أنَ ابن نَحة أخرج في مجلس ديوان أبي الشَّمَقْمَق، وإذا هو في جلود كوفية، ودفتين طائفتين بخط عجيب، فقيل له: لقد أضيع من تجود بشعر أبي الشَّمَقْمَق، فقال: لا جرم والله، إن العلم ليعطيكم على حساب ما تعطونه، ولو استطعت أن أودعه سويداء قلبي، أو أجعله محفوظاً على ناظري لفعلت»(٩٨).

ويرى بعض الدارسين والنقاد: أنَ أبا الشَّمَقْمَق ينحاز إلى تيار المجددين في الشعر العباسي، سواء من حيث اقتراب موضوعاته من بيئة العامة، أو من حيث البناء الفني، واختيار الألفاظ والصور والتَراكيب القريبة من الذهنية الشعبية، مما جعل شعره «تسوده روح شعبية قوية، فهو لا يعنى بمعانيه وأخيلته، وكأنه ينظمه عفو الخاطر»(٩٩)، ولهذا كانت العامة تقبل على أشعاره، لأنه كان يستخدم ألفاظها، مما يفسر لنا سرعة انتشاره، وتداوله على ألسنتها، وخاصة بين الصبيان، وألسنة الغلمان»(١٠٠).

والواقع أنَ أبا الشَّمَقْمَق شكَل طريقة خاصة، ومذهباً عرف به، فكان من بين الشعراء من أراد التشبه به، والسير على نهجه ومنواله، كما يستدلّ من قول أبي عبد الله بن هريسة في ردّه على خالد بن الصباح: «يا بارد لم ترد أن تعتذر، وإنما أردت أن تتشبه بابن مناذر ومحمد بن عبد الوهاب، وبأبي الشَّمَقْمَق، وأحمد بن المعذل، ولست من هؤلاء»(١٠١).

وقد اتسم شعره بخصائص فنية واضحة، تجلى فيها ميله إلى المقطعات والقصائد القصيرة، والميل إلى الارتجال، وتعليل ذلك أنَ أبا الشَّمَقْمَق لا يحفل بالمقدمات، وكان «يضرب بالاستفتاح التقليدي عرض الحائط(١٠٢)، وهو كما نلاحظ شديد التركيز على الموضوع أو الفكرة، يعبّر عنها بعفوية وسرعة خاطر، دون أن يطيل التفكير في صياغتها وتجويدها، ويلاحظ أنَ الصفة الغالبة على شعره هي الشعبية من حيث اقترابه من ذهنية العامة، وتصوراتها النفسية والفكرية، فهو يكثر من استخدام مفرداتها، والصور المقتبسة من أعمالها وحياتها، والأمثال المتداولة فيما بينها، ولهذا حوى شعره الكثير من الألفاظ الفارسية، وما هو متداول في بيئة البصرة كما فعل أبو نواس، وكما فعل بشار(١٠٣).

وإذا كُنا لا نتفق ورأي الدكتور واضح عبد الصمد في قوله: إن الدارس لشعر أبي الشَّمَقْمَق يجد فيه الجزالة والقوة، والمحافظة على عمود الشعر القديم، والقصائد الطوال، فإننا نتفق وإياه في أن شعر أبي الشَّمَقْمَق «يعكس لنا صورة عن المجتمع العباسي في مختلف طبقاته الاجتماعية، السفلى والعليا، الفقيرة والغنية، الوقورة المحافظة، والساخرة الماجنة»(١٠٤).

لقد كان أبو الشَّمَقْمَق على حد رأي غرنباوم لا يجاربه شعراء عصره في تصوير الإحساس المعبر عن الفقر والعدم، وهو أول من أدخل إلى الأدب العربي صورة السنور، الذي هجر بيت صاحبه الفقير، والفأر الذي يعبث في البيت المقفر، ولكن طرافته هذه لم تعد عليه بالخير الكثير، «فتعطلت موهبته بسبب افتقاره إلى ضبط النفس، ونتيجة إخفاقه الدائم، وهو يمثل الأخلاق المضطربة والعادات القلقة التي سادت عصره»(١٠٥).

هوامش الفصل الثاني

١- القول في البغال: الجاحظ، تحقيق شارل بلا، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٥، ص ١٢٨.

٢- لسان العرب: ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٩٩٩، مادة شمق، والمؤتلف والمختلف: أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، ١٩٦١، ص٢٤٨.

٣- معجم الشعراء: أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠، ص ٣١٩.

٤- ديوان أبي الشمقمق: جمع وشرح واضح محمد الصمد، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١، ١٩٩٥، ص٨.

٥- تاريخ بغداد: أبو أحمد بن علي الخطيب البغدادي، مطبعة الخانجي والمكتبة العربية، بغداد ١٩٣١، ١٤٦/١٣، الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ط، ٨/ ٩٨.

٦- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، ١٤٦/١٣.

٧- معجم البلدان: شهاب الدين، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر بيروت، الكامل في اللغة والأدب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، مكتبة دار المعارف، بيروت، ٢٤/٢٢.

٨ - طبقات الشعراء: عبد الله بن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد الفراج، دار المعارف، مصر، ص١٣٠، فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٢٩/٤.

٩- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، ١٤٦.

١٠- مختارات من شعر أبي الشمقمق، جمع كارين صادر، وزارة الثقافة دمشق ٢٠٠٣، ص٨.

١١- العصر العباسي الأول، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط ٤، ١٩٧٢، ص ٤٣٧.

١٢- العقد الفريد: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين، وإبراهيم الأبياري، وعبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٤٩، ٢١٥/٦.

١٣- من هؤلاء: جميل بن محفوظ، وأبو دهمان الغلابي، وأبو حفص عمر بن مساور، ومحمد بن منصور، وسعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي، ومالك بن علي الخزاعي، ويزيد بن مزيد

الشيباني، وعيسى بن سليمان بن علي، وجعفر بن أبي زهير، وداود بن بكر، وعيسى بن ادريس، وفرج الرخجي، وزيد بن عمارة، ومحمد بن عبد السلام.

١٤- العصر العباسي الأول: شوقي ضيف، ص ٤٣٦.

١٥- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ١٢٩، محاضرات الأدباء: أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني، دار الحكمة، بيروت، ١٤٧/١، غرر الخصائص الواضحة: أبو إسحاق برهان الدين الوطواط، دار صعب، بيروت، ص ١٩٩، العمدة: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ص ١٦٠، فوات الوفيات: الكتبي، ٤/ ١٣٠، واندق: بمعنى انكسر، اللواء: الراية، واستقل الشيء: وجده قليلاً أو صغيراً.

١٦- محاضرات الأدباء: الراغب الأصبهاني، ٥٩٣/١، المستطرف: شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٦٦/١، غرر الخصائص الواضحة، الوطواط، ص ٢٨١، ويقال أخنى عليه الدهر: إذا مال عليه وأهلكه.

١٧- الورقة: أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح، تحقيق د. عبد الوهاب عزام، وعبد الستار أحمد الفراج، دار المعارف، مصر، ص ٦٣، العمدة: ابن رشيق، ١٤٦.

١٨- معجم الشعراء: المرزباني، ص ٣١٩.

١٩- الحيوان: أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة البابي، مصر ١٩٦٣، ٢٤٧/٦، الوزراء والكتاب: أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، تحقيق السقا والأبياري والشلبي، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ص ١٤٤، والورق: الدراهم المضروبة من فضة.

٢٠- معاهد التنصيص: عبد الرحمن بن أحمد العباسي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧، ١٠٢/١.

٢١- فوات الوفيات: الكتبي، ١٢٩/٤.

٢٢- معجم الشعراء، المرزباني، ص ٣١٩.

٢٣- معاهد التنصيص، ١٢٦/٢، المؤتلف والمختلف: الآمدي، ص ٢٤٨.

٢٤- معاهد التنصيص، ٣٣/١.

٢٥- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ١٤٧/٣، وفي معاهد التنصيص، ١٠٢/١، ومحاضرات الأدباء، ٩٣/١، ترد الأبيات هكذا:

هلليـــــنه هلليـــــنه   طعـــنُ قِـــثّاةٍ لتيـــنة

إنّ بشّـــارَ بـــنَ بـــردٍ   تـــيسُ أعمى في سفينه

٢٦- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، نشر صلاح الخليل، دار الفكر بيروت، ١٩٧٠، ٧٢/٣.

٢٧- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، ١٨٤/٢١.

٢٨- الأغاني أبو الفرج الأصبهاني، ١٩٢/٢١.
٢٩- الأغاني أبو الفرج الأصبهاني، ٤٠/٩، تقي: تحفظ، العنبر: نوع من الطيب قيل هو الورس أو الزعفران، والذفر: كل ريح ذكية من طيب.
٣٠- الأغاني أبو الفرج الأصبهاني، ١٢٨/٣.
٣١- الأغاني أبو الفرج الأصبهاني، ٣٩/٣.
٣٢- الفهرست: أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم، تحقيق رضا تجدد، طهران، ١٩٧١، ص ١٨، نهاية الأرب في فنون الأدب: أحمد بن عبد الوهاب النويري، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ١/٤.
٣٣- شعراء عباسيون: غوستاف فون غرنباوم، ترجمة وتحقيق د. محمد يوسف نجم، مراجعة د. إحسان عباس، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين، ١٩٥٩.
٣٤- انظر ديوان أبي الشمقمق، جمع واضح محمد الصمد، والقطع المضافة هي ذوات الأرقام في ديوانه، ٧، ١٩، ٢٧، ٣٨، ٥٨، ٦٥.
٣٥- من ذلك على سبيل المثال الأبيات التي قيلت في مدح طاهر بن الحسين:

عجبت لحرّاقةِ ابن الحسين ... كيف تعوم ولا تغرقُ

وبحران: من تحتها واحد ... وآخرُ من فوقها مُطبقُ

وأعجبُ من ذاك عيدانُها ... وقد مسّها كيفَ لا تورقُ

فقد نسبت إلى أكثر من شاعر منهم: مقدس الخلوقي، وعلي بن جبلة العكوك، وعوف بن محلم الخزاعي، وغيرهم.
٣٦- الجليس الصالح: أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني الجريري، تحقيق إحسان عباس، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٧ ط١، ٣/ ١٨٦، وربيع الأبرارونصوص الأخبار: محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق سليم النعيمي، دار الذخائر قم ط١، ٣/ ١٥٨، والتذكرة الحمدونية: ابن حمدون محمد بن الحسن، تحقيق إحسان عباس، وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦، ط١، ١٧٢/٦.
٣٧- الجليس الصالح: أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني الجريري، تحقيق إحسان عباس، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٧ ط١، ٣/ ١٨٦ ، وربيع الأبرارونصوص الأخبار: محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق سليم النعيمي، دار الذخائر قم ط١، ٣/ ١٥٨ ، والتذكرة الحمدونية: ابن حمدون محمد بن الحسن، تحقيق إحسان عباس، وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦، ط١، ١٧٢/٦.
٣٨- ديوانه: جمع كارين صادر، ص ١٢٧.

٣٩- وفيات الأعيان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٦/٦، تاريخ بغداد.. الخطيب البغدادي، ٣٣٦/١٤، والوخد: ضرب من سير الإبل، وهو سعة الخطو في المشي، واليعملات: النجائب من الإبل.

٤٠- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ١٢٦.

٤١- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، ٤٢/١٥، ورعين: قبيلة، وهو اسم حصن لأحد ملوك اليمن، وتنميه: تزيده قدراً ومكانةً، ولخم ونهد: قبيلتان.

٤٢- الأمالي: أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٢٧/٢، والكامل في اللغة والأدب: المبرد، ٢٤/٢.

٤٣- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، ١٩٦٥، ص ٥٤٨.

٤٤- الجليس الصالح: ١٨٦/٣، أبا عمرة: كنية الجوع والإفلاس، والقد: الشق طولاً.

٤٥- نور القبس المختصر من المقتبس: أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، اختصار يوسف بن أحمد الحافظ اليغموري، تحقيق رودلف زلهايم، نشر دار فرانتس اشتاينر، فيسبادن، ١٩٦٤، ٢٠٢/١، والقواصر: مفردها قوصرة، وهي أوعية من قصب يرفع فيها التمر.

٤٦- العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ص ٤٣٧.

٤٧- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ١٢٦.

٤٨- ديوانه، جمع كارين صادر، ص ٤٨، والسلاح: النجو والغائط.

٤٩- المرقصات والمطربات: نور الدين علي بن الوزير، نشر دار حمد ومحيو، بيروت، ص ١١٠.

٥٠- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، ١١/١٨.

٥١- الحيوان: الجاحظ، ١٤٤/١.

٥٢- الحياة الأدبية في البصرة: د. أحمد كمال زكي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٦١، ص ٤٤١.

٥٣- الكامل في اللغة والأدب: المبرد، ٥٣/٢، وحياة الحيوان الكبرى: كمال الدين الدميري، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ، ٦٠/٢، مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار النصر، بيروت، ١١٨/١، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: الثعالبي، ص ٤٥٦، والنكهة: رائحة الفم.

٥٤- الحيوان: الجاحظ، ١٥٨/١، والراقود: دن طويل الأسفل، مقير، وهو فارسي معرب، والنشوط: سمك يمقر في ماء وملح، وهو من عامية أهل بغداد، والغوط: البراز.

٥٥- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ١٢٩، يكسكس: يفتت ويكسر، والروث: رجيع ذي الحافر.

٥٦- الحيوان: الجاحظ، ٢١١/١.

٥٧- الكامل في اللغة والأدب، المبرد، ٢٢٥/٢، سمط اللآلئ: أبو عبيد البكري، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الحديث، بيروت، ١٩٨٤، ١٩٤/١، والمدود: وفرة الماء وكثرته.

٥٨- ديوانه، جمع كارين صادر، ص ٩٥.

٥٩- الوزراء والكتاب: الجهشياري، ص ٢٢٤.

٦٠- محاضرات الأدباء: الراغب الأصبهاني، ٥٦٠/١، العلقم: شجر الحنظل، وكل مر يقال له علقم، والإفك: الكذب والبهتان.

٦١- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ١٢٩، والقرب: واحدتها قربة، وهي وعاء من أدم يحفظ به الماء أو اللبن.

٦٢- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ١٤٦/١٣.

٦٣- القول في البغال: الجاحظ، ص١٢٩، والنزو: ضرب من عدو الخيل والدواب، والكم: القلنصوة المدورة.

٦٤- ديوانه، جمع كارين صادر، ص ١٢٨.

٦٥- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: الثعالبي، ص ٦٥، ويقال رجل مستغرب للذي يتجاوز القدر من الخبث والدناءة.

٦٦- ثمار القلوب: الثعالبي، ص ٦٥.

٦٧- طبقات الشعراء، ابن المعتز، ص ١٢٩.

٦٨- أدب الكدية في العصر العباسي: أحمد الحسين، دار الحصاد، دمشق، ط٢، ١٩٩٥، ص ٣٥-٣٦.

٦٩- العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ص ٤٣٨.

٧٠- العقد الفريد: ابن عبد ربه، ٢١٥/٦، وغرر الخصائص الواضحة: الوطواط، ص ٣١٢، والمحال: الوهم ومالا يرى.

٧١- العصر العباسي الأول: شوقي ضيف، ص ٤٣٩.

٧٢- العقد الفريد: ابن عبد ربه، ٢١٦/٦، والبزات: من الطيور الجارحة، مفردها باز، وهو فارسي معرب.

٧٣- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ١٢٧، والشاهين: طائر من جنس الصقر، فارسي معرب.

٧٤- العقد الفريد: ابن عبد ربه، ٢١٦/٦، والإباق: الهرب، والقهرمان: الوكيل، وصاحب الحكم، وهو مركب من العربي قهر، ومن الفارسي مان، أي صاحب.

٧٥- ديوانه: جمع كارين صادر، ص ٨٩.

٧٦- العصر العباسي الأول: شوقي ضيف، ص ٤٤٠.

٧٧- الحيوان: الجاحظ، ٢٦٥/٥، والجراب: وعاء لحفظ الطعام، ينغض: يحرك رأسه إلى فوق وإلى أسفل، والحب: الخابية، وهو فارسي معرب، والكوز: إناء من فخار، فارسي معرب، والقرقارة: إناء من فخار، والجحام: داء يصيب الكلاب.

٧٨- الحياة الأدبية في البصرة: أحمد كمال زكي، ص ٤٣٩.

٧٩- الحيوان: الجاحظ، ٢٦٩/٥، والزفن: الرقص واللعب.

٨٠- محاضرات الأدباء: الراغب الأصبهاني، ٦٨٧/٢، والحيوان: الجاحظ، ٣٩٠/٥، والجردق: الرغيف، وهو فارسي معرب، والجبة: ضرب من الثياب، والطيلسان: كساء أخضر مدور، وهو فارسي معرب.

٨١ – القول في البغال: الجاحظ، ص ١٢٨.

٨٢ – القول في البغال: الجاحظ، ص ٨٢، والمعازف: الملاهي، والتقماز: لم نجد لها معنى، وقد تكون الخمرة، والعوادة: المغنية التي تضرب على أوتار العود، والأحواز: موضع ما يحوزه الرجل.

٨٣ – طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ١٢٧، والترز: الموت من الجوع.

٨٤ – ثمار القلوب: الثعالبي، ص ٢٤٣.

٨٥ – معجم الشعراء: المرزباني، ص ٣١٩، فوات الوفيات: الكتبي، ١٢٩/٤.

٨٦ – الحيوان: الجاحظ، ٣٤٣/٢.

٨٧ – ديوان المعاني: أبو هلال العسكري، مكتبة القدسي القاهرة، ١٣٥٢هـ، ١٩٨/١، والحرفة: الحرمان والمنع وقلة الرزق.

٨٨ – ديوانه: جمع كارين صادر، ص ٤١.

٨٩ – ديوانه: جميع كارين صادر، ص ١٣٧.

٩٠ – ديوانه: جمع كارين صادر، ص ١٢٩.

٩١- ديوانه: جمع كارين صادر، ص ١٢٩.

٩٢- المستطرف: الأبشيهي، ١٣٨/٢.

٩٣- شعراء عباسيون: غرنباوم، ص ١٢٦.

٩٤- معجم الشعراء: المزرباني، ص ٣١٩.

٩٥- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ١٢٩.

٩٦- فوات الوفيات: الكتبي، ١٢٩/٤.

٩٧- الكامل في اللغة والأدب: المبرد ٢٤/٢.

٩٨- الحيوان: الجاحظ، ٤٧/١.

٩٩- العصر العباسي الأول: شوقي ضيف، ص ٤٣٧.

١٠٠- العصر العباسي الأول: شوقي ضيف، ص ٤٣٨.

١٠١- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، ٢٠/١٧.

١٠٢- الحياة الأدبية في البصرة: أحمد كمال زكي، ص ٣٦١.

١٠٣- الحياة الأدبية في البصرة: أحمد كمال زكي، ص ٣٦٩.

١٠٤- ديوانه: جمع واضح محمد الصمد، ص ٧.

١٠٥- شعراء عباسيون: غرنباوم، ص ١٠.

الفصل الثالث

الأحنَف العُكبري: فرد بني ساسان

يعدُّ الأَحنَف العُكْبري واحداً من شعراء الكدية المشهورين، قال عنه الثعالبي: شاعر المكدين وظريفهم ومليح الجملة والتفصيل فيهم[١]، ونعته الصَّاحب بن عبَّاد عندما أنشده بعض أشعاره: بأنه فرد بني سَاسَان في مدينة السلام[٢].

اسمه عَقيْل بن محمَّد بن عبد الوّاحد أبو الحسن التَّميميُّ النَّهشَليُّ[٣]، فهو من حيث الأرومة ينسب إلى نَهشَل، وهي إحدى بطون تميم، ويبدو أن سكناه المدن وامتهانه الكدية والمسألة، وانتقاله بين البلدان والأمصار، أضعف علاقته بقومه وصلته بقبيلته، فلم نتبين من تلك العلاقة سوى صدى لفخر باهت، هو أقرب ما يكون للتعويض عن وضع اجتماعي يعيشه، وحاضر بائس يعاني منه ويكابد[٤]:

وبيـتٍ مـن المَجْدِ الرَّفِيعِ سَمَكْتُهُ ... ثَفَـتْ لـي أثَافـيهِ تميمٌ وخِنْدِفُ

وما يدعم هذا الاستنتاج، أنَّ الأَحنَف في مواطن عديدة كان يهجو قومه، ويذمُّ قبيلته ويتمنى لو كان ينتسب إلى سواها من الأقوام والأمم، ما دامت هذه القبيلة لم تمد له يد العون والمساعدة، ودفع غائلة الفاقة والحرمان عنه[٥]:

يـا ليتنـي كُنْتُ من أنباطِ دَسكرةٍ ... بديـر قُـنَّى، ولي صفرُ الدَّنانيرِ

ولـم أكـنْ نَهشَلياً من بني مُضَرِ ... وكنـتُ أُنسـبُ في أبناءِ سَابورِ

ولقب عقيل بن محمد هو: الأَحْنَف، وأمَّا نسبته فهي إلى عُكْبُرا، وهي مدينة صغيرة من مدن العراق تقع على شرق دجلة في طريق الموصل، قرب أرانا وصريفين، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ(٦)، والأرجح أن ولادة الأَحْنَف كانت بها، وأكثر إقامته كانت هناك، وبها توفي سنة ٣٨٥ هجرية.

ويرجع لقب الأَحْنَف إلى عاهة أصيب بها، وعيب خَلْقي في قدميه، والحَنَفُ كما تذكر معاجم اللغة: الاعوجاج في الرِّجل، وهو أن تقبل إحدى إبهامي رجليه على الأخرى. قال الأصمعي: الحَنَفُ أن تقبل إبهام الرجل اليمنى على أختها من اليسرى، وأن تقبل الأخرى إليها إقبالاً شديداً(٧).

وكثيراً ما كان الأَحْنَف يذكر عاهته، ويرى فيها سبب فقره، ومبعث احتقار شأنه، ويسوّغ بها امتهانه الكدية والاستجداء بين الناس(٨):

وأحمقٍ أحولٍ أضحى يُعيرُني بالعَيْبِ في قَدَمي، والفَقْرِ والعَدَمِ
مُستقبَحاً حَنَفي جَهْلاً، فقلْتُ لهُ: العَيْبُ في الرَّأسِ أدهى منهُ في القَدَمِ

وبالرغم من هذا التخريج للعاهة، ومحاولة التقليل من تأثيرها النفسي عليه، فإنه كان يشعر في أعماقه بنقص كبير، ومرارة شديدة عبر عنها في أكثر من مناسبة، فقال(٩):

إنّي امرؤٌ قد أخَرَ بِي حَنَفِي قَصَّرَ بي عن مَنَازِلِ الشَّرفِ

وكان يعزو تقصيره في طلب الرزق، وعدم انتقاله وراء ذلك في مشارق الأرض ومغاربها إلى عاهته، ولولا ذلك ما استقرّ به مقام في بغداد، ولا رضي بالعيش محروماً فيها(١٠):

وما سَكنْتُ إلى بَغْدادَ مُفْتَتحاً بَابَ المَعيشةِ عن جَهْلٍ، ولامُوْقِ
بل عَاقَني حَنَفُ الرِّجلينِ عن طَلَبي وجهَ المَعَاشِ بتَغْريبٍ وتَشْرِيقِ
بَغْدادُ دَارٌ لأهلِ المالِ طيبةٌ وللمفاليسِ دارُ الذُّلِ والضّيقِ

• مقاربة عامة:

والواقع أن الإحاطة بجوانب السيرة الذاتية للأحنف العُكْبري، مما يتعذر على الباحث أن يلم بها، فالمصادر التي انتخبت بعض قصائده، ومقطعاته القصيرة أهملت حياته الشخصية، وفي هذا المجال يبقى شعره خير وثيقة تساعدنا على تتبع خيوط حياته الشخصية العامة، ولكنها لا تسعفنا بمعلومات دقيقة أو تفصيلية عن ولادته وأسرته ونشأته، ومراحل تعليمه وعلاقاته الاجتماعية.

وما نجده من إشارات في شعره هو من قبيل الاعترافات الذاتية، بما تحمل من العموميات، ولكنها بالرغم من ذلك تبقى هامة، لأنها تضيء جوانب، ومحطات أساسية من حياته وسيرته العامة.

يصف الأَحْنَف ذاته بأنه شاعر وأديب، وعالم أحاط بعلوم الفلسفة والفلك والحكمة، لكن سوء طالعه رمى به إلى زمن، انصرف أهله عن التماس العلم وطلب الأدب، وناصبوا الأدباء والعلماء المناكدة والعداء(١١):

أَشْـكو إلـى اللهِ ما أَلْقاهُ من نَفَرٍ ... يَـرَوْنَ عِلْمِـيْ إذا ذاكرتُهم خَرَفا

إنْ قلـتُ قَولاً حكيماً، قال قائلُهم ... لقمـانُ صَـيّرهُ مـن بَعْـدهِ خَلَفا

مـتى تَمَثّلْـتُ عـن فَهْمٍ وفَلسفةٍ ... سَبُّوا أَبَقْراطَ من جَهْلٍ، وما وَصَفا

أو فُهتُ عن أدبٍ، أو ذِكْرِ مَكْرُمةٍ ... سَبُّوا ابنَ قيسٍ، وسبُّوا الشِّعرَ والحَنَفا

ويبدو أن الأَحْنَف انشغل في مرحلة من مراحل حياته بطلب العلم، وانقطع إلى القراءة والأدب، فوجد في ذلك ما يغني عن متعة الأنس والزاد والشراب، فكان يقول(١٢):

ومِخْـبرةٍ تُؤانِسُـني بحـبرٍ ... أحـبُّ إلـيَّ من أنسِ الصَّديقِ

ورُزْمـةِ كاغدٍ في البيتِ عندي ... أحـبُّ إلـيَّ مـن عِدْلِ الدَّقيقِ

ولطْمـةِ عـالمٍ في الخدِّ مني ... أحـبُّ إليَّ منْ شُرْبِ الرَّحيقِ

ولكن مقومات هذه الصورة، اهتزت حين اشتدت به الحاجة، ولم يعد العلم يسعف حامله على تدبر أمور عيشه، وأسباب دنياه، وصار الانقطاع إلى الأدب من سوء الطالع الذي لا يجلب سوى البؤس والفقر(١٣):

حسـبي مَن الحِرْفَةِ أنّي امرؤٌ ... مَعيشـتي مـنَ باطنِ المِحْبَرَه

ومنزلـي مُسْـتهدمٌ مُقْفِـرٌ ... مُـنْفَرِدٌ فـي وَسَطِ المَقْبَـرَه

وكانت ذروة التحول في رؤية الأَحْنَف، عندما اكتشف أن القصيدة لا تغني عن رغيف الخبز، وأن الشعر لا يقوم مقام الدقيق في البيت، وأن نداء المعدة الخاوية أقوى، وأشد ضراوة من نداء العقل والخيال، فقال(١٤):

رأيـتُ الشّـعْرَ لا يُغني فتيلاً ... إذا مـا البيـتُ أعْوَزَهُ الدَّقيْقُ

إذا نفـدَ الدَّقـيْقُ فقدْتُ عَقلي ... ويـبقى العقلُ، ما بَقِيَ الدَّقيقُ

وإذا كان الأَحْنَف يروي في ديوانه الكثير من تجاربه اليومية، والأحداث التي تقع في حياته، فإنه قليلاً ما يتحدث عن أهله و أسرته، ومن خلال شعره نتبيّن أنه مرّ بتجارب أسرية مخفقة، وأن له زوجة مشاكسة قال فيها(١٥):

وإنَّ إلهـي قـدَ بَلانـي بـزوجةٍ ... وركَّـبَ فـيها مـا يَضُرُّ ويفسدُ

نِقـارٌ، وتَعبـيسٌ، ووَجـهٌ مُكَلّحٌ ... وتَبُصقُ في وَجْهي، فوجهيُ مُسْوَدُّ

وكان يقول(١٦):

مُنايَ من الدُّنيا على اللهِ زَوْجةٌ ... من البِيْضِ، حسناءُ الخَلائقِ والخَلْقِ

ودَوْدٌ ولَـودٌ، بَـرةٌ ذاتُ عِفـةٍ ... تُعينُ وتجدي عند مُتّسعِ الخَـرْقِ

وكان الأَحْنَف يحمد الله أنه عاش وحيداً منفرداً، ليس له ابن، ولا بنت، فقال(١٧):

أحْمَـدُ الله كثـيراً ... فلقـد أحْسَـنَ جَـدّي

لـيسَ لـي ابـنٌ ولا ... بِنْـتٌ، ولا يُؤكـلُ كَـدّي

إنَّمــا أجلسُ في البيـــــتِ على السُّفْرةِ وَحْدي
فـــإذا نمْـــتُ فقَطـــيَّ وحَمَامـــي عـــندَ خَـــدِّي
وإذا أغلقْـــــتُ بابـــي فَكأنّـــي فـــي شَـــلَنْدي

ثم أنه تزوج فيما بعد، وصارت له بنت، فكان يتمنى موتها إشفاقاً عليها، ليس كراهية لها، ولكن خوفاً وإشفاقاً عليها، أن تصير إلى زوج لئيم، يذلها ويشتم أهلها، فيقول(١٨):

أحِـــبُّ بُنيتّـــي، وَوَدَدْتُ أنّـــي دَفَنْـــتُ بُنيَّتـــي فـــي قَعْرِ لَحْدِ
ومـــا بـــي دفنُها غَرَضاً ولكنْ مَخَافـــة أن تـــذوقَ الذُّلَ بَعْدي
مَخافـــة أنْ تصـــيرَ إلـــى لئيمٍ فيَشْـــتُمَ وَالـــدي، ويَسُبُّ جَدِّي
فليْـــتَ اللهَ أسْـــعَدَها بمـــوْتٍ وإنْ كانـــتْ أعزَّ النَّاسِ عِنْدي

ويشير الأَحْنَف إلى الأمراض والأوجاع التي أنهكت جسده، وأضعفت قواه، فيذكر منها إلى جانب عاهة الحنف: ضمور الساقين، والعمى الذي أصيب به في أخريات أيامه، وعلل الشيخوخة التي أنهكت قواه الجسدية، وتركته عاجزاً عن قضاء حاجاته وتصريف شؤونه الحياتية(١٩):

صُرُوفُ اللَّيالي صَيَّرتني كما تَرى أدبُّ دَبيْـــبَ السَّـخْلِ ساعةَ يُوْلَدُ
وألْـــتمِسُ الْجدْرانَ بالكَفِّ والعَصَا وأحْـــبُو، كمـــا يَحْبُو الوَليدُ المُبَلَّدُ
ومَنْ عاشَ من بَعْدِ الثَّمَانينَ أرْبعاً تَمنَّى وُرُوْدَ المَوْتِ، والموتُ أجْوَدُ

● شعر الأَحْنَف:

ولقد أشار البغدادي وابن الجوزي وأبو الفداء(٢٠) إلى شعر الأَحْنَف، وذكروا أن له ديواناً ضخماً، ولكن مصادر الأدب والتراجم ومن بينها مؤلفات الثعالبي لم تحتفظ إلا بمادة قليلة من شعره، لا تزيد في مجموعها عن بضع عشرات من المقطعات والنتف الشعرية.

وهكذا ساد ما يشبه الاعتقاد بضياع شعره، لكن اكتشاف نسخة مخطوطة من ديوانه بدّد ذلك الاعتقاد ، ووضع بين أيدي الدارسين والباحثين مادة شعرية على غاية من القدر والأهمية، إذ قام الباحث السعودي سلطان بن سعد السلطان بتحقيق ديوان الأحْنَف[٢١]، وأصدر الطبعة الأولى من هذا الديوان سنة ١٩٩٩، عن نسخة وحيدة محفوظة في مكتبة الملك فهد الوطنية، وكانت هذه النسخة من مجموعة مكتبة الأستاذ جميل أبو سليمان، التي جمعها أثناء إقامته في المغرب العربي، ومنها هذا الديوان المنسوخ في بغداد سنة ٥٩٥هـ، وناسخها هو محمد بن علي بن إبراهيم بن محمد الكاتب، وتحتوي أكثر من ٨٢٥ نصاً تراوحت بين قصائد ومقطعات، ضاعت من بينها نصوص قافية الهمزة، وحرف الخاء. وهذه النسخة لا تمثل كل أشعار الأحْنَف، فهنالك مقطعات وقصائد وردت في مصادر أخرى، ولم يتضمنها ديوانه المحقق، مما يدل على أن جزءاً من شعره مازال مفقوداً أو مجهول النسبة إلى صاحبه.

أما الأغراض التي طرقها الأحْنَف في شعره فهي: الفخر والمدح، والهجاء والرثاء، والغزل، والوصف، والعزلة (الغربة) والشكوى، والزهد، والكدية، والحكمة. وحين ننظر في هذه الأغراض نجدها تمثل ما عرفه الشعر العربي في عصوره المختلفة، ولكن النظرة النقدية لأغراض شعره تجعلنا نقول: إن الأحْنَف في فخره ومدحه، وهجائه ورثائه وغزله ومجونه، وزهدياته لم يستطع أن يحلق، أو يبدع سواء من حيث الصياغة الفنية والإبداعية، أو من حيث المعاني والأفكار، وهو في هذا الجانب دون شعراء عصره الكبار، ولا يمكن أن يقارن بهم.

وبالرغم من ذلك نرى أن نمرَّ على الأغراض السابقة في شعره، وسنحاول التركيز بشكل أوسع على الموضوعات الجديدة، التي كانت أكثر خصوصية في شعره، والتي صور فيها ذاته وآلامه وبؤسه وغربته وتشرده، ومهنته وقلة رزقه[٢٢]، وبمعنى آخر ستكون وقفتنا الأساسية عند تلك الجوانب من شعره التي

صوّرت حياته، وتجواله وكديته، ونقده الاجتماعي، ومواقفه ورؤيته للناس والقيم والأخلاق في عصره، وهي موضوعات عالج بعض الشعراء الذين سبقوه قسماً منها، ولاسيما أبو الشمقمق «مروان بن محمد» الذي كان كثير الشكوى من سوء حاله، وشدة فقره، وبؤس بيته، الذي كان فارغاً من كل شيء، فهجرته حتى الفئران ورحلت عنه الحشرات والدواب.

● **الفخر:**

طرق الأَحْنَف باب الفخر بذاته، وبما امتاز به من صفات وقيم خلقية، جعلته قادراً على مواجهة الغربة، ومقارعة صروف الدهر، التي ناصبته العداوة والشحناء، وقد أتاحت له تلك الخصال المقدرة على التلاؤم والعيش في زمن اتصف أهله بالشح، وقلة المروءة، وتبدل الأخلاق، والإعراض عن طلب المحامد وكريم الأفعال، وهو في فخره رجل لا يقيم على ضيم، ولا يرضاه، صاحب همة عالية، لا تروعه الأسفار، صبور عند الشدائد، حليم عند الغضب، وقور بين السفهاء، قنوع غير مسرف في طمع أو رجاء، فصيح اللسان، أسير الكلام(٢٣):

وإنّـــي وإنْ أصبَحْتُ في دَارِ غُرْبَةٍ ... وَحِــيْداً، ومَالـــي ناصـــرٌ وعَشِيْرُ
ولا تَتَخطَّأتـــي الهُمُــومُ، ولا أرى ... مُجِـيراً، ولا يَـأوي إلــيَّ مُجيرُ
فمَـــا أنـــا مِمَّــنْ يَمْلأُ الأمرُ قَلبَهُ ... لِعِلْمــي بــأنَّ الدَّائــراتِ تَــدورُ
حُمــولٌ لِعِلاتِ الرِّجالِ على الأذَى ... صَــبُورٌ، وعندَ الصَّالحاتِ شكورُ
قَــنوعٌ مِــن الدُّنيا بثوبٍ، وشبعةٍ ... وذلــكَ خَــيرٌ إنْ شَــكرْتُ كثــيرُ
لِسَــاني طَليقٌ بينَ أهلي وأسرتي ... وبيـــن رُذَالاتِ الـــرِّجالِ أســـيرُ
رَفَـــيْعٌ إذا ما ضمَّني صَدْرُ مَجْلسٍ ... وأهــلُ الــنُّهى بينَ السَّفالِ حَقيرُ
وإنّـــي كمِثْلِ السَّيفِ مَتْناهُ كالوطَا ... وبيـــن غِـــرَارَيْ مَضْرِبَيْهِ غُرورُ

وهو رجل أبيٌّ، ترتاح نفسه للبذل، وتترفعُ عن خسيس الأفعال، بالرغم من فقره وخصاصة حاله فيقول(٢٤):

إنّـي دُفعْـتُ إلـى حَالينِ بَيْنهما قَلْبي يَذوبُ أسَىً، والعُمْرُ يَنْقَرِضُ
لـي هِمَّةٌ قد شأَتْ كَيْوانَ في قَرَنٍ ولـي يَـدٌ عنْد بَذْلِ الجُوْدِ تَنْتفضُ
يَـرتَاحُ قلبي إلى قَطْع السُرى فإذا أمضيتُ عَزْمي، أتاهُ العَجْزُ يَعْتَرِض
تَأبى لي الضَّيمَ نفسٌ كُلَّما افتَقَرتْ عَزَّتْ وتاهتْ، وإنْ أوْدَى بها الحَرَضُ

والأحْنَف رجل لا يتبعُ عيوب الناس، ولا يتقصى مثالبهم ، كيلا يتعرضوا له بالسوء، وهو يؤدي للآخرين واجباتهم وحقوقهم، ولا يتوانى في ذلك، لأن طباعه طباع رجل حر شريف، وصاحب فطنة وذكاء فيقول(٢٥):

وأعرضْتُ عن سقطاتِ الرِّجال لكـي يُعرضَ النَّاسُ عن زلّتي
وطالبْـتُ نفسـي بالواجـباتِ علـيها لغـيري فلـم أعْنـتِ
خلائـقُ حُـرٍّ، أخـي فطـنةٍ كـريمُ الجِـبلَّةِ والمنبِـتِ

وهو رجل شديد الاعتداد بذاته، وما فطرت عليه من خلائق افتخر بها، فقال(٢٦):

طُبِعْـتُ علـى ما فيَّ غيرَ مُشَاوِرٍ فمالـي إلـى غير الطبيعة مَهْرَبُ
ذريني، وما أرضاهَ لي من خليقةٍ فكُـلٌّ إلـى ما فيهِ، والطَّبعُ أغلبُ

ويرد الأحْنَف على من ينتقد فقره وسوء حاله، ومناكدة الدهر له، بأن ذلك من سمات كل من هو عظيم الشأن، بعيد الهمة، واسع الخطر، ويقارن نفسه بالبحر الذي لا تفسده الجيف، التي تطفو فوق سطحه، لأن في أعماقه تكمن الجواهر

والدرر، وهو كالشمس وكالقمر رفعة، ولكن الكسوف أو الخسوف، لا يصيبان سواهما من النجوم والكواكب الكثيرة[٢٧]:

قــل للّذي بصروف الدّهرِ عيّرني ... هــلَ عَاندَ الدّهرُ إلا من له خَطرُ
أمـــا ترى البحرَ تعلو فوقَهُ جيف ... وتســـتقرُّ بقاصـــي قعْـرهِ الدُررُ
وفــي السماءِ نجومٌ غيرُ ذي عَدَدٍ ... ولــيس يُكسفُ إلا الشّمسُ والقمرُ

وإذا كانت العاهة أو الفاقة قد قصرت به عن بلوغ مراتب السيادة والريادة، إلا أنه ظلّ شديد الاعتزاز بذاته، يعرف الأباعد من الناس فضله، ولكن لسوء حظه يجهل قدره أهل زمانه وجيرانه، لأنهم أهل بطالات ولهو، شغلهم غناهم عن طلب الفضائل، وتقدير أصحابها[٢٨]:

الأَحنَف بنُ محمدٍ يشكو الضّوى ... وتَفَاوتـــاً فـــي خطـــوه وبيانهِ
رجـــلٌ يُســـرُّ به البعيدُ تشوقاً ... ويصـــدُّ عـــنه لفضلهِ جيرانه
جـــيرانُه أهـــل البطالةِ والغِنى ... يَخفَى عليهم في الزّمانِ مكانهُ

وإذا كان الأَحنَف قد افتخر بقبيلته تميم، إلا أن هذا الفخر لم يغير من سوء أوضاعه، وصعوبة حياته، ولهذا وجدناه يفخر أشد الافتخار بانتسابه إلى بني ساسان وطوائف المتسولين والشحاذين، الذين شاركهم هذه الحرفة، فكانوا السادة والذادة، الذين طافوا أصقاع الأرض، وملكوا أقطارها فقال[٢٩]:

علـــى أنّـــي بِحَمْـــدِ اللّــــ ... ـــــهِ في بَيْتٍ من المَجْدِ
بِفَخْـــري ببنَـــي سَاسَـــا ... نَ أهْـــلِ الشُّـــكْرِ والحَمْـــدِ
مُلـــوكٌ لهُـــمُ الأرضُ ... فمـــن غَـــوْرٍ إلـــى نَجْـــدِ
هـــم السّـــادةُ والـــذّاد ... ةُ أهْـــلُ الحَـــلّ والشَّـــدّ

• **المديح :**

وإذا كان الأَحْنَف مُقِلاً في فخره، فهو كذلك في مديحه، إذ كان زاهداً في المديح لقناعته أن أهل عصره من سكان المدن، لم تعد تجتذبهم فضائل الثناء، ولا تغريهم قصائد الإطراء والتمجيد، ولهذا آثر أن يعيش في فقر وفاقة، دون أن يتعرّض لهم بشعره، ليكسب بذلك قوته منهم(٣٠):

قَالُوا: اسألِ النَّاسَ بالمَدِيْحِ فما	**لَــذَّةُ عَــيْشٍ لمن طَوى كَمدَا**
نَــرَاكَ مــن فَاقــةٍ على تَلَفٍ	**تُضْــمرُ ضُــرّاً، وتُظْهِرُ الجَلَدا**
أمَــا تَــرى النَّاسَ كَثْرَةً كزكَا	**الــرَّمْلِ كثيراً، وقد زَكَوْا عَدَدَا**
قُلْتُ: دَعُوني أَمُتْ على كَمَدي	**أرَى كثــيراً، ولا أرَى أحَــدا**

ومن وحي هذه القناعة اقتصر شعر المديح لدى الأَحْنَف على عدد محدود من الأفراد، الذين قامت بينه وبينهم مودة خاصة، نابعة من الإعجاب والمودة، والاعتراف بالمكانة، ورد الجميل الذي كانوا يصنعونه له في الشدائد والصعوبات.

وقد خصَّ الأَحْنَف أبا عبد الله بن بَطَّة المحدِّث العُكْبري بأكثر من قصيدته، كان يستهلها بمقدمة شاكية تصف سوء حاله، واستهداف الخطوب له، وصعوبة العيش، وندرة الخبز، وغلاء الأسعار، وجفاء الأصحاب والخلان، ثم ينتقل من ذلك إلى المديح الذي غالباً ما تكون معانيه مطروقة، لا جديد فيها ولا ابتكار، ومن ذلك قوله(٣١):

دَمْــعٌ تَحــدَّرَ في اِنْسيابِهْ	**مــن جَفْــنٍ مُكْتَئبٍ لما بِهْ**
يَــبكى أســى لنَوَائــبٍ	**نَزَلَــتْ، فغَــرَّدَ عــن ثِقَابِهِ**
أنْســاهُ أَيَّــامَ الشَّــبا	**بِ ومَــا تَقَضَّى من خِطَابِهْ**
خطــبٌ ألــمَّ فاقبلَــتْ	**نُــوَبُ المــنايا فــي جَنَابِه**

شَـــابتْ ذوائـــبُ لِمَّتـــي		والفَقْــرُ يَمْــرحُ في شَبابِه

ففــررتُ مــنهُ إلــى فَتى		مــا خَــابَ مُعْتَصِــمٌ ببابهْ

فــي ســاعةٍ يجفــو الفَتَى		فِــيْها أخَــاهُ على مُصَابهْ

فَوَجدتُـــــهُ مُسْــــتهدِفاً		لـــيَ، قد أَمِنْتُ من احتِجابهْ

مُتَعرِّضِـــاً لحَوائجِ الـــــ		إخــوانِ مَاضٍ في احتِسابهْ

وقد مدح ابن بطة في قصيدته أخرى، سار فيها على النهج ذاته، من حيث الشكوى وعرض المعاناة، حتى إذا بلغ المديح خاطبه بقوله(٣٢):

اِسْــمعْ مقَالــي أبا عَبْدِ الإلهِ ومَا		أَقُولُــهُ فــيكَ مــن فَرْد ومَزْدَوَجِ

لئــنْ نَجَتْ مُهْجتي ممَّا رُمُيتُ بهِ		من فَقْدِها القُوتَ بعد النَّزعِ والعَلَجِ

فأنــتَ بعــدَ إلــهِ العَرْشِ مُنْقِذُها		وأنــتَ مالِكُهــا من سَائرِ المُهَجِ

وقد مدح الأحْنَف بعض رجالات عكبرا ومنهم: أحمْد بن نَصْر بن طَالب الحَافظ، وكان من أهل المكارم ، ومن علماء الحديث والمؤرخين فيها، فقال(٣٣):

أبَــــا طَالِـــبٍ للهِ دَرُّ مَنَاقِـــبٍ		تَحلَّيــتَها بَــلْ سُدْتَ أهْلَ المَكَارمِ

حَوَيْتَ العُلَى والْعِلْمَ والدِّينَ والتُّقى		بِهِمَّةِ ماضي العَزْمِ، عَالي الدَّعائمِ

سَمَا بكَ في الآدابِ جَدٌ كما سَمَتْ		مَناســبُ قــومٍ من قُرَيْشٍ وهَاشمِ

رَأى منْكَ أصحَابُ الأحاديثِ مُوثَّقاً		فَقــيهاً كــريماً مــن أنَاسٍ أكارمِ

كَفَــى عُكْــبَرَا فَخْراً بأنَّكَ شَيْخُها		وأنْهَــضُ أهْلِــيها لِــرَدِّ المَظَالمِ

وأحــزَمُهُم رَأيــاً إذا مــا رَزِيَّــةٌ		دَهَــتْ، وألَمَّتْ من خُطُوبٍ عَظَائمِ

وكَــمْ طالبٍ جَدْواكَ أخصبَتْ رَحْلَهُ		وكَــمْ غــارمٍ أنْقَذْتَــهُ من مَغَارمِ

كما مدح عبد الواحد بن عبد العَزيز التَّمِيْمي، وهو رجل صدق وثقة من فقهاء الحنابلة فقال فيه(٣٤):

بَعَبدِ الواحـدِ استعْصَمتُ لمَّا ... دَهَانـي من زَمَاني، ما دَهَاني

بمِصْبَاحِ العَدَالـةِ والمُرجَّى ... لمـا يُجْـنَى بـهِ ثمرُ الجِنَانِي

وتَـاجُ النَّاطِقيـنَ بِكُـلِّ عِلْـمٍ ... على استبصارهِ طُرُقَ المَعَاني

فـتى جَمَـعَ الفَضَائلَ في نظِامٍ ... فصَـارتْ مـن قلائدهِ الحِسَانِ

نَهُـوضٌ بالمكـارمِ والمَعَالي ... وفـي ضِدَّيهما حَسَنَ التَّواني

حَبَانـي مـنهُ فـي فَقْرٍ بِحَظٍ ... يُصَـبِّرُني علـى فَقْرِي عَيَاني

ولم نلمح في مديح الأَحْنَف ما يُخصُّ به الخلفاء أو كبار الولاء، ويبدو أن العاهة أبعدته عن قصور الخلفاء، ومجالس الولاة والأمراء، مما أضعف شعره المدحي، إذ لم نجد فيه معنى مبتكراً وصورة خلاقة، مما جعل باعه في فن المديح قصيرة، إذ لا يمكن أن يجاري في هذا الميدان الكثير من أقرانه وشعراء عصره.

على أن الأَحْنَف، وإن يكن بعيداً عن الصفوة من أهل عصره، فقد مدح بعض الكتاب والحجاب، ومن ذلك قصيدته في مدح أبي مُسلِم محمد بن الأَصْبَهاني الحَاجِب، وفيها حنٌ إلى أيام الصبا والشباب، وذكر بعض التجارب على سبيل العظة والتذكير، وافتخر بذاته قبل أن يمدح أبا مُسلِم بقوله(٣٥):

أبَـا مُسْـلم إنَّ الإمَـارَةَ خُـيِّرتْ ... قَرِيْـناً كَـرِيماً، يَتقِّـي ويُرَاقِـبُ

قُرِنْـتَ بمَحْمُـودِ السَّجَايا مُحمداً ... حَسِيبٌ ،أدِيبٌ، كَاتِبٌ، وهو حَاسِبُ

محاسِـنُه اشتُقَّتْ، وكان اشتِقَاقُها ... من اسمِ أبيهِ سُؤْدَداً، وهو نـاسِبُ

خَلائِقُـهُ كالـنُّورِ بَاكَـرَهُ الـنَّدى ... وَجـادَتْ علـيهِ بالعَشِيِّ السَّحَائِبُ

- **الهجاء:**

للأحنف مذهب خاص في الهجاء، ينال به من لئام الناس، ويعرض فيه بالأغنياء الموسرين، الذين أوصدوا أبوابهم في وجه الفقراء، وذوي الحاجة والخصاصة، فكان بهجائه يشفي القلوب الساخطة على تلك الفئة، فلا يسمع في ذلك رأي من ينهاه عن الهجاء ، أو يلومه عليه(٣٦):

وَلِي مَذْهَبٌ في الهَجْوِ أَرْضَى بِفُحْشِهِ	**قُلُـوبَ أُنَـاسٍ من أُنَاسٍ ذَوِي رِجْسِ**
رُذالٌ أَبَـى المِقْـدارُ إلا الغِـنَى لَهم	**فَظـنُّهُم نَاسـاً، وليسـوا من الإِنسِ**
أَلامُ علـى شَـتْمِ اللّـئام ذَوي الغِنَى	**ومَـا أنـا مِنْهُمْ في شُكُوكٍ ولا لَبْسِ**
وإنّـي لأُغْـرَى بَالهِجَـاَ مُتَـبَرِّعاً	**فإِنْ ضاقَ بي خُلُقٌ، هَجَوتُ به نفسي**

وبالرغم من أن الأَحْنَف يصف هجاءَهُ بالفحش، إلا أن هذا الغرض في الحقيقة لم يأخذ حيزاً واسعاً في شعره، وإذا ما قيس هجاء الأَحْنَف بهجاء سواه من الشعراء، فإنه بعيد عن الفحش والإقذاع، الذي يمكن أن نجده، والذي كان الأفراد يكتوون بناره، وفي هذا الجانب فإن هجاءه الفردي كان محدوداً، مما يؤكدُ انصرافه عن هذا الغرض، وعدم استغلاله له في النيل أو التكسب من الآخرين.

وهجاء الأَحْنَف نوعان: هجاء الأفراد، وهجاء المدن، وهو في هجاء الأفراد يكتفي بالنيل من المهجو ببيتين أو أكثر، يصف فيهما خساسة المهجو، أو بخله، وسوء أخلاقه، دون أن يتعدى ذلك فيقول(٣٧):

بَصُـرتُ به، والكلبُ يَمشي أَمَامهُ	**فلـم أدرِ في التَّشبيهِ أَيُّهمَا الكلْبُ**
فَـتى يُعْجِبُ الرَّائِيَن زِيَّاً، ومَنْظراً	**وأيسَـرُ مـا فيهِ النَّذالةُ والعُجبُ**

وغالباً ما يهجو الأَحْنَف شريحة من الناس دون تحديد، ومن ذلك هجاؤه للثقلاء من الناس وللعميان منهم، حيث خصّهم بقصائد هجائية عديدة، وتعرّض لهم

في مواقف كثيرة، وكان أشدَّ ما يضايقه مجالسة الثقلاء، وأحاديثهم، وحركاتهم ومزاحهم، إذ يقول(٣٨):

أنَـا مـن طَلْعةِ الثَّقيلِ لمَا بِي ... مَـا حديـثُ الثَّقيلِ إلا عَذَابي
حَـركاتُ الثَّقـيلِ غَيْظٌ فإنْ قا ... لَ، فقولُ الثَّقيلِ، وخزُ الحِرَابِ
مـا حديـثُ الثَّقـيلِ إلا عَذَابٌ ... ومُـزَاحُ الثَّقـيلِ فَقْدُ الشَّبابِ

ومما كان يثيره بالثقلاء ما هم عليه من جفاء وغلظةٍ في الطباع، ولهذا صب هجاؤه عليهم في إطارٍ من السخرية المرة، فقال(٣٩):

إذا مَجَـنَ الثَّقيلُ رأيتَ فِيْلاً ... يُلاعِـبُ كَرْكَدنَّاً في مَضِيْقِ
يُخَفِّـفُ روحَـهُ فيزيدُ ثُقْلاً ... ويَصغُرُ عِنْدَهُ جَبَلُ الشَّقِيقِ

أما هجاؤه للعميان فهو باب واسع، إذ كان الأَحْنَف شديد المقت والكراهية لهذه الفئة، حيث يصف أفرادها بالخبث والدهاء، بالرغم من التظاهر بالمسكنة فيقول(٤٠):

يَـارَبِّ سَلِّطْ على العُمْيان مُوْجِبَةً ... يَـا رَبِّ، وابْـدَأْ بأعْمَى آلِ حَجَّاجِ
هُو الضَّرِيرُ الذي يَمْشي بِغَيْرِ عَصَا ... كالـنَّجْمِ يَـنْقضُّ من عَلْياءِ أبرَاجِ
إبْلـيسُ يَعْـتادُ ممَّـا فيهِ من نَكدِ ... وَمَـا أراهُ إذا مـا اعْتَادَ بالنَّاجِي
كَأنَّمـا الـنَّارُ فـي أعضائِهِ ضَرَمٌ ... هَبَتْ بهِ الرِّيْحُ في عَصْفٍ وإرْهَاجِ

ويعزو الأَحْنَف سبب نقمته على العميان، لما فيهم من خصال الشر والطمع والشر والحسد، وما يسببه له ذلك من غيظ ونكد(٤١):

سُـبْحَانَ مَنْ خَلَقَ العُمْيانَ من نَكَدٍ ... واختَصَّهمْ بقَبيحِ السُّخفِ والحَسَدِ
والشَّرُّ فيهم، وسُوْءُ الظَّنِ طَبْعُهمُ ... واللُّوْمُ والشُّؤْمُ، والإفْسادُ في البلدِ

وإذا كانت تلك الصفات وراء مقت الأحْنَف للعميان، فإن سبباً آخر زاد من شدة عداوته لهم، ألا وهو المسألة والاستجداء، وقد يكون ذلك من أهم أسباب العداوة القائمة بين أصحاب المهنة الواحدة، وهذا ما ألمح إليه في بعض قصائده التي شهّرَ فيها بعيوبهم، ونشر نقائصهم، ونفر الناس منهم فقال(٤٢):

سَألتُ عن العَمَى قَوْماً ظِرافاً ... من العُمْيانِ قد مَلَكُوا البَرَاعَهْ
فقَالوا: مِحنةٌ فيها ثَوَابٌ ... على كُرْهٍ، وظَاهِرُهَا بَشَاعَهْ
إذا أبْصَرْتَ أعمَىً فيه خَيْرٌ ... فقد تَرَكَ الخبيثُ رَدِيْ طِبَاعَهْ
وَنافِقَ، فاجْتَنبهُ، فذاكَ ذنْبٌ ... لَهُ في كُلِّ مُخْزِيةٍ بِضاعَهْ
فقلْتُ: وما الدَّليلُ؟ فقال: هذا ... لأنَّ الشَّحذَ عِنْدهمُ صِناعَهْ

ويعود إلى هجاء العميان في أكثر من قصيدة، فيذكر صحبته لهم، ومناكدتهم إياه، قائلاً(٤٣):

بُلِيتُ بِصحبةِ العُمْيانِ دَهْراً ... فَعَانيتُ الشَّديْدَ من العُقُوقِ
رأتْ عَيْنايَ منْهم كُلَّ عَيْبٍ ... قبيحٍ في الصَّبُوحِ وفي الغُبوقِ
إذا الأعمَى نَصَحْتَ له تَصَدَّى ... لِغشِّكَ منُه عن شرٍّ وثِيْقِ
وإنْ ناظرْتَهُ في شَرْحِ عِلْمٍ ... أعَانَ الجَهْلَ عن وجْهٍ صَفِيْقِ
إذا صاحبْتَ أعمى في طريْقٍ ... صَحِبْتَ الشَّرَ في ثوْبِ الصَّدِيقِ

ولم يقتصر هجاء الأحْنَف على الأفراد، وبعض شرائح المجتمع فحسب، بل امتد ليشمل المدن والقرى وأهلها، وكان ينطلق في هجاء المدن من التمايز بين فئات الموسرين والفقراء المعدمين، فيذم أخلاق أهلها، وبخلهم الذي يجعلهم لا يكترثون بسواهم، مما يدفع الأحْنَف إلى رميهم بسهام نقده اللاذعة الكاوية.

وقد هجا العديد من المدن من بينها بغداد، كما هجا عكبرا، وهي مدينته التي نسب إليها، فرمى أهلها بالبخل، وجردهم من الفضائل والخصال الحميدة، فقال(٤٤):

إذا كُنْتَ ضَيْفَ العُكْبَريِّنَ، لم تَذُقْ طَعَاماً، ولم تَشْرَبْ من الماءِ بارِدَا
وبِـتَّ مَبيْتَ الذِّئبِ في أرْضٍ قَفْرةٍ طَوَى أرْبَعاً يَعوي، ويُصبحُ شارِدَا
وإنْ كنْـتَ جَـاراً فيهِمُ بِتَّ جائِعاً وإنْ بِـتَّ مَحْسُوداً بِهِم بِتَّ واحِدَا
عَبِـيدُ العَصَا، لم يَظْفُروا بفَضيلةٍ ولـم أرَ فِـيهم بالحَقـيقةِ ماجِدا

ولم يسلم من هجاء الأَحْنَف أهل مَفْتح، وهي قرية تقع بين البصرة وواسط، حيث صبَّ على أهلها هجاء شديداً، ووصفها بأنها داء سوء، ونعت أهلها بالبخل والخساسة فقال(٤٥):

مـا سُـمِّيَتْ مَفْتحاً إلا وقد فُتِحَتْ فيها المَخَازي، وزَالَ المَجْدُ والجُودُ
قَـومٌ يُـباعُ رجِـيعُ القومِ بيْنَهمُ في السُّوقِ نَقْداً، فهذا البَيْعُ مَفْسُودُ

● الغزل :

يشيع الغزل في شعر الأَحْنَف إلى حد ما، وتضطرب رؤيته بين التعفف تارة، والميل إلى المجون تارة أخرى، ومن الطبيعي ألا يكون للأحنف حظ واسع في هذا الميدان، فهو زري الهيئة، أحنف الرجلين، شديد الخصاصة، ومن تكن تلك هي صفاته، فلا سبيل له إلى قلوب النساء.

ويصف الأَحْنَف في شعره الغزلي محاسن المحبوب، سواء كان من الفتيات المِلاح، أو من الغلمان، ويعبر عن شوقه إلى الحبيب، وتمنع الحبيب من وصاله، فيقول(٤٦):

رَأيْـتُ مُهَفْهَفـاً كالغُصْـن مَالَتْ بِـهِ رِيْـحُ الشَّـمالِ لدى الهُبُوْبِ
لَـهُ ثَـوبٌ يَمِـيلُ علـيه تِـيهَاً كمـا التَفَّ القَضِيْبُ على القَضيبِ

فَحمَّلنـــي هَــواهُ، وكنْــتُ غِــرّاً بمـــا يَلْقـــى المُحِــبُّ من الحَبِيْبِ
لـــه جِفْـــنانِ قَــد مُلِــيَا سَــقَاماً يَبُـــثَّانِ السَّـــقَامَ إلـــى القُلُـــوبِ

ويصف الأَحْنَف ما يعانيه ويكابده من ألوان الشقاء في حبه، وجفاء الحبيب له، وعدم قدرته على احتمال ذلك، فيقول(٤٧):

أَرُومُ الصَّـــبْرَ عَـــنْكَ بِكُلِّ وَجْهٍ فَمـــا أجِدُ السَّبِيلَ إلى اصْطِبارِ
وأصْــرِفُ عـــنكَ قَلْباً فيه نَارٌ مـــن الـــتَّذْكَارِ مَضْــرَمَةٌ بِنَارِ
مَخَافَـــةَ أنْ يَــنِمَّ الدَّمْـــعُ عَنِّي فَتُحْوِجُنـــي الدُّموعُ إلى اعْتِذارِ
وكِــتمانُ الهَوَى خطبٌ عَظِيمٌ علـــى قُــرْبِ الدِّيارِ من الدِّيارِ

كما يصف ما يفعله الحب في قلوب العشاق من ضروب التسهيد وألوان المكابدات، وما يصيب عيون المحبوبة جراء قسوتها، التي ترمي بسهامها القلوب فتدميها(٤٨):

قَـــالُوا: اشْتَكَتْ عينُها، فَقُلْتُ لَهَم: مـــن كَــثْرَةِ القَتْلِ مَسَّها الوَصَبُ
حُمْــرَتُها مـــن دِمَـــاءِ مَـــنْ قَتَلَتْ والـــدَّمُ فـــي النَّصْــلِ شَاهِدٌ عَجَبُ

ويعلل الأَحْنَف دوافع الحب، وأسبابه الخفية، وما تجر على المحب النظرات الأولى، ويتحدث عن طاقة الحب التي لا يستطيع المرء أن يفلت منها، إذا ما أسرته واستولت على مشاعره وقلبه، فيقول(٤٩):

أنا صَنَعْتُ بِنَفْسي، فاسْمَعُوا خَبَري قَتَلتُ نفسي بسَيْفِ المزحِ والنَّظَرِ
عَبِثْــتُ بالحُبِّ غِرّاً، والهَوى أَسَدٌ مَنْ مَازَحَ السَّبعَ ما يَنْجُو منَ الحَذَرِ
قد كُنْتُ أسْخَرُ من قومٍ إذا عَشِقُوا ما كُنْتَ أَعْلَمُ ما في الغَيْبِ والقَدَرِ

وإذا كانت تلك مخاطر الحب، فقد كان الأَحْنَف حريصاً على تجنب الوقوع في شباك الهوى، متفادياً ذلك، لأن الحب كالبحر الهائج، لا يسلم المرء من أخطاره إلا إذا ابتعد عنه، ولهذا كان يغض طرفه عن رؤية الفتيات الحسان، ويقطع صلته بهن، لاعتقاده أن النظر والحديث من أهم دواعي العشق ومسبباته، فيقول(٥٠):

أغـضُّ طرفي عن الملاحِ ... مخافـة الحـادثِ المُـتاحِ

والحُـبُّ بحـرٌ بـلا قرار ... قـد حُـفَّ بالموجِ والرياحِ

كـم نظـرة أتلفـتْ مُحِبّاً ... بيـن المعـاريض والمزاحِ

على أن الأَحْنَف يشير من جهة ثانية إلى أثر المال، ودوره في العلاقات والصلات التي تنشأ بين المتحابين، ويرى أن من يطلب وصل المِلاح من النساء دون مالٍ فقد طلب ما لا يقع أو يكون، وفي ذلك يقول(٥١):

أحـقُّ الـنَّاسِ بالصَّفْعِ الجُلالِ ... فَـتَى يَهْوى المِلاحَ بغيرِ مَالِ

فـإنْ كتبَ الشَّقيُّ كِتابَ عَطْفٍ ... فقـدْ طَلَـبَ المُحالَ من المَقَالِ

وكانَ كمَنْ شكا ضَرَباتِ ضِرْسٍ ... فَـداواهُ الطَّبيـبُ من الطُّحَالِ

كما يشير الأَحْنَف إلى اختلاف الطبائع والميول، وتبدل العواطف وتغير المشاعر وفتورها، وإن كان يعترف أن الشيب والشيخوخة جعلته لا يطمح بطلب وصال من يود بين النساء، فإنه من طرف آخر بات يرى في هذه العلاقة إغواء من إبليس، وهي علاقة لا تقوم دون المال لأنه الوسيلة التي تقرّبُ بين المتحابين كما يقول(٥٢):

الحُـبُّ جَائِحَـةٌ مـن فِعْلِ إبليسِ ... والحُـبُّ يَحسُـنُ إلا بالمَفَالـيسِ

شَكَوتُ ما بي إلى مَنْ ليسَ يرحَمُني ... يَـرنُو إلـيَّ بتَقْطِيـبٍ وتَعْبِـيسِ

وفي بعض المواقف، ولحظات الصفو والموضوعية، كان الأَحْنَف يميل إلى إنصاف المرأة عندما يتحدث عن عواطفها ومشاعرها، ويساويها بالرجل في ذلك، مؤكداً أنه لا يحق للرجل أن يفعل ما يشاء، لأن طبائع الناس واحدة، وتتبع من أصل واحد فيقول(٥٣):

عِرْسُـكَ مـن نَفْسِكَ مَوْصُولَةٌ ... مِـثْلُ اتِّصـالِ الكَفِّ بالسَّاعِدِ
فـيها الـذي فِيْكَ على صِحَّةٍ ... مَـأخوذةٍ بالطَّـبعِ مـن وَالدِ
فاحكُمْ على نفسِكَ، واحكمْ لها ... مـن غَـيْرِ بُرهانٍ، ولا شاهِدِ

ولكنه في أخريات أيامه، وبتأثير الظروف وتبدلات الزمان، أظهر نوعاً من الرؤية السلبية في تقيمه لمواقف المرأة وعلاقته بها، فقال(٥٤):

لا تَسْـمَعَنَّ كَـلامَ شَـيْخٍ جـاهِلٍ ... يَصِـفُ النِّسَـاءَ بِعِفَّـةٍ وجَمَـالِ
يُعْرِضْـنَ عـنهُ زَهَـادةً ومَلالـةً ... فيظُنُّهـنَّ عَفَـائِفَ الأذْيـالِ
وَسِـلِ المِلاحَ مِنَ الشَّباب فِعندُهمْ ... صِـفةُ النِّسـاءِ بصِـحَّةٍ وكمـالِ
إلا الـثِّقاتِ مـن النِّساءِ فهُنَّ إنْ ... فتَشْـتَ أكـبرُ غايـةِ الآمـالِ

● الرثـاء :

لم يكن الأَحْنَف يولي الرثاء أي اهتمام في شعره، وقصائد الرثاء التي تضمنها ديوانه لا تتعدى قصيدتين أو ثلاثاً، ونرى أن عدم عنايته بالرثاء، ترجع إلى علاقته السلبية مع أهل عصره، وهي علاقة قامت على العزلة، والنفور، والغربة، والوحدة، والتجوال في أقطار الأرض وبلدانها.

وفي هذا السياق رثى الأَحْنَف المُشيَّع الكَسَّاح، وكان نقيب المكدين وزعيم المتسولين، وفي هذا الرثاء الذي تنقصه العاطفة الحزينة، والمشاعر المؤثرة نوّه الأَحْنَف بفضائل الكسَّاح، مشيداً بمهارته في الشحذ، ورعايته

لأصناف الشحاذين والمتسولين، ونصائحه وإرشاداته لهم في طرق الكسب، وفنون الكُدية والاحتيال فيقول(٥٥):

نَعَــى النَّاعي المُشيِّعَ فاستهلَّتْ دُمُوعِــي، وهيَ أَرْبعَةٌ سِرَاعُ
وكُــلُّ مُعمَّــرٍ للمَــوتِ يَــبقَى وكُــلُّ مَعِيشَــةٍ فَلَهــا انْقِطاعُ
مَضَى شيخُ العَشيرةِ والمُرَجَّى وتَاجُ الشَّحذِ، والرَّجُلُ المُطَاعُ
ولــم يَــترُكْ لــنا خَلَفاً نَجِيباً يكــونُ لقولــهِ مــنَّا استِمَاعُ
سَــتُبكِيكَ الأقــاربُ والأقاصي وتَــنْدِبُكَ الخِــيَاطةُ والــرِّقَاع
وتَعْدَمُــكَ المَسَــاجِدُ والقُــرَايا وتَبْكِــيكَ الأمَاكِــنُ والــبِقَاعُ
شَــحَذْتَ الــنَّاسَ سَبْعِيناً تِبَاعاً كَــرِيماً لا تُــرِيعُ ولا تُــرَاعُ
سَــقَتْ جَدَثَــاً حلَلْتَ بهِ سَحَابٌ لوابِلِهــا انحِطَــاطٌ وارتِفَــاعُ
بَقِيْــنا ضَــائِعينَ بــلا نَقيــبٍ يُقَوِّمُــنَا، فأكْــثرُنا ضِــيَاعُ

ثم رثى العُكْبري أبا القَاسم نَصْر بن أحمد البَصْري، الشاعر الذي اشتهر بخبز الأرز في البصرة، بقصيدة شكا فيها بؤسه وشدة فقره، الذي رأى في المتوفى من يشاطره محنته ومأساته في إعراض الدنيا عنهما، وإقبالها على سواهما، فقال(٥٦):

لــي مِنَ النَّاسِ أُسْوةٌ في أبي القا ســمِ نَصْــرٍ ذي المَنْطِقِ المَطْبُوعِ
عَافَ مدْحَ اللِّئام واستَجْملَ الصَّــ ــبرَ فــأدنَى إلــيهِ كُــلَّ مَنــيعِ
لــم يَــزلْ يُخْــبزُ الأرُزَّ إلــى أنْ نَاطَــهُ الصَّــبْرُ بــالمَحَلِّ الرَّفــيعِ
عَلِــمَ الدَّهــرُ أنَّــهُ خَــانَ نَصْرَاً فَــتَلافَاهُ بَعْــدَ ضَــرْبٍ وجِــيعِ

● **الحكمـــة :**

لاشكَّ أن امتداد العمر بالأحْنَف قد أغنى تجربته في الحياة، وعمق من ذلك انتقاله بين البلدان والأمصار، ومخالطته العديد من البيئات الاجتماعية والشرائح الشعبية المختلفة، فإذا أضفنا إلى ذلك رؤيته الفكرية لما يجري من حوله، وتعليله لطبائع الناس واختباره أخلاقهم، ومعاملاتهم يمكن أن نستخلص من ذلك كله أن الأَحْنَف امتلك تجربة واسعة في شؤون الحياة والناس، وهي تجربة مرت بأطوار متباينة في خصوصيتها وذاتيتها، وما أحاط بها من تشاؤم، وفقدان الثقة بالآخرين، واليأس من إصلاح طباعهم، التي رأى الأَحْنَف فيها انحرافاً، وتجافياً عن القيم الإيجابية، والخصال الحميدة، التي تدل على علو الهمم، وتماسك المجتمع، وتعاون أفراده، وتعاضدهم في السَّراء والضَّراء.

ويعد شعر الحكمة من أوسع الأغراض التي تناولها الأَحْنَف في قصائده، إذا كان يطرق باب الحكمة، ويسدي النصيحة، ويعبر عن وجهة نظره وخبرته فيما تُكّن النفوس، وما تكون عليه من طبائع يناقض ظاهرها ما تخفي، فيقول(٥٧):

وما كُلُّ القُلُوب شَقَقْتَ عَنْها ... فَبَانَ لكَ الصَّحِيْحُ من المُرِيْبِ

ولكنَّ العُيونَ تَشِفُّ عَمَّا ... تُواري الحُجْبَ من غِشِّ القُلوْبِ

ولم أرَ كالعُيونِ أدلَّ شيْءٍ ... وأكشَفَ عن خَفيَّاتِ الغُيُوْبِ

وقد لخص الأَحْنَف في شعره تجاربه ومشاهداته، وتغير الناس من حوله، وتقلبات الأيام ، وصروف الليالي، وعجائب الزمان التي ترفع من هذا حيناً، وتحطُّ من شأنه أحياناً، فيقول(٥٨):

كمْ رَأيناَ منْ رَفيعٍ ... حُطَّ من بَعْدِ انتِصَابِ

وحَقيرٍ ضَرَبَ الدَّهـ ... ـرُ عليهِ في الحِجَابِ

مَا على الأيَّامِ عَتْبٌ ... في مَجِيْءٍ وذَهَابِ

إنَّما العَتْبُ على مَنْ ... زلَّ عنْ وجهِ الصَّوَابِ

وأكثر ما تطرق الأحنَف في حكمته إلى أخلاق الناس في عصره، وصعوبة التلاؤم أو التكيف معهم، وما يعانيه الأحرار وذوو العلم والأدب من إهمال وإعراضٍ، وازدراء بسبب الجهل، والانصراف عن العلم، وانتشار اللهو والبَّطالات بين الناس، فيقول(٥٩):

مَـنْ طَالَبَ النَّاسَ بالإنْصَافِ أحْقَدَهُمْ ... ومَـنْ نَحَـاهُمْ إلـى الآدابِ عَـابُوْهُ

ومَـنْ دَعَـاهم إلـى فُحْشٍ ومُخْزِيةٍ ... وسُـوْءِ فِعْـلٍ، وتخلـيطٍ أجَـابُوهُ

كما صاغ الأحنَف خلاصة تجربته في الحياة، ومعاشرة الناس في نصائح يرى أنها تشكل منهجاً للإنسان إذا ما تمسك بها، استطاع أن يعيش مستقرَّ البال، مطمئن النفس، بعيداً عن أذى الناس، وشرورهم، فيقول(٦٠):

إنِّـي مُوَصِّـيكَ، فاحفَظْ عنْ أخي ثِقَةٍ ... رَاضَ الـزَّمانَ، وراضَـتْهُ تجارُبـهُ

فَاقْـبلْ وَصـيَّةَ مَنْ ناجَاكَ عن فِطَنٍ ... نَاجَـاهُ عـن غيـبِها فِكْـرٌ يُخاطِبُهُ

كُـنْ كيِّسـاً فِطَـناً جَـزْلاً تَجِدْ وَزَراً ... فالكـيِّسُ الـنَّجْدُ قـد تَصفُو مَشَارِبُهُ

ألِـنْ جَـنَاحاً، وكُـنْ كـالأُفعُوانِ إذا ... لاَنَـتْ مَلامِسُـهُ، أرْدَتْ عَواقِـبُهُ

إلْـقِ العَـدُوَّ بوجـهٍ ضَـاحكٍ وأقِمْ ... فـي القَلْـبِ مِـنكَ لهُ جَيْشاً تُحارِبُهُ

سالِمْ أخاَ السِّلْمِ، واغْفِرْ للصَّديقِ وكُنْ ... مِمَّـن إذا عُـدَّ لـم تُذْكَـرْ معايِـبُهُ

دعِ المَطَـامِعَ إنْ لاحَـتْ كوَاذِبُهـا ... تَعِـشْ عزيـزاً، فشـرُّ الفِكْرِ كاذِبُهُ

اجْعَـلْ شِـعَارَكَ سُـوْءَ الظَّنِ تَنْجُ بهِ ... مَـنِ كـانَ مُسْـتيقظاً، قلَّتْ مَصائِبُهُ

وَخَـالقِ الـنَّاسَ خُلقـاً يحمَدُوكَ بهِ ... فالشَّـرُ نـائلٌ مَـنْ قَلَّـتْ مواهِـبُهُ

كـمْ عاجِـزٍ جـاءَهُ مـالا يُؤمِّلُـهُ ... وكـيِّسٍ فطِـنٍ سُـدَّتْ مذاهِـبُهُ

ولا يخفى حين نتأمل هذه النصائح التي ساقها الأَحْنَف، أنها تعبر عن رؤية مضطربة، لأنها تخلط بين القيم الإيجابية والسلبية، في إطار موقف حياتي يميل إلى الانتهازية، ويؤمن بالتناقض بين الظاهر والباطن، إذا كان في ذلك ما يؤمن السلامة للمرء، ويحقق له غاياته ومقاصده، وقد يكون في انتشار هذا القيم ما يقيم البرهان على فساد أخلاق الناس في عصر الأَحْنَف، وهذا ما نجده في علم لسان أكثر من شاعر، ولكن الميل إلى تعميم هذا النهج لا يستقيم، ونقاء الأخلاق، وصفاء القيم والسرائر.

وقد يكون للأحنف فيما ذهب إليه بعض العذر، إذ كانت تجربته الحياتية مرة وصعبة، لم يستطيع خلالها أن يندمج في إطار محيطه الاجتماعي والإنساني، فطغت نظرته الذاتية على كل شيء من حوله، فجاءت رؤيته على هذا القدر من التشاؤم والسلبية.

● الزُّهدُ:

يبدو أن حياة الفقر والعزلة، وطول العمر والشيخوخة، وما أصيب به الأَحْنَف من أمراض وعاهات انتهت بفقدانه البصر، وما لاقاه في حياته من ألوان الحرمان، قد عزّزت في نفسه الميل إلى الزهد، واليأس من الناس، والتفكير في العاقبة والدار الآخرة.

وقد وجدنا هذا المنحى من التحول في حياة أبي العتاهية الذي سار في مطلع شبابه في طريق اللهو والعبث، ولكنه مال بعد فترة إلى الزهد، فأكثر من النصائح والمواعظ التي تذكر بالموت والحياة.

والأَحْنَف في شعره الوعظي يحذر الإنسان من الغفلة، والتمادي مع الآمال والأماني، ويذكره بحقيقة هذا الوجود الذي سيؤول ذات يوم إلى الموت والفناء، والعاقل من الناس هو من لا يغترُّ بالأيام فيقول(٦١):

وَمَـا هـذهِ الأيـامُ إلا مُعَارةٌ تَمـتَّعْ بهـا فالمُسْـتَعارُ رَدِيدُ

ولا تَعْـتقدْ فـيها البَقَاءَ فإنَّها وإنْ بَقِيـتْ فالمُسْـتعيرُ فَقِـيدُ

فـلا مُصْعِدٌ عَنْها، ولا مُتسلِّقٌ إلـى فَوقِهـا إلا مَـدَاهُ بَعِـيدٌ

حَـيَاةٌ ومَوْتٌ، وافتِراقٌ وأُلفةٌ ونَحْـسٌ وسَعْدٌ، والسَّعيدُ سَعِيدُ

ويرى الأَحْنَف أن العاقل من الناس هو من اتعظ بالموت، وصحا من غفوته، وفكر بعواقب الأمور، فنهى النفس عن الهوى، وحذرها من الانسياق وراء الشهوات، وحثها على تجاوز التقصير، وخوفها عذاب يوم الميعاد، وحذرها من شرور الدنيا ومظاهر فتنها، التي توقع الإنسان في مهالك الردى حيث تخدعه ببريق لذاتها فيقول(٦٢):

عِظِ النَّفسَ أنْ تصبُو إلى شَهَواتِها ولُمْهَـا على التَّقصيرِ في خَلَواتِها

أخِفْهـا بـباريها، ويـوم مَعَادِها لِـتُقْلِعَ عـن عاداتِهـا وهَـنَاتِها

إذا كـانَ مَهْـرُ الـنَّارِ لذَّةُ ساعةٍ تَقَضَّتْ ، وَحلَّ الخَوْفُ في نَدَمَاتِها

فَمَـا طَابَـتِ الدُّنيا ولا شَهَواتُها إذا كانـتِ النِّـيرانُ في أُخرَياتِها

ثم يحذر الإنسان من الانسياق وراء شهواتها، ويرى أنها دار محنة واختبار، ومجلبة لنعمة أو نقمة فيقول(٦٣):

هيَ المِحْنةُ الكُبرَى، هيَ الدَّارُ حَشْوُها مَصَـائبُ آفـاتٍ جِـلالٍ صَـلاتِها

هـي الـدَّارُ لـم تَضمنْ لحيٍّ سَلامةً مـن المَـوْتِ، والمكروهُ من نكباتِها

هـيَ الـدَّارُ أفْنَتْ مَعْشراً بعْدَ مَعْشرٍ تِـبَاعاً سِـرَاعاً، وهـيَ في مَهَلاتِها

هـيَ الـدَّارُ حقَّـاً أتعبتْ من أرادها وعـادتْ علـى مَـنْ نالها بِسماتِها

هـيَ الـدَّارُ إنْ لم يرحمِ اللهُ تقتضي عِقابـاً لمَـنْ أوْمـى إلـى سهواتِها

فـلا تـأسَ إنْ ضـنَّتْ عليكَ بنَيْلِها لأنَّ الأذى، والمَـوْتُ مـن أدواتِهـا

وإذا كان الأَحْنَف في مطلع شبابه يدعو إلى الأخذ من متع الدُنيا، لأن الحياة قصيرة، والموت يتربص بأهلها، فيقول[٦٤]:

خُــذْ مِــنَ الدُنيا فَإنّ الــ ـــمَوتَ لا شَــكَّ سَــيَأْتي

واسْــقِنِيها بَيْــنَ نــاوِلْـ ـنـي، وخُذْهــا ثُــمَّ هَاتِ

خَمْــرةً من عِنَبِ الأشْحُـ ـــوزِ من شَطِّ الفُراتِ

إنَّمـــا الدُنـــيا حديـــثٌ بيـــنَ مَـــوتٍ وعِـــدَاتِ

فإنه في أواخر عمره انصرف عن اللهو، ووجد في الشيب واعظاً ينهاه عن الجهل، ومقاربة الآثام، والوقوع في المعاصي، فقال[٦٥]:

كَفَى بالَهَوى ذُلاً، وبالشَّيْب واعِظاً وبـــالدَّمعِ فَضَّاحاً لَما في السَّرَائرِ

إذا شِبْتَ فاستحي من اللهِ، لا تكُنْ علـــى خُلُــقِ المُسْتأنِفِ المُتَجاسِرِ

● شكوى الحال :

شكا الأَحْنَف العاهة والبؤس وكساد الأدب، وتبدل الأخلاق، وإنحراف القيم، وكثيراً ما كان يشكو سوء حاله وقلة حيلته[٦٦]:

إنّــي تفكَرْتُ في حُرْفِي على أدَبي وكُــلُّ شــيْءٍ لهُ عِلْــمٌ وتَسْبِيبُ

وجَــدْتُ حَظّي من الدُنيا وزِينَتِها وكُــلُّ شــيْءٍ فَمكتوبٌ ومَحْسُوب

أَقَــلَّ مِــنْ حَــظِّ قِرْدٍ في وَقَاحَتِهِ والقِــرْدُ ذُوْ ذَنَــبٍ والقِرْدُ مَقْبُوبُ

ويشكو جوعه وعريه، وبؤس منزله[٦٧]:

سَــهِرْتُ ومــا مِثْلــي يَنَامُ ويرْقُدُ وفــي القَلْــبِ منّــي جَمْرةٌ تَتَوَقَّدُ

سَهِرْتُ، ولم أطْعمْ من الغَمْضِ لذّةً وكيفَ هُجُوعي، والحَشَا ليسَ يَبْرُدُ

وذاكَ لأنّــي سَــاكِنٌ في غُرَيْــفَةٍ وأفردْتُ فيــها، والغريبُ يُفَــرَّدُ

مُطَـبَّقةٌ كالسَّـجنِ بل هُوَ دُونَها مَعَايُـبُها فــي كـلِّ يـومٍ تَــزيَّدُ
عَقَــاربُ فــيها طائراتٌ ووُقَّـــعٌ وحيَّــاتُ سُوْءٍ في السُّقُوفِ تَردُّدُ
وزُنْـبُورُها فـيها مُقارنُ صرْصَرٍ وطَــبُوعُها باللسَّــعِ للــبَقِ يُسْعدُ
وحِـيْطاتُها الأخَصَاصُ تهتزُّ كلَّما تحركــتُ فــيها والكوَاشِــكُ مُيَّدُ

ويصف ليله الطويل ومعاناته الشديدة مع زمهرير الشتاء القارس والبراغيث التي تلسع جسده، فلا تدعه يرقد أو ينام(٦٨):

بَــرْدُ الشِّتَـــاءِ مُعَـــذِّبٌ يَشْــقَى بِــهِ الرَّجُلُ الفَقِيرُ
وَخَـــلٌ ورِيْـــحٌ قَاتِـــلٌ ونَهَــارُهُ يَــوْمٌ قَصيــرُ
ليْــلُ الشِّتَاءِ هوَ المَمَــاتُ وفــي صَــبِيْحتهِ النشــورُ

كما يصف البراغيث والهوام التي تلسع جسده، فلا تدعه ينام أو يرقد، وهو يعاني من لدغاتها الكاوية(٦٩):

ولَــيْلٍ بِــتُّ أَقْطعُــهُ طَوِيْلٌ كَليلِ الصَّبِ عُذِّبَ بالصُّدودِ
تَنَاولنــي بَرَاغِيْــثُ تَعَادَوا على جَسَدي كَأمْثالِ القُرودِ
تَــرَاهُمْ في توثبُهم غِضَاباً بِوَقْعٍ كالمَطارِقِ في الحَدِيدِ
وقَد فَعَلوا بجِسْمي والحَوَايا فَعالَ النَّارِ في جُلِّ الحَصِيدِ

كما يصفُ خواء غرفته التي خلت من الطعام، وضوء السّراج، وما يكابده من لسعات البرد والجوع، فيقول(٧٠):

إذا حَضَرَ المَاءُ في غُرْفَتي وضَوْءُ السِّراجِ وجَاء المَطَرْ
فَــإنْ كَــانَ خُــبزٌ فَيَا حَبَّذا وإنْ لَــم يكُنْ، فكَرِيْمٌ صَبَرْ

ثم يخاطبها أن تنبئ عن حاله، وتخبر من يأتي ليدفنَ جثمانه بعد موته عن شدة معاناته، وصبره على الرزايا، وصون نفسه عن الوقوع في المعاصي، فيقول(٧١):

يـــا غُرْفتــي إنْ غُــرْفَةٌ نَطَقَــتْ ... فَصِــفِي لَهُــمْ بَعْــدِي إذا حَضَرُوا
وإذا هُــمُ احــتملُوا إلــى تُــرَبٍ ... جَسَــدي، وإنْ رجَعُوا، وقد قَبَرُوا
قُولــي الــذي عَاينْــتِ شــاهَدَهُ ... فالــنَّفسُ يُــبطِلُ ظَــنَّها الــنَّظَرُ
واللهِ مـــا كُشِــفتْ بعَرْصـــتِهَا ... عَــنْ سَــوْءةٍ أُنــثى ولا ذَكَــرُ

كما يصف العيد، وما يجلبه من مسرة للموسرين، وغم وتنكيد للفقراء والمعدمين فيقول(٧٢):

قَــالُوا: أتَى العِيدُ، قُلْتُ: العِيدُ عادتُهُ ... غَــمُّ الفَقــيرِ وتَفْــريحُ المَيَاســيرِ
يَغْــدو الغَنــيُّ غَــداةَ العيدِ في طَرَبٍ ... وذُو الخَصَاصــةِ فــي هَــمٍ وتَقْتــيرِ

وقد أطال النظر، وأمعن التفكير فيما هو عليه، ورأى أن حياته في شدتها وصعوبتها أشبه ما تكون بمن يمشي إلى الوراء فلا يصل إلى غايته، ولا ينال مبتغاه(٧٣):

كــــلَّ يَــــوْمٍ إلــــى وَرَا ... صِــرتُ أمْشــي كما تَرَى
ولشُــــؤْمِي وحِرْفَتــــي ... شِــخْتُ فــي أرْضِ عُكْبَرا

● ذم الزمان: (النقد الاجتماعي)

صبّ العُكْبري نقداً شديداً على عصره، وأهل زمانه مشيراً إلى فساد القيم، وغياب المكارم، وانحطاط منزلة الأدب ومكانة الأدباء فقال(٧٤):

زَهِــدَ الــنَّاسَ فــي العُلُو ... مِ، وفــي الشِّــعْرِ والأَدَبْ
وأتَاتَــــا زَمَــانُــــنَا ... بِعَجِــيْــبٍ مـــن. العَجَبْ

صَــارَ أعَــلاهُ سَــافِلاً فهــوَ نِكْــسٌ قَــد انقلــبْ
كُــلُّ مــا كــانَ فــي الدَّما غِ فقــدْ صَــارَ فــي الذَنَبْ
دُفِــنَ الجُــودُ والــنَّدى فَسَــدَ العُجْــمُ والعَــرَبْ
مــا تَــرَى غَــيْرَ بــاخِلٍ سَــاقِطِ الــنَّفْسِ والحَسَبْ
فــي يَديــهِ صُــبابةٌ مــن تُــرابٍ ومــن ذَهَبْ

وقد كان الأَحْنَف وغيره من الأدباء ضحية هذه التحولات، التي طالت قيم المجتمع وأخلاق الناس، حيث غابت المروءة وقلَ الصدق، وشاعت الأنانية، وسادت بين الناس مظاهر الخديعة والتلون والرياء(٧٥):

ذَهَــبَ الوَفَاءُ ذَهَابَ أمسِ الذَّاهِبِ والــنَّاسُ بيــنَ مُخَــادِعٍ ومُوارِبِ
يُبدُونَ بينَهُم المَــوَدّةَ والصَّفَــا وقُلوبُهــم مَحْشِــوةٌ بِعقَــاربِ

ويعاني الأَحْنَف كغيره من شعراء عصره، من صعوبة التواصل والتعامل مع أهل زمانه، بسبب الاحتكام إلى نزعات الأهواء، وغياب المنطق والمعايير الموضوعية، وهوان الهمم، وانهيار القيم(٧٦):

يُــنافِقُكَ الصَّــدِيقُ وفــيهِ مكْرٌ ويُــبْدي ظَاهِــراً مَقــةً وسَمْتا
فَأكــثَرُ مَنْ تَرَى يَشْكو صَدِيقاً ومَــا عَــاداكَ إلا مَــنْ عَرَفْتَا

وقد أدى غياب القيم الفاضلة إلى الاستهانة بها، وانتهاكها والجهر بسوء الفعل والخلق، حيث غاب الوازع الأخلاقي الذي يردع الناس عن ارتكاب القبيح من الأفعال والتصرفات(٧٧):

قَــد سَــقَطَ العَــارُ فلا عَــارُ ولَــيْسَ للأَحْــرار أنْصَــارُ
واستُضْــعِفَ الحَقُّ وقَلَّ الحَيَا وصَــارَ للجُهَّــال أنْصَــارُ
واسْــتَوتِ الجَــنَّةُ فــيما أرَى عِــنْدَ ذَوِي التَّخلَــيْطِ والــنَارُ

ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى تفكّك المجتمع وفساده، وإلى غياب روح التكافل بين أفراده، وتحلل العلاقات الأسرية حيث خضع المجتمع لسطوة علاقات مادية أنانية، صار فيها الغني المترف لا يرى بؤس الفقير، وصار الأب لا يعطف على أبنائه، ولا يرأف بهم، وعق الأبناء آباءهم، فهم لا يبرونهم، أو يمدون يد العون لهم(٧٨):

نَحْنُ في دَهْرٍ على المُغـــ ـــدِمِ لا يُجْـدِي أَبَـــوهُ
وعلـــى الوَالِـدِ لا يَفْـــ ـــضِـلُ إنْ عَـالَ بَـــنُوهُ
لَـــوْ رَأَى الـنَّاسُ شَـــرِيفاً سَـــائلاً مـــــا وَصَـــلُوهُ
وهُـــمُ إنْ طَمِعُـــوا فـــي زا دِ كَلْـــــبٍ أَكَلُـــــوهُ

ويذمُّ الأَحْنَف أهل عصره لانصرافهم عن طلب المعالي، والتماس الفضائل والآداب، وتصاغرُ نفوسهم عن ذلك لما استقرَّ فهيا من نوازع الحسد والبخل والشح الشديد(٧٩):

وأهْـــلُ زَمَانِنَا هَجَرُوا المَعَالي ومَـــالَ بهم إلى البُخْلِ الجُحُودُ
هَـــزَزْتُهمُ بأشْـــعاري فَشَـــحُّوا وهَـــلْ يَـــنْدى لعَاصِرِهِ الحَدِيْدُ
لهـــم مَـــالٌ، وليْسَ لهم نُفُوْسٌ وكَـــيْفَ يُنِـــيلكَ الرِّفْدَ الحَسَوْدُ

وهو زمن الخديعة والمكر، والغش والرياء، يظهر الناس فيه غير ما يبطنون، من نوازع الحقد والكراهية والانتقام فيقول(٨٠):

دُهِيْـــنَا مـــن زَمَـــانٍ لَيْسَ فِيْهِ سِـــوى مُتَشَامِتٍ، أو مُسْتَرِيْبِ
وحَاسِـــدِ نِعْمَـــةٍ وصَدِيْقِ وَقْتٍ إذا مـــا غِبْتَ ذَمَّكَ في المَغِيْبِ
فَمَـــنْ أَوْلاكَ وُدّاً مِـــنْ صَدِيقٍ ومِـــن ذي قُرْبَةٍ أَوْ من غَرِيْبِ
فَحَـــبُّ خَدِيْعَـــةٍ لمكَـــانِ رِفْقٍ مَـــتى مَـــا زالَ ذَمَّكُ من قَرِيْبِ

ويزيد من حنق الأَحْنَف، ذلك التباين الفاضح بين أهل عصره، والتمايز بين حال الجهلة الموسرين، الذين أقبلت عليهم الدُّنيا بأطايبها، وبين أوضاع الكرام المعسرين، الذين كان أحدهم يعجز عن إيجاد قوت يومه، فيقول(٨١):

أفٌّ لِهَـذا الـزَّمانِ مـن نَكَدِهْ ... خَـالفَ فـي رَسْمِهِ ومُقْتَصدِهْ

أحْوَالَــهُ أصْـبَحَتْ مُخَالِفَــةً ... لِمَا مَضَى في القَدِيْمِ مِنِ رَغَدِهْ

فَكَـمْ شَـرِيْفِ الآباءِ ذِي كَرَمٍ ... يَعْجِـزُ عـن قُوتِ يومهِ وغَدِهْ

وفي هذا الواقع صار الأدب مجلبة للبؤس، ومدعاة للتغرب والعزلة، وصار العاقل مضطراً تحت وطأة الحاجة إلى مجاراة أهل عصره في جهالاتهم، ومسايرتهم في حماقاتهم وإلا نبذوه، وسخروا منه، وصوبوا عليه سهام انتقاداتهم اللاذعة(٨٢):

إذا كـانَ الزَّمانُ زَمَانَ حَمْقَى ... فـإنَّ العَقْـلَ حِـرْمَانٌ وشُؤْمُ

فكُـنْ حَمِقاً مع الحَمْقَى، فإنِّي ... أرَى الدُّنْـيا بِدَوْلَـتِهم تَـدُومُ

● العزلة والاغتراب:

والواقع أن الأَحْنَف كان مسالماً في دعوته إلى نقد أهل عصره، لهذا ظلت اعتراضاته في إطار الحوار والنصيحة، دون أن تتجاوز ذلك إلى مستوى العنف، أو التمرد والرغبة في التشفي والانتقام، ومن هنا كان يؤثر الوحدة والعزلة في لحظات اليأس والانسحاب(٨٣):

أرُوْغُ عـن كُـلِّ ضِدٍّ لي يُخَالِفُني ... جَهْدي، ويَتْبَعُني في كُلِّ أوْطَانِـي

فَصِرْتُ قَسْراً أُلاقي مَنْ يُبَاغِضُني ... بمـا أُلاقي بهِ أهلي وإخْوَانِـي

وهو يرد على انتقادات أهل عصره له، وتشهيرهم بفقره وخصاصة حاله، بأن العاهة ولدت لديه القناعة والرضى بالقليل(٨٤):

إذا مَـا عَابَنَـي أبْنَاءُ جِنْسي — بنَقْصِ الحَظِّ والكَسْبِ الضَّعِيفِ
وزادُوا في التَّرفُّعِ، واستطالوا — بطِيْبِ العَيْشِ عن تَرَفٍ وريفِ
بَسَطْتُ لديهمُ بالضَّعْفِ عُذْري — وعَجْـزي بالقَنَاعةِ بالطَّفيْـفِ

فلا عجب أن مال الأحْنَف إلى حياة الانزواء وآثر الارتحال، ووجد في الغربة سبيلاً للراحة والخلاص مما يعاني، ويشكو من أذى القول واللسان(٨٥):

ألِفْـتُ الـتَّغرُّبَ والغُـربَهْ — ففـي كُـلِّ يـومٍ أخَا تُربَهْ
فـيومٌ مُقِـيْمٌ علـى نِعْمَةٍ — ويَـومٌ مُقِـيْمٌ علـى نَكْبَهْ

وقد دفعه اليأس من الناس، والحذر من مخالطتهم إلى الانتقال من أرض إلى أخرى، والاستئناس بوحوش البراري وحيواناتها، لأنها تحفظ الودَّ، وتعذر ممن يأنس إليها، فيقول(٨٦):

كَـمْ صَاحِبٍ صَاحَبْتُهُ في التُّقَى — أسْـكَنْتُهُ مَسْـكَنَ أنْفَاسـي
غَـيَّرهُ مـن بَعْدُ ودِّي لـهُ — ووُدُّه شِـدَّةُ إفْلاسـي
لمَّـا رَأيْـتُ الـنَّاسَ قد وكلُّوا — بالمَكْـرِ والحِـيْلَةِ والـبَاسِ
جَعَلْـتُ هِـرَّ البيْتِ لي مُؤنِساً — وصَـاحِباً مـن دُوْنِ جُلاسـي
سَـلِمْتُ مـن أخلاقِـهِ دائمـاً — وكـمْ تأذَّيْـتُ مـن الـنَّاسِ

وهكذا أصبحت العزلة والغربة فلسفة يؤمن بها الأحْنَف ويدعو إليها بعدما يئس من إصلاح الأمور واستقامة أخلاق الناس من حوله(٨٧):

أقْلِـلْ مـن الخُلْطـةِ للـنَّاسِ — وَعـارِضِ الأطْمَـاعَ بالْـيَاسِ
واحـذَرْ بنـي آدمَ وأْنَسْ إلى — مَنْ شِئْتَ من وَحْشٍ ونَسْنَاسِ

وقد بلغ به الأمر أنه صار يحسد حشرات الأرض ودوابها، التي تجد من تسكن إليه من جنسها وإلفها، في حين أنه عاش وحيداً معزولاً عن الناس، فقال[٨٨]:

العَنْكَـبُوتُ بَنَـتْ بَيْتاً على وَهَنٍ   تَـأْوي إلـيهِ، ومَالي مثْلُه وَطَنُ
والخُنْفسَـاءُ لها من جِنسها سكَنٌ   ولـيسَ لي مِثْلَها إلْفٌ، ولا سكنُ

وقد صاغ تجربته في الحياة والناس، من خلال قناعته الذاتية بأن في عزلة المرء عن الآخرين راحة للبال والضمير، وكسباً للسلامة من شرور الناس وعداواتهم، فقال[٨٩]:

مَـنْ أَرَادَ المُلْـكَ والـرَّا   حَـةَ مـن هَـمٍّ طَوِيْـلِ
فليَكُـنْ فَـرْداً مـن الـنَّا   سِ ويرضـى بالقَلـيْـلِ
ويُـدَارِي مَـرَضَ الوَحْـ   ـدةِ بالصَّـبْرِ الجَمِـيْـلِ
يَلْـزَم الصَّـمتَ فإنَّ الصَّمْـ   ـتَ تهذيـبُ العُقُـولِ
أيُّ عَـيْشٍ لامـرِئٍ يُصْـ   ـبِحُ فـي حَـالٍ ذليْـلِ
بيـنَ قَصْـدِ مـن عدوٍّ   ومُـدَاراة جَهُـولِ
واغْـتِلالٍ مـن صَـديقٍ   وتَجَـنٍّ مـن مَلُـولِ
ومُمَـاشَـاةِ بغـيْـضٍ   ومُقَـاسَـاةِ ثَقِـيْـلِ
واحتراسٍ من ظُنُونِ السُّوْ   ءِ أوْ عَـذْلِ عَـذُولِ
أُفٍّ مـن مَعْـرفةِ الـنَّا   سِ علـى كُـلِّ سَـبيْـلِ

وقد بلغ به الأمر في نهاية المطاف، أن أوصى عند موته أن يدفن في أرض بعيدة عن الناس، لأنه عاش غريباً فيهم، فهو يطمح أن يدفن وحيداً، بعيداً عن مقابر الآخرين، لعله ينعم بالسكون وهدوء النفس والاستقرار[٩٠]:

احفِـرُوا ليْ قَبْراً إذا مِتُّ في الأرْ ... ضِ بَعِـيداً عــن ضَجَّةِ الأصْواتِ
واكتُـبوا في صَحِيفةٍ عندَ رأسي ... بَعْـد دَفْنــي فــي حُفْرتي ووَفاتي
يــا غَريباً قد عاشَ ما عاشَ فَرْداً ... وخَلــيّاً مـــن زَوْجـــةٍ وبَــنَاتِ
وكَــذَا قــد دُفِنْتُ في الأرْضِ نَفْياً ... مُفْــرَداً مـــن مَقَابــرِ الأمْـــواتِ

● النقد السياسي:

وبالرغم من عزلة الأَحْنَف، وابتعاده عن معاشرة ذوي الشأن والسلطان في عصره، فإنه كان قريباً من دائرة الأحداث التي يعيشها المجتمع، وعلى دراية كافية بالأوضاع التي تعيشها الدولة، وما يحدث فيها من صراعات بين الخلفاء وقادتهم، وبين الحكام والولاة، وما تركه ذلك من انعكاسات خطيرة على أوضاع الناس وأحوالهم، حيث انعدم الأمن، ودبَّ الفساد، وضاع الحقُّ، مما جعل الشرائح الاجتماعية وخاصة الشعبية، تدفع ضريبة تلك الصَّراعات، وتتحملُ أوزارها، ونتائج منعكساتها.

وقد وصف العُكْبري الأوضاع الإدارية والسياسية، وما نشأ من فوضى وخلافات من تنازع على السلطة، وتقاسم النفوذ بين الخليفة العباسي الفَضْل بن جَعْفَر الملقب بالمطيع، وبين بختيار بن معز الدولة البُويهي، الذي تحكم بشؤون الخلافة، وصار صاحب الكلمة النافذة، والرأي الذي لا يُردُّ، فقال(٩١):

أَمِــيرُ المُؤمنيـــنَ بِــلا إمَـــارَه ... وصَـــاحبُ جَيْشِـــهِ خُلُـقُ العَيَاره
ولابــنِ قُــرَيْعَةَ القَاضِــي حَدِيثٌ ... تَصَــفْعَنَ وهــو أَبْــردُ من خِيَاره
وفــي قَاضِي القُضَاةِ عُيوُبُ سُوْءٍ ... تَمَغْــزَلَ واسْــتَحلَّ المَـالَ غَاره
وأمَّــا ذا الوزيــرُ فمِــن أوَانَـــا ... وحَسْــبُكَ إنْ فطِنْــتَ إلى الإشَاره
فــإنْ تُكــنِ الــوزارةُ فــي أوَانَا ... خَطَبْــناها لِشَــيْخِ بنــي حَــرَاره

وقُلْنا: يا بني إسْحَاق ضَرَّطاً   تَوَاضَعَتِ الإمارةُ والوزاره
وأشْرَاطُ القيامةِ قدْ تَوَافَتْ   وأعْطى الفَارةَ الهِرُّ الخُفَاره
وما بقِيَتْ من الآياتِ إلا   صُعُودُ الكَرْكَدَنُ على المَنَاره

ووصف العُكْبري الدسائس والخلافات التي عانت منها الدولة العباسية في عصره، وما أصاب الخلافة من ضعف تجلى في ضعف الوزراء، والقضاء، والمحتسبين، وكان مما يزيد في استفحال ذلك استمرار الصراع بين كبار الولاة، والقواد، ومن ذلك الصراع الذي شبَّ بين صاحب بغداد مُعزُّ الدَّوْلة البُوَيْهي وناصر الدَّولة الحَسنَ بن عبد الله بن حَمْدان التَّغْلبي صاحب الموصلِ، وكيف انعكس ذلك الصراع على أحوال الرعية التي تشكو الفقر، وتعاني من الجوع فقال ساخراً(٩٢):

مُعِزُّ الدَّولةِ الوَهَنا   ء يُوْهُنها ويُفْقِرُها
ونَاصِرُها على وَجَلِ   يُزَجِّيها ويَحْصُرُها
فلا هُوَ مُؤيِسٌ منها   ولا الأَقْواتُ تُحدِرُها
ولا هذا بِقُوَّتِه   ولا ذَا بَعْدُ يَنْصُرُها
وأرْواحُ العِبادِ، الجُو   عُ نَحْوَ المَوتِ يَحْشُرها
لقد تَرَكَ الوُجوهَ الجو   عُ تَعْرِفُها وتُنكرُها
ولَيْسَ لها سِوَى الرَّحمـ   ـنِ بعدَ الكَسْرِ يَجْبُرُها

وينتقد العُكْبري الفساد الذي دبَّ في أعمال القضاة والمحتسبين الذين مال بعضهم إلى الثروة وجمع المال، وامتدت أيدهم إلى ثروة الدولة، وأموال الناس، فقال في أحد المحتسبين، الذين استغلَّ سلطته بما يعود عليه بالفائدة وارتكبوا المظالم(٩٣):

عَارضَـــنَي مُحتَسِـــبٌ بـــارِدٌ | فـــي كـــرْخِ بغـــدادَ بإبْكـــارِ
قَـــالَ: حَـــرَامٌ وقبـــيحٌ إذا | خاطبْـــتَ نِسْـــوَاناً بأخْـــبارِ
فقلْـــتُ: مـــا كسبُكَ أوْ ما الذي | تَقْـــتَاتَهُ مـــن نَفَـــلِ جـــارِ
فقـــال: أَجْبـــي النَّاسَ مُسترفداً | صُـــلْحَاً علـــى ظُلْـــمٍ وإضْرارِ
فقلْـــتُ: يـــا شَيْخُ أمَا تَسْتَحي | تُـــنكرُ مـــا تأتـــي بِمِقْـــدارِ
تَـــأكلُ سُـــحْتاً وحَـــرَاماً ولا | تُريدُنـــيَ جـــاركَ فـــي الـــنَّارِ

على أن للأحنف بشكل عام نظرات نافذة ورؤية دقيقة حلل بها طبيعة الفساد، الذي استشرى من حوله، وأدى إلى التباين الواسع بين طبقات المجتمع، التي أسرف بعضها في مظاهر البذخ واللهو والإنفاق، في الوقت الذي كانت تعاني فيه غالبية الناس من الجوع والخصاصة، فاستنكر الأَحْنَف هذا التفاوت الاجتماعي قائلاً[٩٤]:

تَـــرَى الفِتْـــيانَ كالذَّهَبِ المُصَفَّى | تَرَكَّـــبَ فَـــوقَ أثْقَـــالِ الـــدوَابِ
وكِيْســـي مـــنهُ خِلْـــوٌ مـــثلَ كفِّي | أمَـــا هـــذا مـــن العَجَـــبِ العُجَابِ

وقد مال الأَحْنَف إلى التورية في نقده السياسي عندما كان لا يتاح له أن يجهر بذلك، متخذاً من المنام، أو الرؤيا وسيلة فنية للتعبير عُمّا يريد أن يكشف عنه، من أشكال الاستغلال والنهب التي كانت إحدى أمراض مجتمعه، والتي أكدت كما أشرنا من قبيل إلى التفاوت المادي بين الموسرين من رجال الدولة وأعوانها، الذين استحوذوا على كل شيء، وبين المعدمين المحرومين فقال[٩٥]:

أُرِيـــتُ فـــي الـــنَّومِ دُنيانا مُزَيَّنةً | مثلَ العَرُوسِ مَشَتْ بينَ المقاصيرِ
قـــد حُلِّيَتْ وهي تبكي في تَأَوُّهِها | بِكُـــلِّ مُعْـــتَقَدٍ عـــن سُـــوْءِ تأثِيرِ
تُومِـــي إلـــى كُلِّ حُرٍّ أنَّها طُوِيَتْ | علـــى مَكَارِهِـــه طـــيَّ الطَّوامِيرِ
فقلْتُ: جُودي، فَقَالَتْ: لي وقد حَسَرَتْ | إذا تَخلَّصْـــتُ مـــن أيدي الخَنَازِيرِ

والواقع أن الأحنَف أدرك برؤيته السياسية أن سبب معاناة الناس في عصره إنما يرجع إلى سوء التدبير، واستفحال الصراعات، وضعف ولاة الأمور، الذين كانوا في انصرافهم إلى كسب المنافع بعيدين عن معالجة أمور الناس من حولهم، فقال واصفاً إياهم بالغفلة والعجزُ عن تُدبر شؤون الحكم والرعية(٩٦):

قَـال: رُؤْيَـا المَـنَامْ عِنْدَكَ حَقٌّ   قُلْـتُ: هَـيْهَاتَ، كُـلُّ ذَاكَ بُخَارُ
لَيْـتَ يَقَظَـاتَهم يَصِحُّ له الأمْـ   ـرُ فكَـيْفَ المُغِـطُّ والـنَّخارُ؟

وعندما يئس الأحنَف من قدرة ذوي الشأن على إصلاح الأمور توّجه بالنَداء إلى الله عسى أن يكشف الكرب عن الناس، وينقذهم مما هم فيه من محنة وجوع فقال(٩٧):

يـا رَبِّ أيْـنَ عَطَاؤكَ الجَزْلُ   ونَوالُـكَ المَعْهـودُ والفَضْـلُ
أضْـحَى العِـبادُ وأنتَ رازِقُهم   ولَـكَ الجَـلالُ، وحُكْمكَ العَدْلُ
هَلْكَـى بفَقْـدِ القُـوتِ مَالَهُمُ   وِرْدٌ سِـوَاكَ، دَهَـاهُمِ المَحْلُ
صَـرعى بـبَابِكَ يَسألونَ لَهمْ   فَـرَجاً وأنـتَ لِسُـؤْلِهم أهلُ
يَشْـكو إلـيكَ الطِّفْـلُ فاقَـتَهُ   وإلـيكَ يشْـكو جُوْعَهُ الكَهْلُ
يَـرْجُوكَ لا يَـرْجو سِواكِ لِمَا   قَـد ضَـلَّ فـيه الرَّأيُ والعَقْلُ
فاكشِـفْ بجَوْدِكَ صَرْفَ فاقتِنا   واحلُـمْ وإنْ أزْرَى بِنا الجَهْلُ

● الكدية والاستجداء:

وراء كدية الأحنَف واحترافه المسألة عوامل ذاتية وأسباب عامة، يمكن استخلاصها مما سبق، وفي مقدمتها: العاهة الجسدية، وكساد صناعة الأدب وتراجع مكانة الشعر، واختلال القيم(٩٨):

حَسْبي ضَجِرتُ من الأَدَبْ وَرَأَيتُهُ سَبَبَ العَطَبْ
وَهَجَرْتُ إِعْرابَ الكَلا مِ وما حَفِظْتُ مِنَ الخُطَبْ
وَتَرَكْتُ تفسيرَ المَعَا نِي وَهْوَ ديْوانُ العَرَبْ
ورَهَنْتُ ديوانَ النقا ئِضِ، واسترحْتُ من التَعَبْ
لا تَعْجبي يا هِندُ مِنْ قَوْلي فَمَا فيهِ عَجَبْ
إنَّ الزَّمانَ بِمَنْ تَقدَّ مَ في النَّباهةِ مُنْقَلِبْ
والجَهْلُ يَضْطهِدُ الحِجَى والرَّأسُ يَعْلُوهُ الذَّنَبْ

ويدفع الأَحْنَف عن نفسه لوم الآخرين، على احترافه الكدية وانخراطه في عالم المتسولين، حتى أصبح إمام الكدية في الشحذ والميزقة، وشيخ المكدين من بني ساسان(٩٩):

لا تَلُمْ لا مَنَى أطَالَ التَّعدِّي لَمْ يَرِدْ بالمَلامِ إذْ لام رُشْدي
قَالَ لي: أنتَ فيلسوفٌ حَيُولٌ عَالِمٌ كَيِّسٌ بِحَلٍّ وعَقْدِ
هَاتِ قُلْ لي: ولا تَقُلْ قَوْلَ زُوْرٍ لِمَ تُكْدِي؟ فقلْتُ من ضَعْفِ جَدِّي
قد طَلَبْتُ الغِنَى بكُلِّ احْتِيالٍ واحْتِرافٍ ما بينَ شامٍ ونَجْدِ
هَائِمٌ في القُرَى، أُكَدِّي وأَمْشِي مَنْ يَرَاني، يَقُولُ هَذا مُسَدِّي

وقد أشار الأَحْنَف إلى كديته كوسيلة لجمع الرزق، مادام العلم لم ينفعه في تحصيل ذلك، فقال(١٠٠):

وقد قَسَّمَ الله رِزْقي في البِلادِ فَمَا يَكادُ يُدْرِكُ إلا بالتَّفاريقِ
ولَسْتُ مُكتسباً رِزْقاً بفلسفةٍ ولا بِشِعرٍ، ولكنْ بالمَخَارِيقِ
والنَّاسُ قد علموا أنّي أخو حِيَلٍ فلسْتُ أنفقُ إلا في الرَّسَاتِيقِ

ويصف العُكْبري في أكثر من قصيدة وسائله في الاحتيال والمكر، ومخرقاته في عالم التسول وابتداع العلل وابتكار العاهات، والادعاء بمعرفة الطالع وقراءة البخت، وكتابة العطوف فيقول بأنه(١٠١):

مُـنَجِمٌ شَـاعِرٌ لَـــه هِمَمٌ   نيطَــتْ بــبَهْرامِهِ وكِيْوانِهِ

ويضيف أنه ينتقل بين القرى والرساتيق، يقرأ للنساء البخت، ويصف ما يلاقيه من سبابهن حين تكذب الأيام مخرقاته وأكاذيبه فيقول ساخراً(١٠٢):

وخَضَعْتُ فِـي طَلَبِ المَعَا   شِ لكـلِّ حَانِـيَـةٍ مُسِنَّهْ
أدْعُـو النِّسـاءَ إلى النُّجومِ   مُبشِـراً بـبُخُـوْ تِهِنَّــه
يَأخُـذْنَ عَنِّـي مِنَ الـذي   سَـخِنَتْ عليه عيُـونُهنَّه
فـإذا رَجِعْـتُ ولـم يكُـنْ   مـا قُلْـتُ فيمـا نَالـهُنَّه
يَشْـتُمنني بِجُنُـونِهُـــنَّه   سَـــفَـاْهَةً وأســبُـهُنَّه

ويعترف العُكْبري أنه لا يحسن معرفة علم الفلك ولا يتقن صناعة التنجيم، ولكنه يمخرق بذلك طلباً للرزق، وأنه لا يؤمن بالتنجيم، وما كان ليتعاطاه لولا الفاقة وكساد العلوم(١٠٣):

مـا تَكَسَّـبْتُ بالتَـنَجُّمِ حـتَّى   صَـارَ طَوْعُ الأيامِ غَيْرَ مُطِيعِ
حِيْـنَ رَثَّـتْ حَـبَائِلُ المَجْـدِ   ـــملَ أهْـلُ الزَّمانِ كُلَّ فظيعِ

ويعترف الأحنَف أن الكدية أصبحت مصدر رزقه، وأن الناس يشاركونه هذه المهنة (١٠٤):

قَـدْ كَانَـتِ الكُدْيَـةُ إقْطَاعـي   فاستَغْصَـمَ الـنَّاسُ بأطْباعـي
قَنِعْـتُ مُضطَرّاً لضَعْفِ القُوَى   عـن نَـيْلِ ما يُدْرِكُهُ السَّاعي

كما يعترف بانخراطه في عالم الشحاذين ومخالطة فئاتهم، وإتقان لغتهم الاصطلاحية، والسكن في مصاطبهم وأماكن سكناهم ولهوهم، وأنه عاش حياة المكدين بكل ما فيها من جنوح وخصوصية، وافتخر بنسبته إلى عالم المتسولين وانتمائه إلى بني سَاسان[١٠٥] الذين تعددت الاجتهادات في تحديد شخصية سَاسان هذا، والذي يبدو عليه الأمر أنه شخصية غامضة، نسب إليها أصحاب المهن والحرف، وكل من يبتدع أنواع الحيل ويبتكر فنون العاهات، ليكسب المال، ويفوز به بالمخرقة والخديعة والاحتيال[١٠٦]:

علـى أنّـي بِحَمْـدِ اللّـــ	ـــهِ في بَيْتٍ من المَجْدِ
بِفَخْـــري ببنَـــي سَاسَـــا	نَ أهْــلِ الشُّــكْرِ والحَمْــدِ
مُلــــوكٌ لهُــــمُ الأرضُ	فمــن غَــوْرٍ إلــى نَجْــدِ
هــم السَّـــادةُ والـــذَّاد	ةُ أهْــلُ الحَــلِّ والشَّــدِّ
بَهَالــــيلٌ مَحَـــاويلٌ	مَعَـادِيـلٌ عــن المُكْـدي
لهُــم أرضُ خُرَاســـانَ	وَقَاســـانَ إلـــى السُّـدِّ
إلـــى السَّـــاحِلِ فالـــزَّاب	ـــجِ والسِّـنْدِ إلى الهِنْـدِ
إلـــى الشَّـــاماتِ والمَاهــا	تِ فــي قُــرْبٍ وفي بُعْـدِ

وللأحنف أكثر من قصيدة ضمنَّها ألفاظ المكدين الاصطلاحية، من بينها: قصيدته الدالية السابقة وثلاث قصائد أخرى، واحدة منها في رثاء المُشيِّع الكَسَّاح، ويبدو أنه من بهاليل المكدين، وأخرى في رثاء القاضي ابن دراج، وله قصيدة في الكدية يصف فيها علاقات المكدين وتجوالهم ومعاناتهم جاء فيها[١٠٧]:

إذا مَرِضْتُ فعُوّادي مَيَازِقَةٌ   أوْلادُ ساسانَ أهْلُ الضُرِّ والعَجَفِ
إنّي وطائفةً منهم على خُلُقٍ   مِنْ كُلِّ مُمْتَحنٍ يَنْمَى إلى سَلَفِ
هُمُ الصّعاليكُ إلا أنَّهم عَدَلُوا   عن السِّلاحِ إلى الأخبْارِ والنُّتَفِ
مُشرَّدونَ حَيارى في مَعَايِشهمْ   ليْسَ الفقيرُ من الدُّنيا بمُنْتَصِفِ
النَّاسُ في الحَرِّ في خَيْشٍ وفي نِعَمٍ   ونحنُ في الحَرِّ في القِيْعانِ كالهَدَفِ
يُسقَونَ في الخَيْشِ بالموزُونِ إنْ عطشوا   ماءَ الثُّلوج وماءَ المُزْنِ في لُطَفِ
ونحنُ نَشْرَبُ ماءَ السَّجْلِ مِن عطشٍ   شِرْبَ الكِلابِ بلا كُوزٍ لمُغْتَرِفِ
فإنْ سكنّا بيُوتاً فهي مُقْفِرةٌ   أو في المَسَاجِدِ أو في غَامِضِ الغُرَفِ

ولعلنا مما سبق نقول: إن الأَحْنَف شاعر صور لنا عصره ومجتمعه في صورة دلت على اختلال القيم واختلاط المعايير، واضطراب الأوضاع العامة، وتراجع مكانة الأدب والأدباء، وجنوح طائفة منهم تحت وطأة الحاجة والمعاناة إلى امتهان الكدية، والمخرقة والتظاهر بالتحامق والجنون.

وبالتالي فقد جسد في شعره، مساحة واسعة للشكوى الذاتية والنقد الاجتماعي، الذي لامس تشخيص الأسباب، وحددها في رؤية نافذة، كانت على قدر واسع من التحليل الفكري والسياسي.

والواقع أن الأَحْنَف كان شاعراً من طبقة أبي الشّمقمق وأبي العَيْناء، وأبي فِرْعَون السَّاسيّ العَدَوي، وأبي المُخَفِّف، وأبي دُلَف الخزرجي، وابن سُكَّرة الهَاشمي، وابن الحَجَّاج، وجَحْظَة البَرْمَكي وغيرهم من الشعراء[١٠٨]، الذين مثّلوا أدب القاع الاجتماعي، وصوت التذمر والشكوى، فكانوا بأدبهم الشعبي هذا قد رسموا صورة الوجه الآخر للحياة في المجتمع العباسي، كما مثّلوا تيار الأدب غير الرسمي، الذي حفل

بتصوير مكابدات المعدمين، واعتراضات المسحوقين والمنبوذين، التي نقلها إلينا أولئك الشعراء بعفوية مباشرة، وأحاسيس صادقة، من خلال أنماط القصائد القصيرة، والنتف والمقطعات الشعرية، التي كانت تدور في أكثر الأحيان حول موضوع محدد، أو فكرة عابرة، يتناولها الشاعر المكدي من مشاهداته اليومية، وتجاربه الذاتية، ويسوغها بإيقاعات خفيفة وأوزان مجزوءة، ومفردات وصور مستمدة من بيئة العامة، وقاموس الحياة الاجتماعية والشعبية آنذاك.

هوامش الفصل الثالث

١- يتيمة الدهر: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة دار السعادة: مصر ١٩٥٦، ١٢٢/٣.

٢- يتيمة الدهر: الثعالبي، ١٢٢/٣.

٣- تاريخ بغداد: أبو أحمد بن علي الخطيب البغدادي: مطبعة الخانجي، القاهرة، والمكتبة العربية، بغداد، ١٩٣١، ٣٠١/١٢.

٤- ديوان الأحْنَف العُكْبري - تحقيق سلطان بن سعد السلطان، الرياض، ط١، ص ٣٥٣، ثفت: بنت وأقامت، وخندف: إمرأة من قضاعة.

٥- ديوانه ص ٢٦٥، الأنباط: قوم تسكن سواد العراق، الدسكرة: القرية، ديرقنى: دير قرب بغداد، وسابور: من ملوك فارس.

٦- معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٤٢/٤.

٧- لسان العرب: ابن منظور مادة حنف.

٨- ديوانه ص ٤٩٥.

٩- ديوانه ص ٣٩٥.

١٠- ديوانه ص ٣٧٢، والموق: الحمق والغباء.

١١- ديوانه ص ٣٥٨.

١٢- ديوانه ص ٣٩٦، والكاغد: الورق والقرطاس.

١٣- ديوانه ص ٢٣٩.

١٤- ديوانه ص ٣٧٦.

١٥- ديوانه ص ١٩٩.

١٦- ديوانه ص ٣٨٨.

١٧- ديوانه ص ٢٠٩، والشلندي: مركب يحمل فيه للعتاد والرجال، وقد يكون من العامي أو المعرب.

١٨- ديوانه ص ٢٠٥.

١٩- ديوانه ص ٢١٠، والسخل: ولد الشاة الذكر أو الأنثى.

٢٠- تاريخ بغداد ١٠٣/١٢، المنتظم:جمال أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق عبد العزيز مطر، دار المعرفة، مصر ١٣٥٨هـ، ١٨٥/٧، والبداية والنهاية: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير، مكتبة المعارف بيروت، ط١، ١٩٦٦، ٣١٨/١١.

٢١- ديوانه ص ٣٩.

٢٢- الأدب في ظل بني بويه: محمود غناوي الزهيري، مطبعة الأمانة، مصر،١٣٦٨ هـ- ص ٢١٧.

٢٣- ديوانه ص ٢٤٦، وغرار السيف: حده وشفرته.

٢٤- ديوانه ص ٣١٠، وكيوان: كوكب زحل، والحرض: المرض والهلاك.

٢٥- ديوانه ص ١٣٨.

٢٦- ديوانه ص ١١١.

٢٧- ديوانه ص ٢٦٦.

٢٨- ديوانه ص ٥٠٧، والضوى: الضعف والهزال.

٢٩- ديوانه ص ١٥٩.

٣٠- ديوانه ص ١٩٩، زكا الرمل: كثرته في العدد والزيادة.

٣١- ديوانه ص ١٩٧.

٣٢- ديوانه ص ١٤٧.

٣٣- ديوانه ص ٤٩٢.

٣٤- ديوانه ص ٥٢٨.

٣٥- ديوانه ص ١١٥.

٣٦- ديوانه ص ٣٠٦.

٣٧- ديوانه ص ١٠٩.

٣٨- ديوانه ص ١١٣.

٣٩- ديوانه ٣٩٥.

٤٠- ديوانه ص ١٤٤.

٤١- ديوانه ص ١٦٥.

٤٢- ديوانه ص ٣٢٤.

٤٣- ديوانه ص ٣٨٤.

٤٤- ديوانه ص ٢٠٧.

٤٥- ديوانه ص ٢٠٠.

٤٦- ديوانه ص ١١٨.

٤٧- ديوانه ص ٢٢٩.

٤٨- ديوانه ص ١١٩، الوسط: الوجع والمرض.

٤٩- ديوانه ص ٢٧٢.

٥٠- ديوانه ص ١٥١.

٥١- ديوانه ص ٤٥٣، والجلال : الضرب الموجع والشديد.

٥٢- ديوانه ص ٢٩٥.

٥٣- ديوانه ص ١٦٩.

٥٤- ديوانه ص ٤٢٨.

٥٥- ديوانه ص ٣٣٧.

٥٦- ديوانه ص ٣٣٦.

٥٧- ديوانه ص ٩٩.

٥٨- ديوانه ص ٩٨.

٥٩- ديوانه ص ٩٥.

٦٠- ديوانه ص ١٠٣، الكيِّس: الحذق والفطن من الرجال.

٦١- ديوانه ص ١٧٦.

٦٢- ديوانه ص ١٣٣.

٦٣- ديوانه ص ١٣٣.

٦٤- ديوانه ص ١٤١.

٦٥- ديوانه ص ٢٤٩.

٦٦- ديوانه ص ١٠١، والحُرف: الفقر والحرمان.

٦٧- ديوانه ص ١٩٥.

٦٨- ديوانه ص ٢٥٢.

٦٩- ديوانه ص ١٨٧، والحوايا: الأمعاء.

٧٠- ديوانه ص ١٧٣.

٧١- ديوانه ص ٢٢٣.

٧٢- ديوانه ص ٢٦٤.

٧٣- ديوانه ص ٢٨٣.

٧٤- ديوانه ص ١١٧.

٧٥- ديوانه ص ١٢٩.

٧٦- ديوانه ص ١٣٩.

٧٧- ديوانه ص ٢٥٠.

٧٨- ديوانه ص ٥٣٠.

٧٩- ديوانه ص ١٩١.

٨٠ - تاريخ بغداد ٣٠١/١٢.

٨١ - ديوانه ص ٢١٠.

٨٢ - ديوانه ص ٤٦٩، أروغ: أهرب وأتحاشى.

٨٣ - ديوانه ص ٥١٨.

٨٤ - ديوانه ص ٣٦٥.

٨٥ - ديوانه ص ١٢٣.

٨٦ - ديوانه ص ٣٠٠.

٨٧ - ديوانه ص ٢٩٢.

٨٨ - يتيمة الدهر: الثعالبي ٢٢٧/٣، وخاص الخاص: الثعالبي، القاهرة ١٩٠٩، ص ١٣٦، والتمثيل والمحاضرة: الثعالبي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء التراث، القاهرة، ١٩٦١ ص ٣٧٩.

٨٩ - ديوانه ص ٤١٣.

٩٠- ديوانه ص ١٤٢.

٩١- ديوانه ص ٢٢٢.

٩٢- ديوانه ص ٢٨٠.

٩٣- ديوانه ص ٢٥٧.

٩٤- يتيمة الدهر ٣/١٢٤، العقيان: الذهب الخالص، والأثفار: جمع ثفر، وهو السير الذي في مؤخرة السرج.

٩٥- ديوانه ص ٢٥٣، يتيمة الدهر ٣/١٢٣، خاص الخاص ص ١٣٦، والمقاصير: جمع مقصورة، وهي الدار الواسعة المحصنة.

٩٦- يتيمة الدهر ٣/١٢٤.

٩٧- ديوانه ص ٤٥٤.

٩٨- ديوانه ص ١١٠.

٩٩- ديوانه ص ١٨٠ ، و تاريخ بغداد ١٢/١٠٣.

١٠٠- يتيمة الدهر ٣/١٢٣، الرساتيق: مفردها: رستاق، ورزداق، كلمة فارسية معربة تعني القرى والأرياف.

١٠١- ديوانه ص ٥٠٧، وبهرام: المريخ، وكيوان: زحل.

١٠٢- ديوانه ص ٥٢٤.

١٠٣- ديوانه ص ٣٣٦.

١٠٤- ديوانه ص ٣١٩.

١٠٥- دائرة المعارف الإسلامية: ترجمة الشنتاوي والفندي وخورشيد، مصر ١٩٣٣،١١/٤٦، وأنظر أدب الكدية في العصر العباسي: أحمد الحسين، دار الحصاد، دمشق، ١٩٥، ص ٢٥.

١٠٦- ديوانه ص ١٥٩.

١٠٧- ديوانه ص ٣٥٧، العواد: زائرو المريض، والميازقة: الشحاذون والمتسولون.

١٠٨- أدب الكدية في العصر العباسي: أحمد الحسين، ص ٨٤-٨٨.

الفصل الرابع

أبو دُلَف الخَزْرجي جوّاب الآفاق

● مدخل إلى عالم الخَزْرجي:

بادئ ذي بدء لا بدّ من الاعتراف، بأن معلوماتنا عن حياة أبي دُلَف الخَزْرجي لا تسمح لنا بتكوين صورة واضحة، تجلو ما يلف سيرته الشخصية من غموض وإبهام، وبالرغم من شح المصادر وقلة المعلومات، فإن ما بين أيدينا من نتف الأخبار والإشارات المتفرقة، يجعلنا نقف على مراحل متباعدة في حياته، قلما تترابط أحداثها أو تنتظم.

اسمه: مِسْعر بن مُهَلْهِل الخَزْرجي اليَنْبُعي أو اليَنْبُوعي، ومن ظاهر سياق الاسم والنسبة يبدو أنه ينتمي إلى قبيلة الخزرج، وينسب إلى مدينة ينبع المعروفة، وقد دفعت طبيعة اسم أبي دُلَف ونسبته أكثر المستشرقين الذين كتبوا عنه إلى القول: إنه شاعر عربي من ينبع، وهي مدينة تقع في السعودية على البحر الأحمر(١)، ولكن المشكلة التي لا يمكن تخطيها بسهولة تتمثل بجهلنا المراحل الأولى من سنوات حياته، فنحن لا نعرف شيئاً عن طفولته، ولم يرد صراحة في شعره ذكر الخزرج أو ينبع.

وفي قصيدته الساسانية حنَّ أبو دُلَف إلى بلاده، دون أن يسميها لنا، وتمنَّى أن يرجع إليها بجيش قوي، مرهوب الجانب، عزيز الشأن، فيأمر وينهى(٢)، ولكن أي بلاد تلك التي كان يقصدها؟ هذا ما لم نعرفه، مما يجعلنا نتساءل إذا كان أمره على هذا النحو أليس من المستغرب أن يبقى شأنه مجهولاً، وسيرته مطوية؟.

وقد استنتج العديد من المستشرقين والدارسين العرب، الذين تناولوا سيرة أبي دُلَف ونسبته بأنه عربي من قبائل الخزرج، معتمدين في ذلك على ما ورد في بطون المصادر العربية، وعلى طبيعة اسمه ونسبه، فهو كما أسلفنا: مسعر بن المُهَلْهِل، وهذه الأسماء ما تزال سائدة ومتداولة في شبه الجزيرة العربية، مما يرجح نسبته إلى مدينة ينبع من جهة، وقبيلة الخزرج من جهة ثانية، وقد كان الباخرزي الذي قتل سنة ٤٦٧هـ قد ترجم لأبي دُلَف في طبقة «شعراء البدو والحجاز»[٣] في حين أن الثعالبي صنفه في باب الشعراء الذين وفدوا على الصاحب من الآفاق[٤] دون أي تحديد آخر، وربما كان سبب ذلك ما يكتنف شخصية أبي دُلَف من غموض وغرابة.

وفي سيرة أبي دُلَف يبرز إشكال آخر فهو - كما تذكر المصادر - شاعر، وطبيب، ورحالة كيميائي، وعالم بخصائص الحشائش والمعادن والحجارة، ولكن تلك المصادر لا ترشدنا إلى أصول علمه، ومنابع ذلك العلم، ومراحل دراسته، وشيوخه الذين أخذ عنهم معارفه ذات الطابع الموسوعي الشامل.

ولو صح ادعاء أبي دُلَف بنُوَّةَ محمد بن زكَريّا الرَّازي (٢٥١-٣٢٠هـ) الطبيب المشهور من ابنته، لكان من الجائز أن نعد الرازي أستاذه في الطب، ولكن ابن العميد طعن في نسبته تلك، قائلاً[٥]: «وقد شاهدت محمداً، وما خلف بنتاً، ولو كانت له بنت، وولدت ابناً لم يكن أنت ذاك، للغوائل المجموعة فيك»، وهذا القول نورده للاستئناس به، إذ لا يمكن أن نأخذ به، لأن ابن العميد كما سنرى لاحقاً كان في موقف المتحامل على الخَزْرجي، وهذه الإشارة لم تقع في مصدر آخر.

- **في بلاد السامانيين والبويهيين:**

كان أبو دُلَف جواب آفاق، لا يستقر به مقام حتى يهجره إلى آخر، سُمِعَتْ أخباره في بخارى، وبغداد، والري، وشيراز، وبلاد الصين، والترك والهند.

وقد عُرِفَ عنه أنه كان يتردد على بلاد السامانيين، أصحاب خراسان، وما وراء النهر، حيث وفد على نَصْر بن أحمد السَّاماني «حكمه بين سنتي ٣٠١-٣٣١هـ» الملقب بالسعيد في أول وفادة عرفناها في حياة أبي دُلَف، وتذكر المصادر أن نصراً شمله برعايته، ويسَّر أمر رحلته المشهورة سنة «٣٣١هـ» إلى بلاد الصين.

ودون ترابط في الأحداث يلمع اسم الخَزْرجي في بلاد البويهيين الذين اشتدت شوكتهم منذ سنة ٣٢٠هـ، وملكوا بلاد فارس، ودخلوا بغداد سنة ٣٣٤هـ، وبلغت دولتهم ذروة اتساعها في عهد فناخسرو، الملقب بعَضُد الدَّولة «٣٢٤هـ ــ ٣٧٢هـ»، الذي ضم إلى حكم ولاية فارس مُلْكَ الموصل، وبلاد الجزيرة.

ورد ذكر أبي دُلَف في مجالس ثلاثة من رجالات الدولة، هم: عضد الدولة البويهي، وابن العميد، ثم الصَّاحب بن عَبَّاد الطَّالقاني، فقد ذكر لنا الثعالبي وقائع منادمة طريفة جرت بين الخَزْرجي وأبي علي الهائم، وقد ضمهما في شيراز مجلس أنس ومداعبة ومحاضرة ومذاكرة» فقال أبو علي لأبي دُلَف: صبَّ الله عليك: طواعين الشام، وحمى خيبر، وطحال البحرين، ودماميل الجزيرة، وسناقر دهستان، وضربك بالعرق المدني، والنار الفارسية، والقروح البلخية. فقال أبو دُلَف: يا مسكين، أتقرأ تبّت على أبي لهب، وتنقل التمر إلى هجر، وتلبس السواد على الشرط؟ بل صبّ الله عليك ثعابين مصر، وأفاعي سجستان، وعقارب شهرزور، وجرارات الأهواز. وصبَّ علي: برود اليمن، وقصب مصر، ودبابيج الروم، وخزوز السوس، وحرير الصين، وأكسية فارس، وحلل أصبهان، وسقلاطون بغداد، وعمائم الأبلة، وتوزي توج....، وأفرشني بسط أرمينية، وزلالي قاليقلا، ومطارح ميسان، وحصر بغداد، وأخدمني: خصيان الروم، وغلمان الترك، وسراري بخارى، ووصائف سمرقند، وحملني على: عتاق البادية، ونجائب الحجاز، وبراذين طخارستان، وحمير مصر، وبغال برذعة، ورزقني: تفاح الشام، ورطب العراق، وموز اليمن، وجوز الهند، وباقلاء الكوفة وسكر الأهواز، وعسل أصبهان....

وأشمَّني: مسك تبت، وعود الهند، وعنبر الشحر، وأترج طبرستان، وورد جور، وزعفران قم، وشاهسفرم سمرقند «فنشط عضد الدولة لمذاكرة الخَزْرجي، وأبدى إعجابه بسعة علمه، وحسن محاضرته بخصائص الشرق والغرب، وقال: «ملك يا أبا دُلَف، ينادم الملوك، وأمر له بخلعة وصلة»[٦].

ويلخص لنا كتاب ابن العميد «ت ٣٦٠هـ» خاتمة علاقة بينهما انقلبت فيها المودة بُغْضاً والمقاربة جفوة ونفوراً، وفي ذلك الكتاب عنف الوزير البويهي أبا دُلَف الخَزْرجي، ورماه بالعيوب والنقائص، إذ إنه كما يدَّعي لم يحفظ أواصر صحبته ، ولم يُوَدِّ حقوق خدمته، فقال: «الآن علمت، أيها الشيخ أنك لي مكايد، وإلى جميع ما أنهاك عنه مخالف، وعلى ديدنك المعروف ثابت، وبفضلة لسانك مسحور، وبشائع حلمي عنك مغرور، وليت ثقتك بذلك لا تخونك، وتطولي عليك لا يتطاول بك واغترارك بغيري لا يزلك.... ووالله ما أندب إلا حسن ظني بك، ومباهاتي أهل مجلسي بفضلك، وقولي: أبو دُلَف ، وما أدراك أبو دُلَف؟ لا تنظروا إلى هزله، فإن وراء ذلك جداً، وإن أردتم حقيقة ما أقول فافزعوا إليه في حوائجكم، فإنكم تجدونه في قضائها قبل إنهائها، وهو المرء الذي قد جمع الله له بين المنظر والمخبر، وبين الدعوى والبينة، وبين القول والحجة، وبين الضمان والوفاء، وبين الصداقة والشفقة، فما زلت أقول هذا، أو شبهه وأصحابي يشيعون بمثله في الظاهر، ويخالفونني بعلمهم في الباطن حتى كان الفلج لهم ساعة هذه، لأني احتجت إلى علمك فخنت عهدي، وأقبلت عليك، فأعرضت عني، ووهبت لك كلي، فبخلت ببعضك علي، ولقد استفدت بمعرفتك، تجنب مثلك»[٧]، وكان أبو دُلَف - كما يذكر التَّوحيدي - «قد قرأ ذلك وكتب شيئاً يرد به على افتراءات ابن العميد، لكنه لم يجسر على نشره خشية صولته ونكايته، واكتفى بالقول: إن كتاب ابن العميد يَنُمُّ عن "حقد رؤساء زمانه على الأتباع، وعدم معرفتهم حقهم في الخدمة والطاعة»[٨].

والواقع أن ما ذكره ابن العَميد لا يتفق وما أشارت إليه المصادر عن أخلاق أبي دُلَف ومواقفه من الصداقة والصديق، حيث نسب إليه على لسان أبي حيان التوحيدي قوله في معرض الرد على قوله الشاعر[٩]:

والله لا كُنْـتَ في حِسَابي ... إلا إذا كُنْـتُ فـي حِسَابكْ

فـإنْ تَزُرْنِـي أَزُرْكَ أو إنْ ... تَقِـفْ بِبَابِـي أَقِـفْ بِبَابكْ

فقال أبو دُلَف في معرض الرد على هذه المعاملة:

ما هذه الغلظة والفظاظة، وما هذه المكايسة والمصادفة، أفليس لو قابلك صاحبك بمثل هذا الأمر، وقف الأمر بينكما، وانتكث حبل المودة عنكما، ودبَّت الشحناء في طي حالكما؟.

وبوفاة الوزير ابن العَميد يظهر الخَزْرجي في حاشية الصَّاحب بن عَبْاد «٣٢٦-٣٨٥ هـ» «ويكثر المقام عنده، ويكثر سواد غاشيته، وحاشيته، ويرتفق بخدمته، ويرتزق في جملته، ويتزود كتبه، فتجري مجرى السفاتج في قضاء أوطاره»[١٠].

ولكن ما تخفى علينا معرفته أننا لا ندري كم مكث الخَزْرجي في بلاط الصاحب، فلم نقف له بعد ذلك على خبر، على أن ابن عبد المنعم الحميري يذكر لنا معلومة في غاية من الأهمية، أشار فيها إلى أن أبا الحارث أرسلان البَسَاسِيْري، وهو مملوك تركي سَمَا بنفسه إلى أن صار مشاراً إليه بين قواد الدولة العباسية، ثار سنة خمسين وأربعمائة على خليفة بغداد القائم بأمر الله، وأعلن خروجه عن الطاعة وانتماءه إلى المستنصر صاحب مصر، فخطب له في بلاد الرحبة على الفرات، وفي الموصل، ثم استولى على بغداد والرصافة، وظفر بالقائم بأمر الله، ولما كان يوم النحر من هذه السنة، ركب البَسَاسِيْري وعبر إلى المصلى من الجانب الشرقي، وعلى رأسه الألوية المستنصرية،

فصلّى وأنشده الشعراء، وكان فيهم أبو دُلَف الخَزْرجي الينبوعي المتشيّع، فوقف تحت البنود البيض وأنشد[١١]:

دارَ السَّــلامِ هَنيئــاً بِدَعَــوْة ابــنِ الرَّسَــولِ

جَــاءَ الــنَّهارُ وَوَلَّــى ظَــلامُ تِلــكَ الذُّحُــولِ

مــا إنْ رأيــتُ حصَــاناً حماـــه فــي النصــولِ

نُــورٌ مــن اللهِ سَــامٍ هَــادٍ، لِكُــلِّ خَــذَولِ

وقد أشار الثَّعالبي إلى عمر أبي دُلَف دون تحديد فقال: إنه «خنق التسعين في الإطراب، والاغتراب، وركوب الأسفار الصعاب»[١٢] وكان الاعتقاد السائد بين الباحثين الذين كتبوا عن أبي دُلَف من عرب ومستشرقين أن وفاته كانت دون سنة ٣٩٠هـ، استنتاجاً من عبارة الثَّعالبي السابقة، ومن تاريخ وفيات الأمراء والوزراء، الذين اتصل بهم، ومنهم: نصر بن أحمد السَّاماني، وعضد الدولة البيويهي، وابن العميد، والصَّاحب بن عباد، الذين كانت وفياتهم قبل سنة ٣٨٥هـ، وهو ما يمكن الاستئناس به أيضاً من وفيات الشعراء والكتاب، الذين التقاهم، كالأحنف العكبري، وابن النَّديم، وأبي حيَّان التَّوحيدي[١٣].

ولكن الخبر الذي ساقه الحِمْيَري عن حوادث سنة /٤٥٠/ هـ وظهور أبي دُلَف في موكب البُسَاسيري، يضعنا أمام مشكلة جديدة تتعلق بحياة أبي دُلَف، ومواقفه السياسية، ومشاركته في أحداث عصره، وكذلك الأمر فيما يخص تاريخ وفاته[١٤]، إذ من غير المعقول أن يمتد به العمر كل هذا الوقت إذا صحَّت الأخبار المنسوبة إليه، سواء في علاقته بملوك الدولة السامانية، أو ظهوره في بلاط البويهيين، كما مر بنا من قبل، وفي هذا السياق تظل هذه المفارقة قائمة دون أن نصل بها إلى رأي قاطع، ويقين راسخ.

- **شاعر التشرد والاغتراب:**

أبو دُلَف شاعر مرهف الإحساس، ذو عالم خاص، ولون طريف قال عنه الثعالبي: «شاعر كثير الملح والظرف... ضرب صفحة المحراب بالجراب في خدمة العلوم والآداب»(١٥).

ولكنَّ الحكم على شاعريته يكاد يكون متعذراً، فمن غير الممكن أن نستجلي ملامح شعره، ونكتشف خصائصه وسماته مادامت يد الضياع عبثت بأشعاره، ومازال ديوانه مفقوداً، ومن المصادر التي اطلعنا عليها تمكّنا من أن نجمع له /٢٥٢/ بيتاً شعرياً، هي الآن كل ما ترك هذا الشاعر المعذب بنار الاغتراب، والتجوال.

ويتكوّن شعره الذي جمعناه من أرجوزة وصفية، عدد أبياتها ٣١ بيتاً، ومن سبع مقطوعات قصيرة متنوعة الأغراض مجموعها ٢٦ بيتاً، ومن قصيدة رائية طويلة تسمى القصيدة الساسانية اختار منها الثعالبي في يتيمة الدهر: ١٩٥ بيتاً.

والمتأمل في شعر أبي دُلَف لا بدَّ أن يكتشف ارتباط هذا الشعر بحياته وتجاربه الشخصية، فشعره مجموعة آراء وأحاسيس، تنطلق من وجدان إنسان لم تعرف حياته نعمة الهدوء وراحة الاستقرار، ولهذا نجده يكثر من وصف غربته، وتطوافه من بلد إلى آخر كما يقول(١٦):

وقــد صَــارتْ بــلادُ اللــ	ــــهِ في ظَعْنِي وفي حِلِّي
تَغَايَـــــرْنَ بلَبْثِـــــي و	تحَاسَــدْنَ علــى رَحْلِــي
فَمَــــــا أنـــــزِلُها إلا	علــى أُنْـسٍ مِــنَ الأهْـلِ

وقد استخدم أبو دُلَف الهجاء إما رداً على هجاء بعض الشعراء له، أو انتقاماً من بعض الولاة والكتاب، الذين قصروا في الاستجابة لطلباته.

ومن ذلك أن الشاعر محمد بن علي الملقب بالسُّلامي، وكان من طبقة أبي دُلَف، وممن اتصل بعضد الدولة والصَّاحب بن عباد، قد تعرّض يوماً لأبي دُلَف، فانتقص من قدره ومكانته، وسخر من شاعريته وادعائه بمعرفة الطب والفلك والتنجيم، فقال(١٧):

قَــالَ يَوْمــاً لــنا أَبُــو دُلَف أبــ ـــــــردُ مَنْ تَطْرقُ الهُمُوْمُ فُؤَادَه
ليَ شِعْرٌ كالماءِ، قُلْتُ أَصَابَ الشَّــ ـــــيْخُ، لكـــنْ لفظُـــهُ بـــرّادَه
أنـــتَ شـــيْخُ المُنجِّميـــنَ ولَكِـــنْ لَسْــتَ فــي حُكْمِهم تَنَاْلُ السَّعادَه
وطبيـــبٌ مُجـــرَّبٌ، مالَهُ مِنَ الحَذْ قِ فـــي كـــلِّ مَـــنْ يُجـــرِّبُ عَادَه
مَــرَّ يومــاً إلى مَرِيْضٍ فقلْنا قرَّ عَيْـــناً، فقـــدْ رُزِقْـــتَ الشَّـــهادَه

فردَّ عليه أبو دُلَف بهجاء مُقذعٍ يذكره بصحبتهما في الري وبغداد فقال(١٨):

ظلَّ السُّلاميُّ يهجوني، فقلْتُ لـــه حبيبُ قلبي، ومعشوقي وأستاذي
إن لــم تكن ذاكراً بالرَّي صحبتنا فاذكـــر ضراطك من تحتي ببغداذِ

وكان أبو دُلَف قد سأل كاتباً بالدينور يُدعى المِشْقَّاع قضاء حاجة له، فلما أهمل المشقاع تلك الحاجة، وتجاهل أمرها رماه الخَزْرجي بسهام هجائه اللاذعة قائلاً(١٩):

يَامَـــنْ يُسَـــائِلُني عَـــنِ المُشْقَاعِ قَــدْ ضاعَ شِعْري عنْدَهُ، ورِقَاعي
كاتِبـــتُهُ فـــي حاجـــةٍ عَرَضَتْ لنا فكأنَّنـــي كاتبْـــتُ وَخْـــشَ القَـــاْعِ
نِعْـــمَ الفَـــتَى، لـــو لم تَكُنْ أخلاقُهُ ممـــــزوجَةً بَـــــتَوَابِلِ الفُقَّـــاعِ
أنـــا مـــثلُهُ فـــي جِنْسِهِ من طَرْزِهِ إنْ لـــم أضـــرِّطْهُ علـــى الإيْقَـــاعِ

علـــى أن أبا دُلَف في مواضع أخرى كان يترفَّع عن هجاء بعض الأشخاص لأســـباب خاصة، فيتجاوز الهجاء إلى اللوم والتقريع الشديدين، ومن ذلك أن أمراً ما

وقــع بيــنه وبين أبي عبد الله العلوي، وبلغه أنه انتقص منه بحديث لا يرضاه، فما كــان منه إلا أن خاطب أبا عبد الله مكتفياً منه بالمعاتبة، احتراماً لقرابته من رسول الله وآل بيته، فقال(٢٠):

لَــولا النَبـــيُّ مُحَمَّــدٌ ووصـــيُّــهُ ثــمَّ البَــتُولُ
لَعلِمْــتَ أنـــيَّ شَــاعرٌ اســمُ الــرِّجَالَ بمــا أَقَولُ
لكنَّنـــي أعْرَضْـــتُ عـــن ذَاكَ الحَدَيْــثِ وفــيه طُولُ
وتَركْــتُ للخمْــرِ الخُمَــا رَ وحــبَّذا تلــكَ الشَّــمُولُ

ويُدخل في هذا الجانب انتقاده المبُطَّن للصَّاحب بن عباد، الذي كان الخَزْرجي يخالفه الرأي في قضايا الجَبْر، دون أن يجسر على هجائه خوفاً من سطوته، فاكتفى من ذلك بنوع من التعريض والاستغراب غير المباشر، فقال(٢١):

يــا ابــنَ عَــبَّادِ بــنِ عبَّا سِ بــنِ عــبدِ الله جِــرْها
تُــنكِرُ الجَــبْرَ، وقــد أَذْ خِلْــتَ فــي العَــالمِ كُرْها

وفي ضوء ما هو بين أيدينا، لا يمكننا أن نبني صورة وافية عن شعره المدحي، إذ لم تصلنا له سوى أربعة أبيات تضمنتها أرجوزته في موت برذون أبي عيسى بن المُنْجِّم بأصبَهان، وهي أرجوزة تقع في واحد وثلاثين بيتاً، انتهى فيها الخَزْرجي بعد وصف ذلك البرذون، وتعزية أبي عيسى في مصابه بفقد برذونه إلى مديح الصَّاحب بن عباد، واصفاً إياه بالبذل والسخاء، وداعياً له بالعافية والبقاء فقال(٢٢):

قُــلْ لأبـــي عيْسَى، وما الإِسْهَابُ بِــــنَافعٍ تَـــمَّ لـــكَ الـــثَّوابُ
والــرَّأيُ فـــي دَفْعِ الرَّدَى صَوَابُ فَاسْــكُنْ، فهــذا الصَّاحبُ الوَهَّابُ
شِـــمْيَتهُ السَّـــخاءُ والإيْجَـــابُ فـــي جُــودِهِ، وفَضْـــلِهِ مَــنَابُ
آلاؤهُ لـــيسَ بهـــا ارتِــــيابُ يَضِــلُّ فـــي إحْصَــائِها الحِسَابُ
لازالَ والدُّعَـــــاءُ مُسْـــــتَجابُ يَــبقَى لــنا، مــا بَقِـي الــتُّرابُ

وقد أتاحت له الأسفار الكثيرة أن يختبر طبائع الناس وأخلاقهم، فكان يشكو ما شاع بينهم من نوازع «الأنانية والتلون والتغيّر، وعبّر عن تبرّمه بما آل إليه شأن الناس من أهل زمانه واضطراب أحوالهم، واختلاف مشاربهم في عدة قصائد، وصف فيها زمنه المتقلب بلغة شاعرية تكشف عن معاناة قاسية وأسى دفين، فقال(٢٣):

وَيْحَكَ هذا الزَّمَانُ زُوْرُ | فَلا يَغُرَّنَّك الغُرُوْرُ
زَوِّقْ ومَخْرِقْ وكُلْ وأطْبِقْ | وَاسْرُقْ وطَلَبِقْ لِمَنْ يَزُوْرُ
لا تَلْتَزِمْ حَالَةً ولكِنْ | دُرْ باللَّيالِي كما تَدُوْرُ

كما يصف لنا حرمانه وإفلاسه، وما كان يمرّ به من ظروف صعبة فيقول(٢٤):

تَركْتُ اللحمَ للإفْلا | سِ والشِّدةِ والضِّيقِ
ولو مَرَّ بِنا ماني | أكَلْناهُ على الرِّيقِ

ويذكر الخَزْرجي أنه كان يجاور أصحاب الغايات من أهل الدنيا والدين، ومن ذلك مقامات أبدال اللّكام، الذين كان يضرب فيهم المثل بالزهد والتقى والعبادة، وكان موضعهم في جبل اللكام في بلاد الشام، وهي منطقة تمتد إلى إنطاكية والمِصيِّصَة، ذات عيون عذبة، وأشجار كثيرة، فقال(٢٥):

وَجَاوَرْتُ المُلُوكَ، وَمَنْ يَلِيهِمْ | كَمَا جَاوَرْتُ أَبْدَالَ اللُّكَامِ

وفي بعض الحالات كان يقع ضرب من الالتباس في الشعر المنسوب إلى أبي دُلَف، خاصة عندما يذكر دون استكمال للاسم، فيقع من ذلك خلط بين أبي دُلَف الخَزْرجي، وأبي دُلَف العجلي، ومن ذلك ما أورده التوحيدي في نسبة الأبيات التالية إلى أبي دُلَف دون تمييز آخر، فقال(٢٦):

لَسْتُ لِرِيَحان ولا رَاحِ | ولا عَلَى الجِيْرانِ نَوَّاحِ
بَلَى إذا أبصَرْتني قَائماً | فَبينَ أسْيَافٍ وأرْمَاحِ
تَرَى فَتَى تَحْتَ ظِلالِ القَنَا | يَقْبِضُ أرْوَاحاً بِأرْوَاحِ

فهذه الأبيات مما يحتمل أن تكون للخزرجي أو للعِجْلي، وقد وقع ضحية هذا الغموض إبراهيم الكيلاني، فنسب الأبيات مرة للخزرجي، وفي مكان آخر للعجلي(٢٧).

وقد وقع الباحث محمد عبد المنعم خفاجي ضحية ذلك الالتباس الناجم عن الاشتراك في الكنية بين العجلي والخَزْرجي، فنسب ثلاث قطع شعرية إلى مسعر بن مهلهل دون أن يتحرى صحة نسبتها إليه(٢٨)، ومنها قطعتان في خمسة أبيات وردت في مختصر البلدان للهمذاني، يفخر فيها أبو دُلَف بشجاعته وكرمه ورجاحة عقله، وسكناه الجبال صيفاً، والعراق شتاء، إذ يقول في إحداهما(٢٩):

إنّـــي امــرؤٌ كَسْــرويُّ الفِعَالِ ... أصــيفُ الجِبَالَ وأشْتو العَراقَا
وألــــبَسُ للحَــــرْبِ أثوابَهــــا ... وأعْتِـــنقُ الدَّراعيْـــنَ اعْتــــناقَا

وقد وردت القطعة الثالثة في المصدر نفسه، وفيها يصف أبو دُلَف تمثالين متعانقين في تدمر إذ يقول(٣٠):

مـــا صُوْرتان بتدمرَ قد رَاعتَا ... أهْلَ الحِجَى، وجَماعةَ العُشَّاقِ
غَـــبَرا على طَولِ الزَّمانِ ومُرِّهِ ... لـــم يَسْـــأما مـــن أُلْفةٍ وعِنَاقِ
فَلْيرمِيَّـــنَ الدَّهـــرُ مـــن نَكباتِه ... شَخْصَـــيهمَا مـــنه بسَهمِ فِراقِ
وليبليـــنَّهما الـــزَّمان بِكَـــرِّهِ ... وتَعَاقــبُ الإظْــلامِ والإِشْراقِ

ولكن أبا دُلَف المشار إليه هو القَاسم بن عيسى العِجلي، وليس الخَزْرجي كما ظن الباحث خفاجي، ولو أنه تتبَع تلك الأبيات في المصادر الأخرى، لوجدها منسوبة بشكل صريح وقاطع إلى أبي دُلَف العجلي، لا كما ذهب إليه(٣١).

ولم يقف الأمر عند خفاجي عند هذا الخلط بين أبي دُلَف العجلي، وأبي دُلَف الخَزْرجي فحسب، بل وجدناه ينسب له قطعة في وصف دار، جاء فيها على لسان بعض الشعراء الغرباء(٣٢):

رَأيــــنا طَلْعَــــةَ الـــدَّارِ		شُموسَـــاً مـــعَ أقمــارِ
ولـــي مَسْــألةٌ أخـــرى		فَعَاجِلْنـــــي بإخْــــبار
بنيْـــتَ الـــدَّارَ فـــي دُنــيا		كَ أم دُنـــياكَ فـــي الـــدَّارِ

ولا ندري كيف نسب خفاجي هذه الأبيات للخزرجي، مع أن الثعالبي لا يشير إلى ذلك، بل ينسبها إلى بعض الشعراء الغرباء.

والواقع أن الباحث محمد عبد المنعم خفاجي يطلق الكثير من أحكامه حول أبي دُلَف الخَزْرجي دون سند يدعم ما يذهب إليه، فهو مرة أخرى ينسب إلى الخَزْرجي هذه الأبيات(٣٣):

هـــيَ المَقاديــرُ تَجرِي في أزمَّتِها		فاصبِرْ، فليسَ لها صَبْرٌ على حَالِ
دعِ المقاديــرَ تجــري في أعنَّتِها		ولا تبيتَـــنَّ إلاّ خَالـــي الـــبَالِ
مـــا بيـــنَ طَرْفةِ عَينٍ وانتباهتِها		يُغـــيِّرُ اللهُ مـــن حَـــالٍ إلـــى حَالِ

والغريب في هذا الأمر أن خفاجي يستقي هذه الأبيات من كتاب التمثيل والمحاضر للثعالبي، وبالعودة إلى هذا المصدر وجدنا الأبيات المذكورة، ولكن دون أن تكون منسوبة إلى شاعر مسمًّى.

وتعدُّ قصيدته الساسانية المشار إليها سابقاً أطول وأهم نص شعري تركه لنا، فقد نظمها أبو دُلَف على لسان بني ساسان، من المتسولين وأبناء السبيل، معارضاً بها قصيدة الأحنف العكبري، ذات الغرض نفسه، وأهمية هذه القصيدة ترجع إلى محتواها الاجتماعي، ودلالتها اللغوية، وهي ذات نزعة تعليمية، تهدف إلى تنبيه المجتمع إلى حيل المتسولين، وتعرف بفصائلهم، وتشرح مفردات لغتهم الرمزية والاصطلاحية، التي ضمّت في قاموسها مزيجاً من المفردات العربية والفارسية والسريانية والهندية وغيرها، وهو ما أشارت إليه بعض المؤلفات الأدبية مثل كتاب

«البخلاء» للجَاحظ، ونصوص «المقامات» للهَمَذاني والحَرِيري، وكتاب «المحاسن والمساوئ» للبَيْهَقي، وبابة «عجيب وغريب» لابن دَانيال، و«القصيدة الساسانية» لصَفيِّ الدّين الحلّي، وما تمتاز به قصيدة أبي دُلَف أنها فصَّلَتِ القول في هذا الأمر، وضمت قدراً كبيراً من ألفاظ المكدين من أهل عصره، ورموزهم الاصطلاحية، وهذا مالا نجده الآن في أي مصدر آخر(٣٤).

ورائية أبي دُلَف ذات شكل ملحمي، احتوت الأقسام التالية: مقدمة وجدانية ذات طابع مؤثر، ضمت الأبيات من ١-٨، جاء فيها(٣٥):

جُفُــوعنٌ دَمْعُهــا يَجْــرِي　　　لِطُــولِ الصَّــدِ والهَجْــرِ
وَقَلْــبٌ تَــركَ الوَجْــدُ　　　بِــهِ جَمْــراً علــى جَمْــرِ
لقَــد ذُقْــتُ الهَوَى طَعْمَيــ　　　ــنِ مِــنْ حُلْــوٍ ومِنْ مُرٍّ
ومَــنْ كَــانَ مِــنَ الأَحْرا　　　رِ يَسْــلُو سَــلْوَةَ الحُــرِّ

من المقدمة انتقل أبو دُلَف إلى الفخر الذي مزجه بالإشفاق على المكدين في الأبيات من ٩-٢٣، ومن ثم ولج بعد ذلك في الموضوع الأساسي، وهو الحديث عن أصناف المكدين وحيلهم، ومصطلحاتهم اللغوية، ويشكل هذا الجانب القسم الأكبر في قصيدته إذ امتد من ٢٤-١٦٠، ثم عاد الشاعر مرة أخرى إلى الفخر بالمكدين، وبحياتهم وتطوافهم في الأبيات من ١٦١-١٧٤، ومن ذلك قوله(٣٦):

سَــقَى اللهُ بنــي سَاسَــا　　　نَ غَيْــثاً دَائِــمَ القَطْــرِ
تَــرَى العَــرْيَانَ مِــنْهُم ظا　　　هِــرَ السُّــمْرَةِ والخَطْــرِ
كَــنمرودِ بــنِ كَــنْعانَ　　　قَــويَّ الصَّــدْرِ والأَزْرِ

وقد ختم الشاعر قصيدته بخلاصة تجربته في الحياة والأقدار بنبرة حزينة آسية، حن فيها الشاعر إلى أوطانه وأرضه دون أن يسميهما، وعبر عن

خلاصة آرائه في الحياة، وتطوافه في الأرض في الأبيات من ١٧٥-١٩٦، ومنها نقتبس قوله[٣٧]:

ألا إنِّــي حَلَبْــتُ الدَّهـــــ ـــــرَ مِنْ شَطْرٍ إلى شَطْرِ
وجُبْــتَ الأرْضَ حتَّى صِرْ تُ فــي التَطَّوافِ كالخِضْرِ
فـــإِنْ أظْفُـــرْ بآمالـــي شَـــفَيْتُ غُلَّـــةَ الصَّـــدْرِ
وألممْـــــتُ بأوْطانـــــي قَـــوِيَّ النَّهِـــي والأمْـــرِ
وقــد تَخْفُــقُ فوقــي عِزَّ ةَ ألويـــــةُ النَّصْـــــرِ
وإمّـــا تَكُـــنِ الأُخْـــرى وعِـــزٌ جائـــزُ الكَسْـــرِ
فـــلا أُبْـــتُ مـــع السَّـفْرِ غَـــدَاةَ أوْبَـــةِ السَّـــفْرِ
ولا عُـــدْتُ مـــتى عُـــدْتُ بـــلا عِـــزٍ ولا وَفْـــرِ
وحَسِـبي القَصَبُ المَطْحُوْ نُ فـــيهِ وَرَقُ السِّـــدْرِ
وأثـــوابٌ تُوارينـــي مـــن الإيـــذاءِ والأزْرِ

والذي نلاحظه أن أبا دُلَف راعى المقدمة الوجدانية في قصيدته، فبكى واشتاق، ولكنه لم يذكر من كان وراء بكائه، ومبعث شوقه وحنينه، بل سكب تجربة فردية غامضة ومبهمة، امتازت بصدق العاطفة والإحساس، أما فخره فلم يكن فردياً، ولم يرتبط بقبيلة كما لدى الشاعر القبلي، وإنما كان فخره بتيار اجتماعي وفئة نبذها المجتمع، ولم يكن تجديده مقتصراً على ذلك، وإنما تخطاه إلى مضمون ومادة الفخر، إذ صار فخره ينبع في التغني بحياة المكدين المتشردين، متجاوزاً ما يمكن أن يقال عن الكرم أو الشجاعة، وغيرهما من الصفات المعروفة، ومع هذا فأهمية رائية الخَزْرجي تكمن في أنها أدق وثيقةٍ أدبية عن حياة المكدين، وأصنافهم ولغاتهم، وهي مزودة بشرح لاصطلاحاتهم اللفظية، بالرغم من وجود مفردات

أخرى ظلت غامضة في أثناء القصيدة دون أن تشرح، أما الناحية الفنية في القصيدة فيمكن القول: إنها ذات نزعة تقريرية، لم يحلق فيها الشاعر، ولم يبدع فجاء وقع قصيدته عادياً، وتستثنى من ذلك أبيات مقدمة قصيدته وخاتمتها، لأنه سكب فيها مشاعره وأحاسيسه في الحياة والوجود.

● أصناف المكدين وفئاتهم :

وحين نعود إلى الجانب الذي يفصّل القول في أصناف المكدين، وفئاتهم وطرق الاحتيال، والاستجداء لديهم، نجد من بينهم في قصيدة الخَزْرجي:

- المكدين باستخدام السحر والكيمياء والتنجيم، وهم: الشيشق، المحرز، المفكك، المفيلك، من يزع في الهادور، المشقف، حافر الطرس، البكوش، البركك، معطي هالك الجزر، المقرمط، المسرمط، الحراق، البزاق، الحكاك، الشكاك، معطي بلح الأجر، قافة الرزق، أهل الفأل والزجر، من يعمل بالزِّيج، والتنور، والجفر.
- المكدين باستغلال الدين وهم: الميسراني، المخطراني، من نونك، من بشرك، المُقدَّس، من شولس، العثيريون، المصطبانيون، القنّاء، المُشدِّد في القول: المُرمد في القصر، المقنون، راوي الأسانيد، نافذ السبحات والحلوى والملح، المدهمش، الزنكل الصفر، القراء، أصحاب المقالات، ذو السمت الخاشع، المذالق، من يخرج باليابس يوم الفطر، من يأوي الشغاثات.
- المكدين بالعلاج والمداواة وهم: الحراق، البزاق، الشكاك، معطي بلح الأجر، النَّطاس، السمَّان، السَّنان، دكاك السفوفات.
- المكدين باستغلال الانتماء إلى التنظيمات الاجتماعية، وهم: البنوان، من ربى، من فتى، المشقاع، من يلز الشورز، من حنن كفيه، منفذو الطين، أصحاب اللحى الحمر، من كدى على كيسان، النائح المبكي، المنشد المطري، من ضرب في حب علي وأبي بكر، الممرور، وهو الذي يكدي باستغلال صراع التنظيمات الاجتماعية والفئات السياسية والمذهبية.

- المكدين بالألعاب ومظاهر التهريج والتسلية، ومنهم: المرّاس، السبّاع، القرّاد، الكابليون، من يلعب بالجر، من يمشي على الحبل، من يصعد بالبكر، مَنْ قتت.
- المكدين بوسائل وطرق احتيال أخرى، ومنهم: المكوز، القاص، المدرع، المقشع، الملبس، المغلس، ذو الحلوى، المدرمك بالعطر، أصحاب المدرجة الغبراء، المستعشي، ذو القصعة والمسراد والمكانس، المشرشر، المدلج، سعفة الريح.

- **اللغة السرية:**

ولعل من بين أهم الجوانب التي حفلت بها قصيدة الخَزْرجي، ما يتعلق باللغة السرية التي درج المكدون على استخدامها فيما بينهم، وهي لغة اصطلاحية، وضعية، تسربت بعض مفرداتها إلى كتب الأدب، والمصادر الأدبية.

ولغة المصطلح من السمات الخاصة بأصحاب المهن، والحرف، والجماعات، فهناك مصطلحات متداولة بين الشطار، والطفيليين، والدراويش، والخياطين، والصيارفة والتجار وسواهم[٣٨].

وتمتاز اللغة السرية للمكدين على سائر اللغات الاصطلاحية للفئات الأخرى، بأنها أغنى في مفرداتها، وأوسع انتشاراً، وأكثر تطوراً ونمواً، حملت في طياتها أسرار الشحاذين، وترجمت اصطلاحاتهم، وإشاراتهم ورموزهم، وكانت وسيلة اتصال بينهم حين لا يُراد لأفراد المجتمع الوقوف على شيء من طبيعة حياتهم، وطقوسهم، وخفايا علاقاتهم الاجتماعية.

والإشارة إلى لغة المكدين في المؤلفات العربية تطالعنا باستمرار، فقد تحدث الخفاجي في كتابه «شفاء الغليل عن المتسولين، ولغتهم، فقال: وبنو ساسان قوم من العيارين، والشطار، لهم حيل، ووضعوا بينهم لغة اخترعوها[٣٩].

ومما يذكر أن الصاحب بن عباد كان يقرّب بعض مكدي الري، فأتقن لغة المصطلح، وربما تحدث في مجالسه بهذه اللغة، فلا يفطن إليها الآخرون[٤٠].

وهذه اللغة لا ترجع إلى منبع لغوي واحد، بل هي مزيج مركب، وخليط معقد من لهجات ولغات مختلفة، وقد أشارت إلى ذلك الباحثة تروتسكايا بقولها: إن لغة المصطلح مشتقة من الكلمات الفارسية، والعربية، والعبرية القديمة، والسريانية، كما حددت المدى الجغرافي لهذه اللغة، وامتداداتها في مناطق آسيا، وإيران، وأرض العراق(٤١).

ولعل الكثير من مفردات لغة المكدين يرجع إلى لهجات الغجر، وهم من أكثر الفئات الاجتماعية امتهاناً للكدية والتسول، وكان الغجر كما يذكر بوزورث استعملوا لغتين مختلفتين، إحداهما من أصل الغجر الهندي والثانية من لغة الأرغو، وهي لغة اخترعها اللصوص، والمجرمون(٤٢).

والمصادر العربية التي احتفظت لنا بمفردات اللغة السرية للمكدين هي مؤلفات: الجاحظ، والبَيْهقي وكتب المقامات، وكتاب كشف الأسرار للجَوْبَري، وبابة عجيب وغريب لابن دانيال، على أن أهم مصدر لهذه اللغة نجده في الشعر، ولدينا من النصوص الشعرية، قصيدتان هامتان: إحداهما القصيدة الساسانية لأبي دُلَف الخَزْرجي، والقصيدة الثانية هي ساسانية صَفيّ الدِّين الحلِّي، ومن حسن الحظ أن الثعالبي احتفظ بقسم كبير من ساسانية الخَزْرجي في يتيمة الدهر، مع شرحها اللغوي الذي يتعذر من دونه فهم مصطلحات المكدين، ولغتهم التي نظمت بها القصيدة، وهو شرح من المرجح أن الخَزْرجي هو من قام به، فأسدى بذلك خدمة معرفية على قدر كبير من الأهمية.

وفي هذه القصيدة نقف على عشرات المفردات الاصطلاحية التي لا يمكن أن نجدها في مصدر آخر، ولا يمكن أن نلم بدلالاتها من خلال المعاجم اللغوية المعروفة، فقد استخدم الخَزْرجي لغة الساسانيين في الكلام على فئاتهم، وأصنافهم، وطرق احتيالهم، ونورد من قصيدته بعض المفردات المعبرة عن لغة المدين الاصطلاحية كقوله على سبيل المثال(٤٣):

ومـــنَّا الكَـــاغُ والكَـــاغـــَـ ـــــــةُ والشَّيْشَقُ في النَّحْرِ

ومـــــــنْ دَرْوَزَ أوحَـــــــرَّ زَ أو كـــــوَزَّ بالدَّغَــــــرِ

وَمَـــنْ رعَّـــسَ أو كـــبَّــــ   ـــــــسَ أو غَلَّسَ في الفَجْرِ
وَمَـــنْ شَـــطَّبَ أو ركَــــــ   ـــــبَ للضَّـــرْباتِ والعَقْـــرِ
وَمَــنْ مَيْسَــرَ أو مَخْطــــــــ   ـــــــرَ واسْـــتَنْفَرَ للـــثَّغْرِ
وَمَـــــنْ رَشَّ وذو المكـــــوى   وَمَـــــنْ دَرْمَـــــكَ بالعِطْـــــرِ
وَمَـــــنْ دكَّـــــك أو فكَّـــــــ   ـــــــكَ أو بَلْفَـــكَ بالحَـــرِّ
وَمَــنْ قَــصَّ لإســـرائيــــ   ـــــلَ أو شَـــبْرَاً علـــى شَبْرَ
وَمَـــنْ بَشْـــرَكَ أو نَـــوْذَ   كَ أو أشْـــــرَكَ بالهَـــــبْرِ

ويلاحظ أن المفردات السابقة هي مصطلحات لغوية سرية، تواضع المكدون علـيها، ويـتعذر علـى القـارئ أو المستمع أن يدرك معناها، لأنها مفردات غير معجمية، وليست دارجة إلا بين أفراد فئة اجتماعية، هي فئة المتسولين والمكدين.

ولتوضح الدلالة اللغوية والاصطلاحية، نقتبس شرح أبي دُلَف الخَزْرَجي لمعاني تلك المفردات الاصطلاحية كما وردت في قصيدته الرائية: فالكَاغ من المكدين: هو الذي يتظاهر بالجنون، والشَيْشَق: الحدائد والتعاويذ التي يعلقها المكدون على أنفسهم، والمُدَرْوِز من المتسولين: هو الذي يدور على السكك والدروب مستجدياً، والمُحَرِّز: هو من يكتب التعاويذ والأحراز، والمُكَوِّز: الذي يستجدي بالقصص والحكايات، والمُرعِّس: من يطوف على الحوانيت، والمُكبِّس: الذي يباغت الآخرين بكديته، والمُشَطِّب: الذي يعقر نفسه بالموسى، والمُركِّب: الذي يطلي جسمه بالشيرج حتى يسودَّ جلده، ليوهم أنَّ الجن لطمته.... الخ.

● **الرحالة الجوال :**

لم يكن أبو دُلَف شاعراً فحسب، بل كان جغرافياً، ذا ولع بالأسفار وصاحب باعٍ في صناعة الكيمياء والطب، وقد كشفت عن اهتماماته وميوله العلمية رسالتان جغرافيتان له، دوَّنَ فيهما مشاهداته، وتجاربه العلمية، وملاحظاته الطبية، ويبدو أن

كثيراً مما جاء في رسالتي أبي دُلَف ظل مبثوثاً في بطون المصادر العربية، مثل «عجائب المخلوقات» للقَزْوِيني، و«الفهرست» لابن النَّديم، و«معجم البلدان» لياقوت الحَمَوي، تارة يرد اسمه في النقل، ولكن كثيراً ما يستقي عنه أولئك المؤلفون المواد الجغرافية والعلمية، والأثرية دون تسمية أو تخصيص.

وقد ساعد على ذلك أن ظلَّ أمرُ رسالتيه مجهولاً - لفترة طويلة - حتى تم اكتشافهما سنة ١٩٣٢م، حيث عثر عليهما في مخطوطة جغرافية بمكتبة مشهد بإيران، فكان ذلك برأي كثير من المستشرقين من النتائج الهامة التي وثَّقت المعلومات الواردة على لسانه في المصادر السابقة.

وتمثل الرسالة الأولى منهما رحلته مع رسُل ملك الصين، الذين قدموا ناقلين رغبة ملكهم في تعزيز أواصر الصلات مع نَصْر بن أحمد السَّاماني، عارضين عليه رغبة ملكهم في المصاهرة بأن يزوج بعض بناته من أبناء ملك الصين، ولما أبى عليهم ذلك، عرضوا عليه أن يزوج بعض ولده من بنات ملكهم، فاستجاب لذلك، ورافقهم أبو دُلَف في عودتهم إلى بلادهم.

أما رسالته الثانية فهي تمثل خط العودة، وتبدأ أحداثها من مدينة الشيز. وإذا كانت محتويات الرسالتين ومادتهما متقاربة في جوانب كثيرة، إلا أن ثمة بعض الفروق في اهتمامات أبي دُلَف قد برزت فيهما، فهو في رسالته الأولى يُعنى بتدوين المعلومات الجغرافية والبشرية والعادات والتقاليد الاجتماعية، والنظم السياسية للأقاليم التي مُرَّ بها.

وقد أهدى الخَزْرَجي رسالته الأولى إلى رجلين غير مُسَمَّيين من ذوي الاهتمام بالعلوم، وأخبار الأمم، فقال: «إني لمَّا رأيتكما ياسيدي - أطال الله بقاءكما - لهجين بالتصنيف، مولعين بالتأليف، أحببت ألا أخلي دستوركما، وقانون حكمتكما من فائدة وقعت إلي مشاهدتها، وأعجوبة رمت بي الأيام إليها، ليروق معنى ما تتعلمانه السمع، ويصبو إلى استيفاء قراءته القلب، وبدأت بعد حمد الله والثناء على

أنبيائه بذكر المسالك المشرقية، اختلاف السياسة فيها، وتباين ملكها، وافتراق أحوالها، وبيوت عبادتها وحكوم قوامها، ومراتب أولي الأمر والنهي لديها»[٤٤].

وفي هذه الرسالة دوّن أبو دُلَف ما شاهده، وخبره عن تلك الشعوب، وكان منهجه في البحث يقوم على تسمية المواقع، ووصف أحوال السكان، ومذاهبهم، وعاداتهم، ومساكنهم وألبستهم وأطعمتهم، ثم ذكر خصائص وأصناف المعادن والحجارة، والمياه، والنباتات التي تشتهر بها مدنهم ومناطقهم، فقال: «وأول قبيلة وصلنا إليها بعد أن جاوزنا خراسان، وما وراء النهر من مدن الإسلام، قبيلة تعرف: بالخركاه، فقطعناها في شهر، نتغذى بالبر والشعير، ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالطخطاخ، تغذينا فيها بالشعير والدخن، وأصناف اللحوم والبقول الصحراوية، فسرنا فيها عشرين يوماً في أمن ودعة، يسمع أهلها لملك الصين، ويطيعونه، ويؤدون الإتاوة إلى الخركاه»[٤٥] وعلى هذا المنوال في الوصف مضى أبو دُلَف يصف أحوال القبائل التي مر بها وهي: الطخطاخ، البجا، البجناك، الجكل، البغراج، تبت، الكيماك، الغز، التغزغز، الخرخيز، الخرلخ، الخطلخ، الخيتان، قبائل بلد بهي، وهي القبائل التي مر بها قبل وصوله إلى سندابل، وهي قصبة الصين كما يذكر، وبها دار المملكة، وقد استغرقت رحلته في الذهاب ما يزيد على سنة، وأربعة أشهر.

كما أشار إلى بقايا العرب الذين غزا بهم تبّع ملك اليمن بلاد الصين، وقد استوطنوا منطقة القليب، فقال عنهم: «لهم مصايف ومشات في مياه ورمال، يتكلمون العربية القديمة، ولا يعرفون غيرها، ويكتبون بالحميرية، ولا يعرفون قلمنا، يعبدون الأصنام، وملكهم من أهل بيت منهم، لا يخرجون الملك من أهل ذلك البيت، ولهم أحكام، وحظر الزنا والفسق، ولهم شراب جيد من التم، وملكهم يهادي ملك الصين، فسرنا فيهم شهراً في خوف وتغرير»[٤٦].

والقبائل الآنفة الذكر تتباين حياة أفرادها في المسكن، والملبس والمأكل، وتختلف طباعهم وعاداتهم وتقاليدهم من شعب إلى آخر، وهذا الأمر يسري كذلك

على معتقداتهم ونظمهم السياسية والاجتماعية، فالجكل لا ملك لهم، وكذلك الكيماك، وللغز ملك عظيم الشأن، وللخرخيز ملك مطاع لا يجلس بين يديه أحد منهم إلا إذا جاوز أربعين سنة، وليس للختيان ملك، وأحكامهم أحكام عقلية، تقوم بها السياسة، وكل عشرة منهم يرجعون إلى شيخ عقل، ورأي فيتحاكمون إليه، وللخطلخ ملك ينكر الشر، ولا يتزوج، فإن تزوج قتل[٤٧].

أما على صعيد الدين والسكن والعادات والمعتقدات، فالبجا: مشركون يسجدون لملكهم، ويعظّمون البقر، ولهم أصنام من خشب، وللتبت بيت عبادة من جلود البقر المدهونة، وفيه أصنام من قرون الغزلان، والكيماك يعبدون من تجاوز ثمانين سنة منهم، إلا أن يكون به عاهة، أو عيب ظاهر، وليس لدى التغزغز بيت عبادة، ولهم طقوس عند ظهور قوس قزح، والخرخيز يعظمون النجوم، وبيوت الجكل من الخشب والعظام، وللتبت مدينة من قصب، أما بيوت الكيماك فهي مصنوعة من الجلود، في حين أن مدينة الغز مبنية من حجر وخشب وقصب[٤٨]، وفيما يخص العادات والصفات والمأكل والملبس: فالخرخيز لا يطفئون سرجهم حتى تطفأ موادها، وهم يأكلون الأرز واللحوم، ولهم حجارة تسرج بالليل، يستغنون عن المصباح، ولا تعمل في غير بلادهم، ولباس الجكل الصوف والفراء، ولا يلبسون غيرهما، ويأكلون الشعير والجلبان، ولحوم الغنم فقط، ولا يذبحون الإبل، ولا يقتنون البقر، والبنجاك طوال اللحى، أولو أسبلة، همج يغير بعضهم على بعض، ويفترش الواحد منهم المرأة على ظهر الطريق، ولا تتزوج نساء الخطلخ أكثر من زوج في حياتها، وإن مات زوجها بقيت دون زواج من بعده[٤٩]، ومن غرائب مشاهدات أبي دُلَف أن للكيماك حجارة هي مغناطيس المطر، يستمطرون بها متى شاؤوا، وعند الغز حجارة إذا مرت على السيف لم يقطع، وللخرخيز حجارة تسرج بالليل، يستغنون بها عن المصباح، ولا تعمل في غير بلادهم[٥٠].

أما خط عودة أبي دُلَف بعد انصرافه، واستئذانه من ملك الصين فكان من: سندابل إلى كله، بلد الفلفل، لحف الكافور، قماريان، الصنف، الصيمور، جاجلى، قشمير، كابل، مندورقين، كولم، عمان، الملتانن المنصورة، بغانينن شهر داور، بغنين، غزنين، وآخر ما ذكره من المدن والمواضع التي مر بها سجستان.

وكان الخَزْرجي يذكر في منهجه الوصفي خصائص تلك المدن، وأوضاعها، وأحوال سكانها وعاداتهم، وما تشتهر به مدنهم من حرف وصناعات ومعادن، وأصاف الزراعات والمحاصيل والنباتات الطبية، ومن ذلك على سبيل المثال: أن للصيمور ملوكاً صغاراً، ولباسهم لباس أهل الصين، وهم ذوو حظ من الجمال، وعندهم بيع، وكنائس ومساجد وبيوت نار، أما أهل مندورقين: فهم أصحاب طب، وليس في الهند طب إلا في هذه المدينة، وأهلها لا يأكلون السمك، ولا يذبحونه، ويصنعون من خرز ظهوره أساطين بيوتهم، وأكثرهم يأكل الميتة(٥١).

● **الطبيب – الكيميائي :**

وتكشف الرسالة الثانية عن ميل آخر لدى الخَزرجي تجلّى من خلال اهتمامه بمعرفة الخصائص الكيميائية والطبية، للنباتات والصخور والمعادن والمياه في الأقاليم، التي زارها، كما عبر عن ذلك بالقول: أبدأ بذكر المعادن الطبيعة والعجائب المعدنية، إذ هي أعم نفعاً فأتحرى في ذلك الإيجاز... فلما شارفت الصنعة الشريفة والتجارة المربحة من التصعيدات والتقطيرات والحلول، والتكليسات خامر قلبي شك في الحجارة، واشتبهت عليَّ العقاقير، فأوجبت الرأي اتباع الركازات والمنابع، فوصلت بالخبر والصنعة إلى الشيز(٥٢).

وفي هذه الرسالة وصف أبو دُلَف المدن والمواقع التي مر بها، حيث انطلق من الشيز إلى الران، ووادي اسفندوي، الطرم، قلعة ملك الروم، ومنها رجع إلى موقان، في أذربيجان، محاذياً في سيره ساحل بحر طبرستان، ثم وصل إلى باكويه،

[بريد باكو]، ومنها إلى بلاد الأرمن، ثم تفليس، ثم الفرق، فأردبيل، عبر جبال الويزور وقبان، وأرمينيا، ووادي الكرد، وحما زراوند، وقلعة ريمان، ثم شهرزور، وبير، ودزوان، ومنها إلى خانقين، ثم قصر شيرين، فحلوان، وماذر وستان، ومرج القلعة، والطراز، وأريوجان، ثم الرد، فالسيروان، فالصيمرة، فقرميسين، وجبل سميرة، وقرية أبي أيوب، وقنطرة النعمان، ودستجرد كسرويه، ولا شجرد، ثم بحيرة ماذان، وقصر اللصوص، وهمذان، ونهوند، والكرج، وقم، والري، ودباوند، وطبرستان، وسمنان، ومنها إلى الدامغان، وقرية الجمالين، ثم بسطام، وجرجان، ورستاق، وأسبينقان، وطوس، ونيسابور، وهورات، وقنطرة يذج، والأهواز، ورام هرمز، ودورق أسق، والهند إيجان، ثم تستر، وقنطرة خرراذ، وهذا آخر ما يذكره.

وقد برز في هذه الرسالة اهتمام الخَزْرجي بالمعادن، وأصناف الحجارة، وخصائص المياه والأعشاب، فذكر لنا من المعادن: الذهب، الزئبق، القصدير، الفضلة، الزرنيخ، الأسرب، الزاج، الكبريت، التوتياء، النحاس، الزاج الأسود، الكحل، المرتك.... الخ.

وكان يجري تجاربه الكيميائية، ويدوّن نتائج اختباراته فيقول: «إن زئبق الشيز أجل من الخراساني، وأثقل وأنقى، وقد اختبرناه فتقرر من الثلثين واحد في كيان الفضة المعدنية، ولم نجد من ذلك في المشرق» وفي مدينة الران «معدن ذهب ثقيل أبيض، فضي، أحمر المحك، إذا حمل على عشرته واحد من الفضة أحمر»(٥٣)، ويذكر أن في مدينة الدينور «جبال تجمع الذهب، ومعادن الزيبق، ومعادن الأسرب، ومعادن الفضة، ومعادن الزرنيخ الأصفر، ومعادن للحجارة المعروفة بالجمست، فأما ذهبها: فهو ثلاثة أنواع: نوع يعرف بالقومسي، وهو تراب يصب عليه الماء فيسيل، ويبقى تبرٌ كذر، يجمع بالزيبق، وهو أحمر خلوقي [فاتح]، ثقيل نقي، ممتنع عن النار، لين يمتد، ونوع آخر يقال: له الشهري، يوجد قطعاً من حبة إلى عشرة مثاقيل، صبغٌ صلب، إلا أن فيه يبساً قليلاً، ونوع آخر يقال له: السجابذي أبيض رخو، أحمر المحك، ينصبغ بالزاج»(٥٤).

كما تحدث من ناحية أخرى عن فوائد النباتات والمياه، وخصائصها الطبية والنفسية في شفاء الأمراض والأورام، فذكر أن عيناً في مدينة ويزنجان تنبع ماء يستحجر إذا ضربه الهواء، تنفع من أديم الأرحام سيالاً، ومن دبر الحمير جامداً[٥٥]، وأن في وادي الكرد مما يلي سلماس «حمة شريفة، كثيرة المنفعة... ومن شرف هذه الحمة أن مع مجراها مجرى ماء عذب زلال بارد، فإذا شرب منه إنسان فقد أمن الخوانيق، ووسع عروق الطحال الرقاق، وأسهل السوداء من غير مشقة، ومما يقع في وادي الكرد، حمة زراوند، أن الإنسان أو البهيمة يلقى فيها، وبه كلومٌ قد اندملت، وقروح قد التحمت، ودونها عظام موهنة، وأزجة كامنة، وشظايا غائصة، فتتفجر أفواهها، ويخرج مافيها من قيح وغيره، وتجتمع على النظافة، ويأمل الإنسان غائلتها، وعهدي بمن توليت حمله إليها، وبه علل من جرب، وسلع وقولنج، وحزاز وضربان في الساقين، واسترخاء في العصب، وبه سهم قد نبت اللحم على نصله، وغار في بدنه، وكنا نتوقعه يصدع كبده صباح مساء، فأقام ثلاثة أيام، وخرج السهم من خاصرته، ولم أر مثل هذا، إلا في بلد الشيز والمكران[٥٦].

ومن طرائف مشاهدات أبي دُلَف أن في مدينة الران حشيشة «تضحك من تكون معه، حتى يخرج به الضحك إلى الرعونة، وإن سقطت منه أو شيءُ منها اعتراه حزن لذلك فبكى»[٥٧] وذكر أن لبسطام خاصتين عجيبتين: «إحداهما أنه لم ير عاشق قط من أهلها، ومتى دخلها إنسانٌ في قلبه هوى، وشرب من مائها، زال العشق عنه، والأخرى أنه لم يرمد بها أحد قط»[٥٨]، ومن عجائب ما رأى «أن في مدينة رام هرمز عيون الكبريت الأصفر البحري، وهو يسرج الليل عليه، ولا يوجد هذا الكبريت في غيرها، وإن حمل منها إلى سواها، لم يسرج، وإن أوتي بالنار من غير دورق واشتعلت في ذلك الكبريت، أحرقته أصلاً، فأما نارها فإنها لا تحرقه، وهذا من طريف الأشياء وعجيبها، ولا يوقف على العلة في ذلك»[٥٩].

- **أبو دُلَف والأساطير والمأثورات الشرقية:**

وإضافة إلى الجوانب التي مر ذكرها ضمَّت رسالتا أبي دُلَف مادة وفيرة عن المباني، والقلاع والآثار، والقناطر والجسور، وعن أصناف الصناعات، وأنواع المحاصيل الزراعية، والأنهار والبحيرات والسدود، كما عني بالمؤلف فيهما بقضايا الطلاسم، والأساطير، فهما بالتالي تُعدَّان من أهم مصادر الانثربولوجيا الثقافية التي ننفذ من خلالها إلى معرفة نشاط تلك الشعوب وعادات أفرادها، وتصوراتهم العقلية، وأنماط تفكيرهم، ومأثوراتهم الشعبية.

وحين ندقّق في موقف الخَزْرجي مما كان يسمع أو يشاهد نجده يردُّ كثيراً من تلك المرويات، ويمتحنها على محك التجربة والاختبار، فيكشف عما يشوبها من وهم التصورات الساذجة، فمن ذلك ما زعمته العامة عن شيطان جبل دباوند، وما نسجته عقولهم من قصص وحكايات خرافية حول المراد المقيد الذي تومض عيناه ناراً،ويعلو نفسه كالدخان، ويدوي صوته كالرعد.

وهنا ندع أبا دُلَف يمضي في كشف الحقيقة فيقول: «فاعتبرت ذلك وارتصدته، ولزمت به المكان، وصعدت في الجبل حتى وصلت إلى نصفه بمشقة شديدة، ومخاطرة بالنفس، وما أظن أن أحداً تجاوز الموضع الذي بلغت إليه، بل ما وصل إليه إنسان فيما أظن، وتأملت الجبال فرأيت عيناً كبيرة، وحولها كبريت مستحجر، فإذا اطلعت الشمس، والتهبت فظهرت فيه نار، وإلى جانبه مجرى يمر تحت الجبل تخترقه رياح مختلفة، فتحدث بينها أصواتٌ متضادة على إيقاعات متناسبة، فمرةً مثل صهيل الخيل، ومرة مثل نهيق الحمير، ومرة مثل كلام الناس، ويظهر للمصغي إليها مثل الكلام الجهوري دون المفهوم، وفوق المجهول، يتخيل السامع أنه كلام بدوي ولغة أنسي، وذلك الدخان الذي يزعمون أنه نفسه بخار تلك العين الكبريتية، وهذه حال يحتمل على ظاهر هذه الصورة ما تدعيه العامة»(٦٠).

ولقد شكل هذا الموقف النقدي منهجاً علمياً سار عليه أبو دُلَف، ولم يشذ عنه إلا قليلاً، وكأن روح الشاعر لديه المفتونة بسحر الأسطورة، وبريقها، كانت تتمرد أحياناً على رقابة العقل، لذلك وجدنا الخَزْرجي يلتقط بعض الحكايات الخاصة بالطلاسم وتأثيرها، وبالمعتقدات الشعبية الأسطورية الموروثة بحكم العادة أو التجربة.

ومادمنا في إطار «جبل دباوند» فإننا نورد قوله عن تصورات سكانه واعتقاداتهم، فيقول: «إذا نظر أهل هذه الناحية إلى النمل تدخر الحب، وتكثر من ذلك علموا أنها سنة قحط وجدب، وإذا دامت عليهم الأمطار وتأذوا بها، وأرادوا قطعها صبوا لبن المعز على النار فانقطعت، وقد امتحنت هذا من دعواهم دفعات فوجدتهم فيه صادقين، وما رأى أحد رأس هذا الجبل في وقت من الأوقات منحسراً عنه الثلج إلا وقعت الفتنة، وهريقت الدماء من الجهة التي تراها منحسرة، وهذه العلامة أيضاً صحيحة بإجماع أهل البلد»[٦١].

ولا نعتقد أن تفسير تلك الوقائع على نحو ما ادعاه الخَزْرجي، فقد تكون عفوية الحدث أو المصادفة وراء حصول تلك الوقائع كما تبدت للعامة آنذاك، وقد يكون من الصواب تعليل وقوع تلك المعطيات وتفسيرها ضرب من إسقاط النفسي والجماعي، انطلاقاً من فكرة السحر التعاطفي التي طرحها جيمس فرايزر[٦٢] في دراسته لأساطير وميثولوجيا الشعوب والحضارات القديمة، فأهل دباوند يربطون بوساطة قانون التشابه بين السنة الجدباء، وادخار النمل الحبوب، وهم من ناحية أخرى يمارسون طقوس السحر الاتصالي عندما يصبون لبن المعز على النار، وكان ذلك يمكن أن يؤثر على الأمطار فتكف عن الهطول، والعلاقة الاتصالية قائمة على المعنى الرمزي للانقطاع، فكما تنقطع النار عن الاشتعال، كذلك تنقطع الأمطار، وقانون الاتصال هذا يبدو ذا طبيعة إرهاصية في عقائد السحر، وإنصافاً لأبي دُلَف، نقول: إن الأخبار ذات الطابع الخرافي أو التكوين الأسطوري في رسالتيه، لا تكاد تذكر إذا ما قيست بما نجده في كتب الرحالة العرب الآخرين؛ على

أن هذا بحد ذاته لا يشكل مأخذاً على أبي دُلَف، ولا يهون من قيمة رسالتيه فهو حالة شائعة في فكر العصور الوسطى، انعكست بشكل كبير في كتب الأدب والرحالة والجغرافيين.

● **بين الإهمال والاهتمام :**

ولعلنا مما سلف نكون قد وقفنا على جوانب هامة، ومعطيات كثيرة عن شخصية الخَزرجي، عن حياته المضطربة الغامضة، وسفره الدائم، وتجواله الطويل، وعن مواهبه ومؤهلاته في الشعر والطب والكيمياء والجغرافية، التي كان من الطبيعي أن تمنحه شهرة علمية وأدبية، ولكن أبا دُلَف الذي عانى من الحرمان في حياته، عانى كذلك من قسوة الإهمال بعد وفاته، فلم يفطن له القدماء، ولم يهتم به المحدثون، وما كتب عنه يأتي في درج الدراسات العابرة، في حين أن الأمر يتطلب جهوداً متأنية وتنقيباً دقيقاً، يكشف عن نتاجه الأدبي والعلمي، وخبايا حياته وأسرارها.

وخلافاً لهذا الواقع اهتم لفيف كبير من المستشرقين بأبي دُلَف، فكتب عنه «ويستنفيلد» و«وشلوزر» و«بارتولد» و«ماركار» و«غريغوريف» و«روصوير» و«مينورسكي» و«كراتشكوفسكي» و«فرين» وغيرهم[٦٣].

وقد رُكِّزتْ بحوثُ هؤلاء ودراساتهم الطويلة على الجانب الجغرافي ترجمة، وتحليلاً ونقداً، فلا عجب أن تعددت الآراء سلباً أو إيجاباً - في تثمين جهود أبي دُلَف العلمية والجغرافية، فرأى بعضهم في كتاباته خلطاً بالوقائع والأحداث والطرق، وتداخلاً بين الواقع والخيال، وهذا ما ذهب إليه غريغوريف باعتقاده أن رسالة أبي دُلَف لا تقوم على أساس من الواقع، بل هي جمع لشتات ما قرأه وسمعه عن الآخرين[٦٤]، وقد أيده في هذا الرأي مينورسكي فكان «يرى في رحلة أبي دُلَف سلسلة من الوقائع، لا يربط بينها شيء، بعضها حقيقي، وبعضها الآخر من نسج الخيال»[٦٥].

وكان من أهم نتائج بحوث «كراتشكوفسكي» أنه فندَّ كثيراً من هذه المزاعم، مؤكداً أن رحلة أبي دُلَف حقيقة ولم تكن من نسج الخيال وتصورات الأوهام(٦٦).

وإذا كان «الرحالة أبو دُلَف مسعر بن مهلهل الخَزْرجي الينبعي الذي يخفى علينا من أمره كما يقول العلامة حمد الجاسر في حال نشأته وحياته وتنقله أكثر مما يظهر، ونجهل من أحواله أكثر مما نعلم»(٦٧)، فإن السؤال الذي يطرح نفسه ونحن بصدد حياة مسعر بن المهلهل الينبعي: إلى متى تظل عشرات بل مئات الأسماء الهامة في شتى المجالات تراثنا الحضاري والثقافي مجهولة تعاني من إهمال الدارسين، ومرارة الاغتراب والنسيان؟!.

هوامش الفصل الرابع

١- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، ترجمة يعقوب بكر، دار المعارف مصر ٢٤٥/٤ ودائرة المعارف الإسلامية: ترجمة محمد ثابت الفندي ٤٧٥/١، وتاريخ الأدب الجغرافي: كراتشكوفسكي، القاهرة ١٩٦٥، ص١٨٨.

٢- يتيمة الدهر: أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر ٣٥٧/٣.

٣- دمية القصر: علي بن الحسين الباخرزي، تحقيق محمد التونجي، نشر مؤسسة الحياة، ٥٦/١.

٤- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣٥٧/٣.

٥- مثالب الوزيرين: أبو حيان علي بن محمد التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، نشر دار الفكر، دمشق ص ٢٨٩.

٦- لطائف المعارف: الثعالبي، تحقيق إبراهيم الأبياري، وحسن كامل الصيرفي، ص ٢٣٩.

٧- مثالب الوزيرين: التوحيدي، ص ٢٩٢.

٨ – مثالب الوزيرين: التوحيدي، ص ٢٩٢.

٩- الصداقة والصديق: أبو حيان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، دار الفكر دمشق ١٩٦٤، ص ١٦٢.

١٠- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣٥٧/٣، السفاتج: مفردها سفتجة، ومعناها أن يعطي رجل مالاً لرجل آخر، ويكون لهذا الآخر مال في بلد المعطي، فيستفيدان أمن الطريق.

١١- الروض المعطار في خبر الأقطار: محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت ١٩٧٥، ص ٤٠٦.

١٢- يتيمة الدهر: الثعالبي ، ٣٥٦/٣.

١٣- أدب الكدية في العصر العباسي: أحمد الحسين، دار الحصاد، دمشق ١٩٩٥، ص٧٥.

١٤- الروض المعطار في خبر الأقطار: الحميري، ص ٤٠٦.

١٥- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣٥٧/٣.

١٦- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٣٥٦.

١٧- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٣٥٧.

١٨- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٣٥٧، وبغداذ أحد أسماء بغداد، كما يطلق عليها دار السلام.

١٩- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٣٥٨.

٢٠- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٣٥٧، دمية القصر: الباخرزي، ١/٥٤، ويرد البيت هكذا:

لولا النبي وصفوه وابناهما ثم البتول

٢١- مثالب الوزيرين: التوحيدي، ص١٢١، يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٢٨٢، وفي اللسان: جرهت الأمر إذا أعلنته، وجراهية القوم: كلامهم وجلبتهم وعلانيتهم دون سرهم.

٢٢- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٢٩٩، ومعجم الأدباء: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي: تحقيق أحمد فريد رفاعي، مطبعة المأمون، سلسلة الموسوعات العربية، مصر، ٦/١٧٠.

٢٣- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٣٥٨، وترد الأبيات مع بعض التعديل في زهر الآداب: أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، تحقيق: زكي مبارك، مطبعة السعادة، القاهرة، ط ٣، ١٩٥٣، ٣/٦٥٥، زوّق: نمّق، مخرق: احتال، أطبق: غطى، طبلق: لعله من التطبيل والتهريج.

٢٤ - البصائر والذخائر: أبو حيان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، مكتبة أطلس دمشق، ٣/٦٤٨.

٢٥- المضاف والمنسوب: الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر ١٩٦٥، ص ٢٣٣، وربيع الأبرار ونصوص الأخبار: محمود بن عمر الزمخشري.

٢٦- البصائر والذخائر: التوحيدي، ٤/ ٥٢٦.

٢٧- الصداقة والصديق: التوحيدي، ص ١٦٢.

٢٨- أبو دُلَف الخَزْرجي، عبقري من ينبع: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الرفاعي، الرياض، ط ٤، ١٩٨٦، ص ٧٨، ٧٩.

٢٩- مختصر كتاب البلدان: أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، دار إحياء التراث، ط١، ١٩٨٨، ص ٢١٦.

٣٠- مختصر كتاب البلدان: الهمذاني، ص ١٠٦.

٣١- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣/٩٢، والعقد الفريد: ابن عبد ربه: شرح أحمد أمين وأحمد الزين وأحمد الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٣، ٢/١٦٥.

٣٢- أبو دُلَف الخَزْرجي، عبقري من ينبع: خفاجي، ص ٨١، ويتيمة الدهر: الثعالبي ٣/٢١٦.

٣٣- أبو دُلَف الخَزْرجي عبقري من ينبع: خفاجي، ص ٨٠، والتمثيل والمحاضرة: للثعالبي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء التراث، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٢٩.

٣٤- بـــوزورث ١/٢٣، BOSWORTH ١٩٧٦ THE MEDIEVAL, ISLAMIC UNDER WORLD THE BANU SASAN, IN ARABIC, SOCIETYA AND LETERATUNE LEIDEN. BRILL:١:٢٣.

٣٥- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٣٧٦.

٣٦- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٣٧٥.

٣٧- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٣٧٦.

٣٨- أدب الكدية في العصر العباسي: أحمد الحسين ص ٢٢٤.

٣٩- بوزورث ١/١٩.

٤٠- مثالب الوزيرين: التوحيدي، ص ١٢٧، يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٣٥٧.

٤١- مجلة الاستشراق الروسي أ.تروتسكايا، لغة المصطلح لفناني آسيا الوسطى، ٥/٢٦.

٤٢- بوزورث ١/٢٣.

٤٣- يتيمة الدهر: الثعالبي، ٣/٣٦٠.

٤٤- معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، مادة صين: ٣/ ٤٤١.

٤٥- معجم البلدان: الحموي ٣/٤٤١.

٤٦- معجم البلدان: الحموي ٣/٤٤٣.

٤٧- معجم البلدان: الحموي، ٣/٢٤١، ٢٤٢، ٤٤٣.

٤٨- معجم البلدان: الحموي، ٣/٢٤١، ٢٤٢.

٤٩- معجم البلدان: الحموي، ٣/٢٤٢، ٢٤١، ٤٤٣.

٥٠- معجم البلدان: الحموي، ٣/٢٤٢.

٥١- معجم البلدان: الحموي، ٣/٤٤٥، ٤٤٦.

٥٢- الرسالة الثانية: أبو دُلَف الخَزْرجي، تحقيق محمد منير مرسي، القاهرة ص ٣٠.

٥٣- الرسالة الثانية: أبو دُلَف، ص ٤٠.

٥٤- الرسالة الثانية: أبو دُلَف، ص ٣١.

٥٥- الرسالة الثانية: أبو دُلَف، ص ٤٢.

٥٦- الرسالة الثانية: أبو دُلَف، ص ٥١.

٥٧- الرسالة الثانية: أبو دُلَف، ص ٤٠.

٥٨- الرسالة الثانية: أبو دُلَف، ص ٨٦.

٥٩- الرسالة الثانية: أبو دُلَف، ص ٩٤.

٦٠- الرسالة الثانية: أبو دُلَف، ص ٨٢.

٦١- الرسالة الثانية: أبو دُلَف، ص ٨٢.

٦٢- أدب الرحلات عند العرب: علي محسن مال الله، كلية الإمام الأعظم، بغداد ١٩٧٨، ص ٤٣٥.

٦٣- أدب الكدية في العصر العباسي: أحمد الحسين ص ٢٠٧.

٦٤- تاريخ الأدب الجغرافي: كراتشكوفسكي ص ١٨٩.

٦٥- تاريخ الأدب الجغرافي: كراتشكوفسكي، ص ١٨٩.

٦٦- تاريخ الأدب الجغرافي: كراتشكوفسكي، ص ١٨٩.

٦٧- مجلة المنهل: حمد الجاسر، مقال الرحالة العربي مسعر بن مهلهل الينبعي، مجلد ٦، عدد ٤، آذار ١٩٤٦، ص ١٥٦.

الفصل الخامس

أبو العِبَر أمير الحمقى والمتحامقين

تثير شخصية أبي العِبَر الهاشميُّ مزيداً من التساؤلات التي ترتبط بمواقفه الفكرية والسلوكية، وانتقاله دفعة واحدة إلى عالم الهزل والعبث، حيث عرف بذلك، واشتهر به بين الناس، فصار علماً في ميدان الحماقة، ورأساً في سلك الرقاعة.

ولاشك فإن شخصية أبي العِبَر تمثّل النموذج الأكثر تعبيراً عن التحامق، وهو ليس النموذج الأرقى فحسب، وإنما النموذج الذي تمثل كل معطيات التحامق، وتراث الحمقى، ومن ثم، فإن صورة المتحامق بدءاً من عهد سَعْد القَرْقَرة منْدِر النُعمان بن المُنْذر ومضحكه[1]، وواضع دستور الحماقة برده على من قال له: «ما رأيناك إلا وأنت تزيد شحماً وتقطر دماً ، بالقول: كيف لا، وأنا آخذ ولا أعطي، وأخطئ ولا ألام، فأنا طول الدهر مسرور ضاحك»[2] وانتهاء بالعصر العباسي، حيث لا نجد من يعبر عن هذه الظاهرة بشمول مطلق كأبي العِبَر، الذي صاغ فلسفة التحامق في رؤية راسخة ومواقف عملية تربط بين المظهر والمخبر، وتقرن ذلك بالقول والفعل، فهو شخصية وظّفت طاقاتها الإبداعية في هذا الجانب، ودلّت على معاناة الشرائح الاجتماعية، وفئات المثقفين والأدباء، عبر رصد التحولات العاصفة، والتبدلات الطارئة، وطرق التأثر والتأثير بين الأديب والمجتمع في نطاق العلاقات الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية.

بادئ ذي بدء لا بدَّ من الإشارة إلى أن المعلومات التي تناقلتها المصادر الأدبية عن بعض جوانب سيرته الشخصية، والأدبية على قدر كبير من التضارب والتناقض، فلا تكاد تلك المصادر تتفق على تحديد اسمه، وسيرته، وأدبه، بالرغم من أنه عاش في مرحلة متأخرة، توفّرت فيها كل أسباب التدوين، وقد يكون تعليل هذا التناقض إلى الرغبة في طي سيرته، وطمس معالمها لأسباب اجتماعية على وجه التحديد، ولذلك سوف نحاول استخلاص الإطار العام لوجوده، والكشف عن نوازع شخصيته المتمردة، الساخطة من خلال تقاطع الأخبار، وتحليلها وسبر مضمونها ومحتواها، فمن هو أبو العِبَر الذي نتحدث عنه ونسعى للاقتراب من عالمة الأدبي وسيرته الشخصية؟.

- **مدخل لغوي :**

وقبل الإجابة على ذلك، نرى ضرورة التوقف عند الحماقة، والإحاطة ببعض جوانبها اللغوية والاجتماعية، لنتمكن من وضعها في سياقها التاريخي والفكري والاجتماعي، ففي اللغة الحمق: «ضد العقل، ونقيضه، وقلته، يقال: حَمُقَ، يَحْمُقُ حُمْقاً، وحَمَاقة، وحُمق، وانْحَمَقَ، واستحمقَ: إذا فَعَل فعِل الحمقى، ورجل أحمق وحَمِق بمعنى واحد، وحَمِقَ يَحْمُقُ حُمْقاً فهو حُمْقُ، ونسوة حُمُقٌ، وحَمْقَى، وحكى سيبويه: حُمْقان، وأتاه فأحمقه، وجده أحمق، وأحمق به، واستَحمَقْتُه: أي أعددته أحمق، ويقال أيضاً: استحمق الرجل: إذا فعل فِعْل الحمقى، ويروى: استحمق وتحامق فلان: إذا تكلف الحماقة»(٣).

ويفسر صاحب غرر الخصائص معنى الحمقِ بقوله: «هو قلّة الإصابة، ووضع الشيء في غير الموقع الذي وضع له، وهو فقدان ما يحمد من العاقل»، وكان ابن الأعرابي يرى أن «الحماقة مأخوذة من حمقت السوق: إذا كسدت» فكان الأحمق بهذا المعنى «كاسد العقل والرأي» فلا يشاور، ولا يلتفت إليه»(٤).

ويفسر لنا هذا التعدد في شرح معنى الحماقة كثرة أسماء الأحمق وصفاته، كما ترد في معاجم اللغة، ومصادر الأدب، حتى قيل: «لو لم يكن من فضيلة للأحمق إلا كثرة أسمائه لكفى»[٥] ومن ذلك ما أوردته المعاجم اللغوية، ومنها: المَعْتُوه، الأَخْرَقُ، المَائِقُ، الرَّقِيعُ، المُرقعان، المَمْسُوسُ، المُخَبَّلُ، الأَنْوكُ، البُوْهَةُ، العَرَهاةِ، الأَوْلَقُ، المَهْوُوس، الهِلْباجة، الهَجَاجَه، الرَّشاع، الزَّهدان، المِلْغُ، المَأْلوس، الأَهْوجُ، الهَبَنْقَع»[٦].

على أن ما يهمنا في هذا الموضوع، وما له صلة بما نذهب إليه في سيرة أبي العِبَر، هو ضرورة أن نميّز بين الحماقة كطبع، أو جبلّة ينشأ عليها الإنسان، وبين التحامق أو التجانن كسلوك مقصود لغاية معينة، ذلك أن المتحامق شخص: "يحرّف الأشياء عن مواضعها مع تيقنه أن ذلك صواب»[٧]، وهذا شأن من يظهر التجانن، وهو غير مجنون، والمتحامق بهذه الدلالة هو ما نذهب إليه في تحليل شخصية أبي العِبَر بصفته واحداً من أمراء التحامق في عصره.

● **سيرته الشخصية :**

وحين نعود إلى سيرة أبي العِبَر نجد الصُّوْلِي يقول عنه في كتابه أشعار أولاد الخلفاء: «هو أبو العَبّاس محمد بن أحمد، ويلقب حمدونا الحامض بن عبد الله بن عبد الصَّمد بن علي بن عبد الله بن العَبَّاس، المستوي في أول عمره منذ أيام الأمين، وهو غلام إلى أن ولي المُتَوكّل»[٨] هاشمي من بني العباس. ويخالف هذا الإجماع في ذكر اسمه ابن المُعْتز، والخَطيب البَغْدادي، وبعض المصنفين الذين ترجموا له، فذكروا أن اسمه «أحمد بن محمد»[٩] على أن تلك المصادر تتفق في أن كنيته «أبو العَبَّاس» ثم عدل عنها بعد انتقاله إلى الحماقة، فصارت «أبا العِبَر» وهنا ينبثق الخلاف مرة أخرى تارة حول ضبطها بالشكل، وتارة حول الزيادة فيها.

فأكثر المصادر تثبتها بالكسر «العِبَر»[١٠] وتخريج ذلك من «العِبَرة» أي الاعتبار والاتعاظ، وكأن المقصود منه أن العاقل حين يتأمل مواقف أبي العِبَر، ويراقب سلوكه، وتصرفاته يعتبر بذلك فلا يسف إلى هذا المستوى من السلوك، كيلا يكون في عرف الناس مجنوناً أو أحمق، فيكون مثاراً للسخرية، والاستهزاء.

ولكننا نجد ضبطاً آخر للكلمة بالفتح «العِبَر» كما في معجم الشعراء للمَرْزُبَاني، وتاريخ بغداد للبغدادي[١١]، وقد جاء ذلك أيضاً في القاموس المحيط «للفَيْرُوزآبَادي»، حيث ورد: «وأبو العِبَر هازل خليع»[١٢]، وللوهلة الأولى قد لا نهتدي إلى تخريج المعنى، مع أنه الأقرب إلى التفسير الاجتماعي، واللغوي بآن واحد، فالأصمعي يفسر معنى ذلك قائلاً: يقال: «يا عَبَرُ، ومعناه: أنه يأتي بما يعبر العين، أي يبكيها، والعِبَرة: الدمعة، وقال غيره: العِبَر: الحزن، يقال: فلان عَبَرة، وعبران، وامرأة عَبرة، وعَبَرى، فكأنه غمّ وحزن لأهله»[١٣].

وإذا كان المعنى السابق بالكسر، ممكن ضمن سياق دلالته على الاعتبار بما يقع منه من تصرفات خرقاء، فيحذر منها العاقل، أو بما يمكن أن يستخلص من أقواله، وتصرفاته من نصائح على طريق أخذ الحكمة من أفواه المجانين، فإن المعنى الثاني بالفتح وارد جداً، وهنالك الكثير من المواقف التي تعززه ومنها: أن أهله كانوا في غم وأسى مما يجلبه عليهم من الحماقات، والرقاعات، وقد روى جحظة أنه رأى أبا العِبَر بسر من رأى وكان أبوه أحمد الملقب حمدونا الحامض كما ذكر: «رجلاً صالحاً، وكان لا يكلمه، فقال له بعض إخوانه: لم هجرت ابنك قال: فضحني كما تعلمون، بما يفعله بنفسه، ثم لا يرضى بذلك حتى يخجلني، ويؤذيني، ويضحك الناس مني»[١٤].

وقد ابتدع أبو العِبَر مذهباً لم يسبقه إليه أحد، إذ اختار لنفسه كنية بعد تحامقه، هي أبو العِبَر، وكان يزيد فيها في كل سنة حرفاً ، فمات وهو: «أبو العِبَر، طرد، طبك، طلياري بك، بك، بك»[١٥]، وهنالك روايات أخرى في نص هذه الكنية[١٦]، واختلاف كلماتها، وفي بعض الروايات أنها صارت «أبو العِبَر طرد نرز لو حمق مق»[١٧].

ويشير الصُّولِي نقلاً عن أبي الفَرَج الأَصْبَهاني، أن ولادة أبي العِبَر كانت بعد خمس سنين من خلافة الرشيد[١٨]، وأنه عمّر إلى خلافة المُتوكّل، وقد بويع الرَّشيد بالخلافة، كما يقول يَاقوت الحَمَوِي: «سنة سبعين ومائة»[١٩]، ومن المؤشرات العامة على عمر أبي العِبَر، وسنّه أنه كان ناضجاً في زمن المَأمون، ويذكر أنه عاش إلى أيام المُسْتعين بالله[٢٠]، ويقال: إنه نيف على الخمسين[٢١]، وكان موته كما يذكر الكَتَبِيُّ بعد الأربعين ومائتين[٢٢]، أو بحدود سنة ٢٥٠هـ كما يقول ابن النُّديم[٢٣].

وجاء في سبب موته أنه: قتل في قصر ابن هُبَيْرة، وقد خرج لأخذ أرزاقه، قتله قوم من الشيعة، «سمعوه تناول علياً عليه السلام، فرموا به من فوق سطح خان كان بائتاً عليه، فمات، وذلك في سنة خمسين ومائتين في خلافة المستعين بالله»[٢٤] وفي رواية أخرى أنه غرق في بعض آجام الكوفة: وذلك «أنه خرج إلى الكوفة ليرمي بالبندق مع الرماة من أهلها في آجامها، فسمعه بعض الكوفيين يقول في علي صلوات الله عليه قولاً قبيحاً استحل به دمه، فقتله في بعض الآجام، وغرّقه فيها»[٢٥].

وما نراه أن تاريخ موته لم يجزم به إلا على لسان ابن النَّديم، وجاراه في ذلك يَاقوت الحَمَوِي، أما المصادر الأخرى فذكرت ذلك على وجه التقريب، وفي ذلك ما يجعل عبارة الصولي عن عمر أبي العِبَر، الذي نيف على الخمسين غير دقيقة، وهي في كل الحالات أقل بكثير مما يذكر، أما سبب موته كما ورد فهو أمر لا نستطيع أن نأخذ به حيث لا نجد دافعاً مباشراً يحرضه على اتخاذ هذا العداء، وقد يكون موته جاء على أيدي أحد أقربائه من العباسيين تخلصاً من حماقاته، وما تسببه لهم من مضايقات بين الناس، فنسب ذلك إلى الشيعة تمويهاً وتضليلاً، وهذا مثال آخر على مدى الاختلافات الكثيرة التي تتعلق بكل جوانب شخصيته، وسيرة حياته وأدبه.

● **أبو العِبَر الشاعر :**

ولد أبو العِبَر في أسرة ذات مكانة اجتماعية وعلمية، فأبوه أديب حافظ للحديث والسنة، وكان هو أديباً شاعراً لم يترك صنعة إلا أخذ منها بطرف، ومن يتأمل حياة أبي العِبَر الشخصية منها والأدبية يجد أن هذه الحياة مرت بطورين متناقضين سلوكاً وفكراً، أولهما طور الجد، والعقل، وهو ما لا نعرف عنه إلا الشيء القليل، الذي لا يسمح بتكوين فكرة واضحة عنه، وثانيهما طور التحامق والتجانن، والانصراف إلى العبث والمجون.

والإشارة إلى تحامقه ترد في أكثر من مصدر، وأنه كان جاداً إلى زمن "ولاية المتوكل»[٢٦] ولا نظن أن هذا التحديد كان صائباً، فقد رويت لأبي العِبَر بعض مواقف التحامق التي اشتهر بها زمن المأمون حتى قيل: «ألا يأنف الخليفة لابن عمه هذا الجاهل مما قد شهر به، وفضح عشيرته، أفلا يردعه ويمنعه من سوء اختياره»[٢٧] ويذكر أن المَأمون «حبسه على تحامقه، وقال: "هذا عار على بني هاشم، فصاح في الحبس: نصيحة لأمير المؤمنين، فأخبروه، فاستحضره، وقال: هات نصيحتك، فقال: الكشكية – أصلحك الله – لا تطيب إلا بكشك، فضحك منه، وقال: أرى أنه مجنون، فقال له أبو العِبَر: إنما امتخطت حوت، فقال: ويحك ما معنى قولك؟ فقال: أصلحك الله، زعمت أنني مججت نون، وإنما امتخطت حوت، فأطلقه، وقال: أظنني في حبسك مأثوم، قال: لا، ولكنك في ماء بصل، فقال: أخرجوه عني، ولا يقم في بغداد، فهذا عار علينا»[٢٨].

وبالرغم من ذلك استمر أبو العِبَر على نهجه المتحامق، واتخذ من (سر من رأى) ساحة لمجالسه المتحامقة، حتى إذا ما سنحت له الفرصة تسلل إلى بغداد من جديد، وقد ذكر أنه قدم إليها أيام المستعين، وجلس للناس، فبلغ إِسْحَاق بن إبراهيم الطَّاهري ما فيه أبو العِبَر من الخلاعة والمجانة، وإظهار الحماقة، فأمر بحبسه، فكتب إليه رقعة يذكر فيها أنه تائب، ويسأله أن يخرجه من الحبس، حتى يعلمه

بأنه يعرف رقية العقرب، فيعلمه إياها، وأنه ليس في الدنيا مثلها، فأحضره، وقال له: هات علّمنا رقيتك. قال: على أن توثق أنك لن تعرض لي بعدها، فوثق له بذلك، فقال له: إذا رأيت العقرب، فتناول النعل، واضربها ضربة شديدة، فإنها لا تعود تتحرك، فقال إسحاق: خلوا عنه، فإنه لا يفلح أبداً»[٢٩] وفي بعض الروايات أنه قال: «أخرجوه عني إلى لعنة الله، ولا يقيم ببغداد، فأرده إلى الحبس، فعاد إلى سر من رأى»[٣٠] مما يؤكد أن تحامق أبي العِبَر يرجع إلى ما قبل عهد المتوكل، وأنه ربما كان يخلط الجد بالهزل في بعض الأحيان، قبل أن يهجر العقل، ويركن إلى الحماقة بشكل نهائي في عهد المتوكل، لأسباب ذاتية، وأخرى عامة، قد يكون من بينها اهتمام المتوكل بالمتحامقين وتقريبه إياهم بشكل واسع على نحو ما يشرحه لنا المَسْعُودي قائلاً: «وكانت أيام المتوكل أحسن أيام، وأنضرها من استقامة الملك، وشمول الناس بالأمن والعدل، ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل، مما استفاض في الناس تركه إلا المتوكل، فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له[٣١]، ويذكر المَسْعُودي أن أغلب خواص المتوكل وأكثر رعيته جارته في سلوكه هذا، ومع اعتراضنا على هذا الرأي من حيث أن المتوكل لم يكن السابق في هذا المضمار، إلا أننا نوافق المسعودي في توسع المتوكل بتقريب هؤلاء المتحامقين أكثر من غيره، إذ اتخذ من المندرين حاشية له، فكانوا ندماءه وسماره كما تذكر مصادر الأدب، وكتب الأخبار، ومنهم : «الجَمَّاز، وأبو الشِّبل، وأبو العَيْناء، وعُبَادة المُخَنَّث، والصَّيْمرِي، وأبو العِبَر، والكَتَنْجِي»[٣٢]، الذي قيل: «إنه قد خلف أبا العِبَر على الحماقة بعد موته»[٣٣] إذ كان الحمقى يؤمرون عليهم في العادة واحداً منهم، كما قال أبو العجل الشاعر المتحامق[٣٤]:

وَأَصْبَحْتُ في الحَمْقَى أَمِيْراً مُؤَمَّرَاً ... ولا أَحَـدٌ في النَّاسِ يُمْكِنُهُ عَزْلي

وَصَـيَّرَ لـي حُمْقِي بِغَالاً وغِلْمَةً ... وكُنْـتُ زَمَانَ العَقْلِ مُمْتَطِياً رِجْلي

والمصادر التي تحدثنا عن أبي العِبَر زمن الجد، والعقل تذكر أنه كان أديباً، شاعراً، حافظاً للأخبار، قال فيه جَحْظة: لم أر أحفظ منه لكل عين، ولا أجود شعراً، ولم يكن في الدنيا صناعة إلا وهو يعملها بيده، حتى لقد رأيته يعجن ويخبز»(٣٥)، وبالرغم من ذلك «كان في نهاية النصب واللعنة»(٣٦)، فأدرك عندئذ «أن الحماقة والهزل أنفق على أهل عصره»(٣٧) فمال إليها، وكسب بها «أضعاف من كسبه كل شاعر في عصره بالجد»(٣٨) وهكذا يتجلّى بشهادة أدباء عصره أنه أديب فاضل، لكنه رأى الحماقة «أنفق وأنفع له، فتحامق»(٣٩) وهذا ما أكده ابن المعتز بقوله: «وكان من أدب الناس إلا أنه لما نظر إلى الحماقة، والهزل انفق على أهل عصره أخذ منها، وترك العقل، فصار في الرقاعة رأساً»(٤٠).

وتعليل انتقال أبي العِبَر إلى التحامق يعود بنا إلى أسباب التحامق ودوافعه التي يمكن استخلاصها من خلال سير بعض الأدباء المتحامقين، والمتغافلين والمتجاننين، وما يرد في اعترافاتهم الذاتية، وفي مقدمتها: التكسب بالتحامق، والنقد الاجتماعي والسياسي، وكشف الأخطاء والتشهير بالنواقص والعيوب، والنجاة من المآزق(٤١)، بالإضافة إلى بعض الدوافع الذاتية، والأسباب الخاصة، كالقول مثلاً: «إنه في شعره الجاد لم يستطع أن يجاري شاعرية أبي تَمَّام والبُحْتري وأبي السِّمْط، وابن أبي حَفْصة»(٤٢)، فأراد أن يبتدع نهجاً خاصاً في التحامق يكون فيه رأساً لا تابعاً مغموراً، وهذا التفسير بحد ذاته يشير إلى أزمة الفكر، ومعاناة الأدباء حين لا تتسع الساحة الأدبية والاجتماعية إلا لمجموعة أسماء لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وهو لا يكفي لتعليل انتقاله بمعزل عن الظاهرة في إطارها العام، وتعبيرها عن التحولات الاجتماعية، وزهد الناس في الجد، وإقبالهم على الهزل، وطلبهم التسلية واللهو، مما أدى إلى كساد الأدب، وخيبة الأدباء، كما قال ياقوت الحموي عن أبي العِبَر: «وكان في أول أمره يسلك في شعره الجد ثم عدل إلى الهزل والحماقة، فنفق بذلك نفاقاً كثيراً، وجمع به ما لم يجمعه أحد من شعراء عصره المجيدين»(٤٣).

ومما يروى في هذا المجال أن مناظرة جرت بين أبي العِبَر وبين الصَّيْمَرِي، وكان هذا مؤرخاً وفلكياً وأديباً انخرط في أواخر أيامه في سلك الحماقة والرقاعة، ومال إلى فئة المتحامقين، حيث أنّب الصيمري أبا العِبَر، بقوله: «ويحك إيشٍ يحملك على هذا السخف، الذي ملأت به الأرض خطباً وشعراً، وأنت أديب ظريف، مليح الشعر؟، فرد عليه أبو العِبَر: يا كشخان أتريد أن أكسد أنا، وتنفق أنت»(٤٤)، ويعزز هذا الموقف ما يقال في تفسير انصرافه عن الجد، وإقباله على العبث بما رواه الحُصَرِي في جمع الجواهر إذ قال: ولما استقرت الخلافة للمعتز بالله شخص إليه أبو العِبَر من ولد عبد الصمد بن علي، فهنأه بالخلافة، وتعرض لصلته بالجد، وهجا المستعين كما فعل البحتري في قصيدته التي أولها:

يُجَانِبُـــنَا فـــي الحُبِّ مَنْ لا نُجَانِبُهْ ... ويَـــبْعُدُ مِنَّا في الهَوَى مَنْ نُقَارِبُهْ

فلم يقبل عليها، فعمل أبو العِبَر قصيدة مزدوجة كلها هزل من غير تقديم ولا إعراب منها قوله:

يــــا أحْمَـــــدُ الرَّقِـــيعْ ... ومَـــــنْ أكلُـــكَ الرَّجِـــيعْ
أتَنْسَـــــى مَـــتى كـــانْ ... نَصِــــيرُكَ قَهْـــرَ مَـــان
فَيَأتِـــــيكَ بالسُّــــويقْ ... مِـــنَ السُّـــوقِ والدَّقِـــيقْ
فَصِـــرْتَ الآنَ فـــي الـــدَّارْ ... علـــى رُتْـــبةِ الـــبزَّارْ
أمـــا تَعْلَـــمُ يـــا فَـــارْ ... بـــأنَّ اللهَ يَخْـــتَارْ
ويُعْطِـــي غَـــيرَكَ المُلْـــكْ ... عَزِيـــزاً يَرْكَـــبُ الفُلْـــكْ

وفيها مالا يذكر من حماقات واختلال، وبرد، وانحلال، وكلام غث مرذول، وضعيف مهزول، فضحك المعتز منها، وأمر له بألف دينار(٤٥)، وكان كما يذكر ابن المُعْتز «يمدح الخلفاء، ويهجو الملوك بمثل هذه الركاكة»(٤٦)، وقد كسب كما يذكر أبو الفرج الأصبهاني «في أيام المتوكل مالاً جليلاً، وله فيه أشعار حميدة

يمدحه بها، ويصف قصره وبرج الحمام، والبركة، كثيرة المحال، مفرطة السقوط، لا معنى لذكرها، سيما وقد اشتهرت في الناس»[٤٧]، وإلى جانب ذلك كان المتوكل يرمي به في المنجنيق إلى الماء، وعليه قميص حرير، فإذا علا في الهواء صاح الطريق الطريق، ثم يقع في الماء فتخرجه السبح، وكان المُتوكّل يجلسه على الزلاقة فينحدر فيها حتى يقع في البركة، ثم يطرح الشبكة، فيخرجه كما يخرج السمك، ففي ذلك يقول في بعض حماقاته:

وَيَأْمُرُ بِيَ المَلِكْ فَيَطْرَحَنِي فِي البُرَكْ

وَيَصْطَادُنِي بالشَّبَكْ كَأَنِّي مِنَ السَّمَكْ

وَيَضْحَكُ لِي: هَكْ هَكْ[٤٨]

والواقع أن هذا الإغراق في مواقف التسلية، الإسفاف غير المقبول في الشعر تعبير عما وصلت إليه معايير التلقي والرواج الأدبي في بعض البيئات الرسمية، وفي ذلك دلالة على انحراف القيم الجمالية والفنية، وامتهان مكانة الشعر، ومنزلة الشعراء، بما يعكس في جوهره طبيعة الظروف والملابسات غير المنطقية، التي قادت إلى انصراف الشعراء عن الجد، وإقبالهم على اللهو الفارغ من المعنى والجمال.

وقد لاحظنا كيف أعرض الخليفة عن قصيدة البحتري الجميلة، وأشاح عما يسير في فلكها من إبداع، ثم أقبل على هذه القصيدة، التي ليس لها من الشعر حظ أو نصيب، فأجزل لأبي العِبَر عليها العطاء، وهكذا صار الشعر بضاعة، إذا أردت لها الرواج فما عليك إلا أن تراعي أذواق الآخرين المتحكمين في شراء هذه البضاعة حتى لو كانت أذواقهم فاسدة وسقيمة.

وضمن هذا السياق يكون أدب المتحامقين، ومنهم أبو العِبَر وأقرانه كأبي السواق وأبي الصبارة وأبي الغول وسواهم[٤٩]، وثيقة تدين اختلال القيم، وتردي

الأوضاع في عصرهم، وتكشف عن مسار التحولات القائمة آنذاك، والتي يستحيل من دون الوقوف عليها إعطاء المبررات التي دفعت هؤلاء الأدباء والشعراء إلى هذا المستوى من السلوك والتعبير، فالحمقى ليسوا بجهلاء ولكنهم يتجاهلون، وهم بالأحرى ليسوا بحمقى، ولكنهم يتحامقون مجاراة للواقع، وتمشياً مع ظروف عصرهم كما يقول أبو الفرج في حديثه عن أبي العِبَر: «إنه ليس بجاهل، وإنما يتجاهل»[٥٠].

● **شعره الجاد :**

وقبل الانتقال إلى استعراض حماقاته، والوقوف على مختارات من شعره الهزلي، ونوادره نرى أن نستدل على ملامح شاعريته من خلال قراءة سريعة فيما نظمه من شعر في أغراض شتى، ومن خلالها يمكن القول بشكل أولي: إن هذه النصوص لا تحلق في مستويات شعراء القمم، كما يقال، وليس له نفسهم الشعري الطويل، ولكنها بالتأكيد لا تهبط إلى مستوى الإسفاف أو الابتذال.

فأبو العِبَر شاعر ذو خطرات شعرية وقادة، طريف المعاني بليغ العبارة، حسن التراكيب والصياغات، وشعره أبعد ما يكون عن النظم البارد، الغث، ففيه تسري روح دافئة، ولغة مشرقة، ولهذا قيل عنه: «إن له أدباً صالحاً، وشعراً طيباً»[٥١]، على أن أبا العِبَر نفسه يطلق رأياً في طبيعة الإبداع الشعري، يفهم منه أنه يكره الموهبة غير المكتملة، ويمقت أنصاف المواهب، ولذلك قال مخاطباً مدركاً بن محمد الشيباني: «بلغني أنك تقول الشعر، فإن قدرت أن تقوله جيداً جداً، وإلا فليكن بارداً بارداً مثل شعر أبي العِبَر، وإياك والفاتر، فإنه صفع كله»[٥٢].

وشعر أبي العِبَر مجموعة مقطوعات شعرية موجزة، لا إطالة فيها، ولا إسهاب، يركز المعنى في أبيات قليلة، ولا يخرج عما هو مألوف من أغراض شعرية في عصره، فهو يفخر، ويتغزل، ويهجو، ويذم.

وفخره قليل، ولكنه عذب الوقع، عميق التأثير، يصدر فيه أبو العِبَر عن ألم ممزوج بمشاعر الاعتداد بالذات، ويبدي الشاعر تجلداً في وجه الظروف، وتماسكاً إزاء المقادير، فهو صبور على المحن والشدائد، غير سريع إلى الشكوى، ولا كافر للنعم والأفضال، فيقول[٥٣]:

لا أقَـــــولُ الله يَظْلِمُنـــــــي	كَــيفَ أشْــكو غَــيرَ مُــتَّهَمِ
وإذا مـــا الدَّهَـــرُ ضَعْضَـــعَني	لـــم تَجِدْنـــي كافــرَ الـــنِّعَمِ
قَنِعَــتْ نَفْســي بِمَــا رُزِقِــتْ	وتَنَاْهَــتْ فــي العُــلا هِمَمِي
لــيْسَ لــي مَالُ سوى كَرَمي	وبـــهِ أمْنـــي مِـــنَ العَــدَمِ
ولَبِسْـــتُ الصَّـــبْرَ سَـــابِغَةً	فَهــي مِــنْ فَرقِــي إلى قَدَمِي

أما غزلياته فهي تفيض رقة، وعذوبة، وهو يبرع في تصوير مشاعر الحبيب، الذي يزور خلسة، ويصف اضطرابه، وقلق باله، وخشيته من عيون الشامتين، والرقباء الحاسدين في أبيات رائعة كقوله[٥٤]:

بِأبـــي مَـــنْ زارَنـــي مكتتـــباً	خَائِفَـــاً مِـــن كُـــلِّ حِـــسٍّ، جَزِعَا
زَائـــرُ نَـــمَّ علـــيهِ حُسْـــنُهُ	كَــيفَ يُخفِــي اللّــيلُ بَــدْراً طَلَعَا
أمْهَــلَ الغَفْلَـــةَ حـــتَى أمْكَنَـــتْ	ورعـــى الحـــارسَ حـــتى هجعـــا
ركـــبَ الأهـــوالَ فـــي زورتـــه	ثُـــمَّ مـــا سَـــلَّمَ حـــتَّى وَدَّعَـــا

وأبو العِبَر يخفي في جوانحه قلباً رقيقاً، ونفساً صافية يعذبها الحب، وتمزقها الأشواق، وغالباً ما يترجم لنا مشاعر ذاته، وخفقات قلبه ببيتين أو أكثر، فيستوفي المعنى على أكمل وجه، ومن أقرب طريق، وهو في هذا المنحى الوجداني طفل يعذبه الحب، وتضنيه عذاباته الكاوية، فيقول بما تغنت به علية بنت المهدي في بغداد[٥٥]:

أبكِــي إذا غَضِــبَتْ حتَّى إذا رَضِيَتْ بَكَيْــتُ عِنْدَ الرِّضَى خَوْفَاً من الغَضَبِ
فالمَوْتُ إنْ رَضِيَتْ، والمَوْتُ إن غَضِبَتْ أنَّــى يُــرجَى سِــلُوْ، عِشْتُ في تَعَبِ

وأبو العِبَر في قصائده الغزلية لا يهتم كشعراء الغزل الآخرين بمحاسن المحبوب، ومفاتنه، إنه يصف المعاناة، والأشواق، والمشاعر، ويركز على الناحية المعنوية في التعبير عن علاقة الحب أكثر من وقوفه عن الجانب المادي، أو الجسدي، ويرى أنه بدون الحبيب ضعيف، وعاجز والحب هو الذي يملأ وجوده أملاً وبهجة، فلهذا نجده يشكو متضرعاً(٥٦):

إلَهِــي إنَّ بِــيْ فَقْــراً إليْهِ وأنــتَ ولِــيُّ إشْفَاقِي عَلَيْهِ
فإنْ لم تَقْضِ لي فيهِ بِصَبْرٍ يُسَــلِّيني فَدَعْنِــي في يَدَيْهِ

ويصف أثر الهوى في النفس، وما يفعله الحب في قلوب العاشقين فيقول في بيتين أنشدهما الأخفش(٥٧):

لو يكُوْنَ الهَوَى بِجِسْمٍ من الصَّخْــ ــرِ علــى أنَّ فــيهِ قَلْــبُ حَدِيدِ
فَعَــلَ الحُــبُّ فِــيْهِمِا مِثْلَ ما يَفْــ ــعَلُ شَــعْرُ اللِّحَى بِوَرْدِ الخُدُوْدِ

ومن الملاحظ في غزل أبي العِبَر أنه لا يسمي المحبوب، مكتفياً باستخدام ضمير الغائب المفرد، وهذه الطريقة كانت مألوفة في عصره، وقد تداولها الشعراء كثيراً، دون تحديد لجنس المعشوق، على أنه كان أحياناً يتغزل بالمرد من الغلمان، كما شاع بين أهل عصره، وقد أنشد له الأخفش أبياتاً يخاطب فيها غلاماً أمرد قائلاً(٥٨):

أيُّهــا الأمْــرَدُ المُوْلَــعُ بــالهَجْــ ــرِ أفِــقْ مَــا كَذَا سَبِيْلُ الرَّشَادِ
فَكَأنِّــي بُحُسْــنِ وَجْهِــكِ قد أُلبِــ ــسَنَ فــي عَارِضَيْكَ ثَوْبَ حِدادِ
وكَأنِّــي بَعاشِــقَيْكَ وقَــد بُــدِّ لْــتَ فــيهِمِ مــن خُلْطَــةٍ بِــبِعَادِ

حيــن تَنْبُو العُيُونُ عَنْكَ كَما يَنْـــ ـــقَــبِضُ السَّمْعُ عن حَديثٍ مُعَادِ
فَاْغْتَــنِمْ قَــبلَ أَنْ تَصِــيْرَ إلى كا نَ وتُضْــحِي فـــي جُمْلَةِ الأَضْدَادِ

وهجاء أبي العِبَر لاذع ساخر نحا به منحى يخالف المألوف في الهجاء، إنه هجاء فردي في منطلقه وغايته، فهو حيناً يدافع به عن نفسه وحقوقه، وحيناً آخر يكشف به الأخطاء والمغالطات، وأبو العِبَر يبحث في هجائه عن الموقف الذي يجعل من هجائه سلاحاً لا يرد، فيتخد من حادثة معينة سبباً ينال به من المهجو، ويلمح في ذلك دون أن يصرح، وقد كان موسى بن عبد الملك يماطله في دفع صلاته، فتعرض له أبو العِبَر قائلاً(٥٩):

حَـــتَّى مـــتى تَتَـــبرَّدْ وكَـــمْ وكَـــمْ تَـــرَدَّدْ
موســى أبرِ لْــي كِتابــي بِحَــقِّ رَبِــكَ الأُســـوْدْ

فهذه الأبيات أقرب ما تكون إلى العتاب أو التهديد الخفي، ولكن وقعها كان شديداً على موسى بن عبد الملك، الذي جزع منها واضطرب، وسأل أبا العِبَر كتمان الحال، وقضى له شغله، ودفع إليه صلاته.

ولأبي العِبَر هجاء لاذع في القضاة، الذين كانوا هدفاً لنقد الشعراء والكتاب في عصرهم، والمفارقة الساخرة التي يثيرها أبو العِبَر أن القاضي عين الحاكم التي ينظر بها، ويفصل ويرى، فإذا كانت هذه العين مصابة بأذى، فهل يمكن أن تستقيم أمور الناس، أوتنتظم؟ ، وهكذا ينتقل أبو العِبَر من الدلالة المباشرة لما يصيب العين من عور، لينتقل إلى الدلالة النفسية، والرمزية، ويرى في ذلك مؤشراً على الخراب، والهلاك فيقول هاجياً(٦٠):

رَأَيــتُ مِــنَ العَجَائِــبِ قَاضِــيِيْنِ هُمَــا أُحْدُوثَـــةٌ فـــي الخَافِقِيْـــنِ
هُمَـــا اقْتَســـما العَمَى نِصفَيْنِ فذَا كَمــا اقْتَســـما قَضَــاءَ الجَانِبِيْــنِ

هُمــا فَــأْلُ الــزَّمَانِ بُهلك يَحيى إذ افْتَــتَح القَضَــاءَ بأغوريَــنِ

وتَحْسِــبُ مِــنْهُما مَــنْ هَزَّ رَأْساً لِيَــنْظُرَ فــي مَوَارِيــثِ وَدَيْــنِ

كَــأنّكَ قَــد جَعَلْــتَ علــيهِ دَنّــاً فَتَحْــتَ بُــزالَهُ مــن فَــرْدِ عَينِ

وقد هجا بعض الأفراد، ومما يروى له قوله في ذم أحدهم[٦١]:

لــو كُنْتَ من شَيْءٍ خِلافِكَ لم تَكُنْ لِــتَكُونَ إلا مَشْــجَبَاً فــي مَشْجَبِ

لــو أنَّ لي من جِلْدِ وَجْهِكَ رُقْعَةً لَجَعَلْــتُ مِــنْها حَافَــراً للأشْهَبِ

وأبو العِبَر كما نستشف من بعض المواقف، يحرص على ابتكار المعاني الجديدة من خلال تأملاته، ومشاهداته ويلجأ إلى التورية، وتضاد المعاني، ويعيد صياغة المفردات في قوالب تغاير المألوف في استعمالها، بهدف الوصول إلى علاقات جديدة في التراكيب والمعنى.

ومن ذلك ما رواه أبو عبد الله الشّعيْرِي، وكان شاعراً من أهل بغداد فقال:«اجتمعت مع جماعة من الشعراء في مجلس نتناظر، ونتناشد ونتساءل ونعد شعراء زماننا، فمر بنا أبو العِبَر، فقلنا: هذا أيضاً يعد نفسه في الشعراء، فمال إلينا وقال: والله أشعر منكم وأعلم، فقلنا: قد اختلفنا في بيت فاشتبه علينا، فهل نسألك عنه؟ فقال: نعم، فسألناه عن معنى هذا البيت:

عَافَــتِ المَاءَ في الشّتَاءِ فَقُلْنَا بَــرِّدِيهِ تُصَــادِفِيهِ سَــخِينَا

كيف تصادفه سخينا إذا بردته؟ فقال: أخفي عليكم؟ قلنا: نعم. فقال: هو ليس من التبريد، وإنما صرف مدغم، ومعناه: بل رديه من للورود، فادغموا اللام في الراء كما في قوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم) قال: فاستحسنا ما فسره وأقررنا له بالفضل. فقال: إني أسألكم بيتاً كما سألتموني، فقلنا: سل. فقال: ما معنى قول القائل:

يَــا مَــنْ رَأى رَحْــلاً وَاقِفَــاً أحْــرَقَهُ الحَــرُ مَــن الــبَرْدِ

كيف يحرقه الحر من البرد؟،قال: فاضطربنا في معناه، فلم نخرجه، فسألناه عنه فقال: هذا قولي، وذلك أنني مررت بحداد يبرّد حديداً، فمسستُ تلك البرادة، فأحرقت يدي، وإنما البرد مصدر برد الحديد برداً، وليس هو من الشيء البارد، فأقررنا بفضل معرفته»[٦٢].

● **شاعر التحامق :**

ولكي نقرّب إلى الأذهان طبيعة التحامق في هذا الحيز تخصيصاً فإننا نقول: إن تحامق أبي العبَر أقرب ما يكون إلى الثورة السريالية سلوكاً وفكراً وإبداعاً، فإذا كانت السريالية كما يقول كامو: «تمرداً مطلقاً، وعصياناً كاملاً، وتخريباً منظماً، دعابة وعبادة اللامعقول، ووضع كل شيء موضع الاتهام»[٦٣]، فإن أبا العبَر قد جسد هذا المذهب، ووضع أسسه قبل السرياليين بقرون كثيرة، فهو مثال حي على ثورة الرفض والعدمية في عصره، وقد تجلى لنا ذلك في جوانب من سيرته، ومواقفه السلوكية، والإبداعية.

فأبو العبَر كان مهووساً سريالياً قبل أن تظهر فلسفة السريالية، إذ كان هو الآخر يضيق ذرعاً بالواقع، ويريد ثورة أياً كانت تخرجه من عالم الاختناق، والتسويات التي كان مرغماً على العيش فيها، وعندما لم يستطع الحصول على الأفضل، فضل الأسوأ، وكان في ذلك عدمياً في وقت مبكر، قبل أن يفهم العالم معنى السريالية.

وكما يقول السرياليون عن أنفسهم إنهم: «دعاة الهزيمة في أوروبا، وفي كل مكان»[٦٤]، فكذلك كان أبو العبَر شاهداً على زمن الهزيمة، والانكسارات في عصره، ولهذا كان بتحامقه يوقظ بذور الارتباك والإزعاج، ويعبر بوضوح وجرأة عن تمرده، وسخطه على كل ما يبدو مقدساً في نظر المجتمع الذي عاش فيه.

والواقع أننا يمكن أن نتفهم ثورة أبي العِبَر، وتحامقه من خلال الإضاءات الهامة التي رسمتها النصوص السريالية، ويمكن أيضاً أن نجد عبر ذلك الإطار المناسب لفهم مواقفه، وتحليل أدبه الذي لا يمكن أن نستوعبه في ظل المناهج، والدراسات التي تتجاهل هذه المعطيات، ولا تأخذ بها، وهكذا نتبين أن أدب أبي العِبَر المتاحمق تعبير على النفي، وتأكيد عدم التفاهم مع أي شيء «فالإنسان يقيم حقوقه المفقودة على المستوى المباشر، ودون أن يهتم بضرورات المنطق، ويعود إلى منابع الرغبة ذاتها، التي أقيمت معياراً أقصى»[٦٥]، هذا ما يتحدث به السرياليون، وهو ما عاشه أو عاش قريباً منه أبو العِبَر الهاشميُّ.

وللحقيقة فإن أبا العِبَر في انصرافه عن العقل إلى اللاعقل كان يدرك أن كل ما حوله لم يعد معقولاً، وهذا بحد ذاته يفسر لنا إقبال الناس عليه عندما تحامق، ومال إلى العدمية، والفوضى، فهو الأكثر من بين أدباء عصره قدرة على فهم ما يجري، وتمثله، وبلورته سلوكاً وإبداعاً.

وشعر أبي العِبَر في طور التحامق تعبير عن هذه المواقف مجتمعة، إنه ولع سريالي بالجزافي، وإصرار على إيجاده وابتكاره، وتحطيم لمقدسات المجتمع وأدبياته، كقوله في إحدى قصائده[٦٦]:

أَقَــرَّ الشُّــعَراءُ أَنِّــي ... وَمَــرُوْا فــي الحَرَمْــرَمْ

فَقَطَعْــتُ الــرَّأسَ مِــنْهُم ... ثُــمَّ جِلْــدَ القَــدِّ دَمْــدَمْ

فَعَمِلْـــنا مِـــنْهُ طَــبْلاً ... مِــن طُــبَوْلِ الخَــدِّ دَمْدَمَ

فَضَــرَبْنا بِـــهِ دَمْـــدَمْ ... ثُــمَّ دَمْــدَمْ ثُــم دَمْــدَمْ

عَجَــباً يــا قَــوْمُ مِنِّــي ... كُنْــتُ مَعْكَــمْ كَـــالْمَلْمَلْمْ

فأبو العِبَر في هذه الأبيات هشّم اللغة، وسخر بالتراكيب، وضرب المعنى، وخلط الصور دون أن يحفل بشيء من ذلك، وأقام علاقات من نوع يغاير ما هو سائر بين المفردات والصور، كقوله مثلاً[٦٧]:

الخَوخُ يَعْشَقُ وُكْنَةَ الرُّمَانِ والطَيْلَسانُ قَرابَةَ الخُفَانِ
يَامَنْ رَأى قَلْبي، فَعَرْقَبَ أذنَهُ فَشَممْتُ منهُ حُمُوْضَةَ الكَتّانِ

ولنا أن نتساءل هنا عن آلية الإبداع السريالي، وطقوسه التي كان أبو العِبَر يقوم بها، في صياغته لتلك النصوص العدمية، وشيء رائع هنا أن نقف على رأيه من خلال أقواله واعترافاته، فقد سئل مرة عن «المُحالات التي يتكلم بها أيُّ شيء أصلها؟، قال: أبكّر فأجلس على الجسر، ومعي داوة ودرج، فأكتب كل شيء أسمعه من كلام الذاهب، والجائي، والملاحين، والكارين، حتى يملأ الدرج من الوجهين، ثم أقطعه عرضاً، وألصقه مخالفاً، فيجيء منه كلام ليس في الدنيا أحمق منه»[٦٨]، ولا أظنُّ أبا العِبَر في طريقته هذه إلا قد صمم مقدمات الألعاب السريالية التي بات أمرها معروفاً الآن كما كشفت لنا مصادر السريالية.

وما يرويه أبو العِبَر يذكرنا بمقولة بريتون أن «من المسموح وضع عنوان قصيدة نحصل عليها بالتجميع المجاني قدر الإمكان، بعناوين وأجزاء عناوين مقصوصة من الصحف»[٦٩]، وهذا ما فعله أبو العِبَر في جلوسه على الجسر، وتدوينه الجمل والعبارات، ثم بقطعها وإعادة تركيبها من جديد للحصول على نصوص متحامقة أو سريالية.

ولأبي العِبَر أكثر من لعبة إبداعية في هذا المضمار، فمن ذلك مفهوم قلب الأشياء الذي يعطي للكلمات معنى عبر الدلالة الدعابية بتحريف الكلام إلى جهة لا يقصدها السائل، أو بإقامة علاقات غير مترابطة في السياق الجديد الذي وضعت فيه، ويتحدث أبو العِبَر عن أسلوبه الإبداعي هذا بقوله: «كنا نختلف، ونحن أحداث

إلى رجل يعلمنا الهزل فكان يقول: أول ما تريدون قلب الأشياء، فكنا نقول: إذا أصبح، كيف أمسيت، وإذا أمسي كيف أصبحت؟ وإذا قال: تعال: نتأخر إلى الخلف، وكانت له أرزاق تعمل كتابتها في كل سنة، فعمل مرة، وأنا معه الكتاب، فلما فرغ من التوقيع، وبقي الختم قال: أتربه، وجئني به فصببْتُ عليه الماء فبطل، فقال: ويحك لا تصحبني بعد اليوم، فأنت أستاذ الأستاذين»[٧٠].

ولكي تتضح دلالة القلب في حماقات أبي العِبَر نود أن نشير إلى أن التراكيب اللغوية التي يوردها ذات معنى واضح كوحدة مستقلة، ولكننا عندما نقرأ النص بمجمله نكتشف عبثية أبي العِبَر وتحامقه، وتحويله المعنى إلى غير ما يذهب إليه السائل، ومن ذلك أنه تعرض للمتوكل «وقد جعل في رجليه قلنسوتين، وعلى رأسه خفاً، وقد جعل سراويله قميصاً وقميصه سراويل، فقال: عليّ بهذه المُثلة، فدخل عليه فقال: أنت شارب؟ قال: ما أنا إلا عنفقة، قال: إني أضع الأدهم في رجليك، وأنفيك إلى فارس، قال: ضع في رجلي الأشهب، وانفني إلى راجل، قال: أتراني في قتلك مأثوم؟ قال: بل في ماء بصل يا أمير المؤمنين»[٧١].

ومن الواضح كيف قلب أبو العِبَر معاني كلمات «الشارب، والأدهم، وفارس» وأعطاها معنى آخر، أفرغ الأسئلة من مضمونها في إطار من الدعابة التي تجعلنا لا نستنكر هذه الطريقة التي أضفت على الموقف بشكل عام ما ينسجم وطبيعته بالتأكيد، ومن تحامقه في قلب الكلمات والمعاني قوله: «أما قبل، فاحكم بنيانك على الرمل، واحبس الماء في الهواء، حتى يغرق الناس من العطش، فإنك إذا فعلت ذلك أمرت لك كل يوم بسبعة آلاف درهم ينقص كل درهم سبعة دوانيق»[٧٢]، ونلاحظ كيف استخدم من حيث الصياغة عبارة /أما قبل/ والسائد في الكتب والمراسلات أن يقال /أما بعد/ وكذلك الأمر فيما يخص المعاني الأخرى، حيث أنها جاءت مناقضة لما ينبغي أن يكون، ومخالفة منطق الأشياء وجوهرها.

وكثيراً ما يلجأ أبو العِبَر في مجالس التحامق التي يعقدها للعامة في ساحات المدن إلى لعبة الأسئلة والأجوبة، ويشاركه في أدائها بعض أعوانه الذين يسهمون في خلق حالة من الضجيج والفوضى والاضطراب، وفحوى ذلك الأسلوب السريالي يقوم على استخدام «كم» الاستفهامية، مثلما يستخدم السرياليون «ما» الاستفهامية[٧٣]، وتكون المفارقة حين نحصل على إجابات تناقض الأسئلة، وتثير الارتباك في فهم تلازمها دون أن تفقد القدرة على الإثارة، والدهشة من هذا الترابط غير المنطقي الذي يفرضه أبو العِبَر.

ويقول السرياليون عن لعبة الأسئلة والأجوبة: «والذي يلفت الانتباه هنا هو أنه ما من واحد من الأجوبة المستحصل عليها يبدو للذهن، وكأنه خالٍ من المعنى، ومن أجل أن يحصل على هذه المعاني المختلفة، أو من أجل أن يقابلها على الفكر فقط أن يغير موقفه»[٧٤]، ولنتأمل هذا المشهد المتحامق لأبي العِبَر على ضوء هذه الرؤية السريالية، فقد سأله أحدهم في بعض مجالسة بين العامة: «يا أبا العِبَر لم صار دجلة أعرض من الفرات، والقطن أبيض من الكماة؟ فقال: لأن الشاة ليس لها منقار، وذنب الطاووس أربعة أشبار، وقال آخر: لم صار العطار يبيع اللبد، وصاحب السقط يبيع اللبن؟ فقال: لأن المطر يجيء في الشتاء، والمنخل لا يقوم به الماء؟ وقال آخر: لم صار كل خصي أمرد، والماء في حزيران لا يبرد؟ فقال: لأن السفينة تجنح، والحمار يرمح»[٧٥]، إن الجملة التساؤلية التي ترد في هذه المحاورة صحيحة المعنى «فالشاة ليس لها منقار» ولكن الموقف الدعابي الذي أقامه أبو العِبَر هو في اتخاذه من هذه الجملة إجابة على سؤال عن سبب كون دجلة أعرض من الفرات، وليس هنالك من سبب مباشر يربط بينهما، ولا يمكن أن يخطر في البال أن هذه الجملة، تقع رداً على سؤال كهذا.

هذه الألعاب السريالية التي عُرفت في عصرها على أنها ضرب من التحامق الذي لا طائل منه، كانت مقدمة لإيقاظ بذور الارتباك والانزعاج، ولكنها لم تُفهم على هذا الأساس، وما تزال النظرة السطحية إليها مستمرة بين الباحثين والدارسين المعاصرين.

لقد كان المجتمع يرى في مجالس التحامق، ونصوص أبي العِبَر مثالاً للتهريج والتسلية، وكان هو الآخر يحرص على خلق هذا الانطباع، إذ يجعل من مجالسه مسرحاً يعج بالمظاهر الغريبة كالضرب بالهواوين، لإثارة انتباه المتفرجين، وتغيير ملامح الشكل، وارتداء الألبسة بشكل مقلوب، وافتعال المواقف المضحكة والمثيرة، التي تجعل من أبي العِبَر نموذجاً للمهرج الذي يعرف كيف يتسلل إلى نفوس المشاهدين، والمتفرجين ليتسلل من ثم إلى جيوبهم وأموالهم.

ومما يذكر عنه في هذا الجانب، أنه «كان يجلس بسر من رأى، في مجلس يجتمع عليه فيه المجان يكتبون عنه، فكان يجلس على سلّم، وبين يديه بلاعة فيها ماء وحمأة، وقد سد مجراها وبين يديه قصبة طويلة، وعلى رأسه خف، وفي رجليه قلنسيتان، ومستمليه في جوف بئر، وحوله ثلاثة نفر يدقون بالهواوين، حتى تكثر الجلبة، ويقل السماع، ويصيح مستمليه من جوف البئر: من يكتب،عذبك الله. ثم يملي عليهم، فإن ضحك أحد ممن حضر، قاموا فصبوا على رأسه من ماء البلاعة إن كان وضيعاً، وإن كان ذا مروءة رشش عليه بالقصبة من مائها، ثم يحبس إلى أن ينفض المجلس، ولا يخرج منه حتى يغرم درهمين»[٧٦].

● **نوادره :**

ومما يضفي على شخصية أبي العِبَر طابعاً آخر من الجاذبية أنه كان من أصحاب النوادر والفكاهات، وإذا كانت طبيعة النادرة تختلف عن أداء مشاهد التحامق ومجالسه، فإن نوادر أبي العِبَر تصب في الغرض ذاته من حيث السخرية، والتهكم، والتعبير عن المشاكسة والانتقاد، وتغدو أحياناً طريقاً للنيل من شخص أو التعليق على موقف، دون أن ننسى أن من دواعي تقريب المتحامقين إلى الخاصة من رجال عصرهم هو امتلاكهم فن النادرة على ضوء ما مر بنا في أكثر من مكان.

ونوادر أبي العِبَر جزء من مكونات شخصيته الاجتماعية والأدبية، وقد ضاع أكثرها بضياع مؤلفاته التي كتبها في هذا الميدان، والتي ذكر ابن النديم منها: «كتاب الرسائل، وجامع الحماقات وحاوي الرقاعات، وكتاب المنادمة، واختلاف الخلفاء وأمراء، وكتاب نوادره وأماليه، وكتاب إخباره وشعره»[٧٧]، والتي لم نقف على شيء منها سوى ما احتفظت به مصادر الأدب الأخرى، وهو لا يعطينا تصوراً شاملاً عن طبيعة نوادره، ولكنه على كل حال يمدنا بجزء من ذلك التصور.

ليست مهمة النادرة الإضحاك دائماً، وأبو العِبَر يحوّل الموقف الجاد إلى موقف هازل بنوادره التي تحل قضية، وتعالج مشكلة، فمن نوارده أنه قال: «خرج أخي الصغير إلى أحمد بن أبي داؤد، فشكا إليه خلة، فأمر له بألفي درهم، فمضى أبي بعده، فشكا مثل ذلك، فلم يعطه شيئاً، فعرفت سر من رأى، فعرفني أبي خبره، فقلت له: قف معي عند باب ابن أبي داود، وكلِ الكلام إليَّ، فوقف معي، وقال: شأنك، فلما خرج، قلت: أصلح الله القاضي، هذا محمد بن عبد الله بن عبد الصمد الهاشميُّ، يسأل القاضي أن يلحقه بالأصاغر من ولده، فضحك، ولعنني أبي، وانصرف، فوجه إليه ابن أبي داؤد بثلاثة آلاف درهم، فقلت له: أعطني منها ألفاً، فوالله لولا ما لعنتي عليه، ما أخذت شيئاً أبداً»[٧٨]، وهذا يعني استحالة الوصول إلى النتيجة المرضية إلا في إطار هزلي يظهر التناقض في تصرف القاضي، ويبرز عدم منطقه، وهذا ما قدره أبو العِبَر، وكان مصيباً في اتخاذ النادة وسيلة لمعالجة الموضوع.

وعلى هذا النمط كانت تأتي بعض نوادره رداً مفحماً على خصومه، فيكيل لهم الصاع صاعين، ويقلب الموقف من الدفاع إلى الهجوم بقدرة فائقة، وذكاء وقاد، ويروى أن جعفر بن محمود الإسكافي، وكان وزيراً للمعتز قد منع أبا العِبَر جائزة له، وماطله في ذلك، ووبخه قائلاً: «عهدي ببني هاشم يأخذون الصلات بشرفهم، وعلومهم، وجدهم، وأنت تأخذ بالمحال، والهزل، فأنت عجيب من بينهم، فقال أبو العِبَر: صدقت، أنا عجيب من بينهم، كما أنت عجيب في أهل إسكاف كلهم نواصب،

وأنت من بينهم رافضي، وكان جعفر ينسب إلى ذلك، فدفع إليه الألف دينار، واستعفاه أن يعاود مثل ذلك»(٧٩)، والنادرة في هذا الموقف أعطت درساً بليغاً للوزير مضمونه أن الجميع يسكنون تحت سقف الإدانة، ولا يجوز التمادي في اقتناص هفوات الآخرين، والنادرة هنا نوع من المكاشفة الصريحة التي لا تماري ولا تموه، وتثير قصداً إلى الحقيقة دون مواربة والتواء.

على أن النادرة في أحايين أخرى تكون لدى أبي العِبَر تعليقاً على موقف طارئ، تثير من حوله الضحك، والتسلية، دون أن تكون لها خلفية انتقامية أو اتقائية، فالهدف منها يظل الإضحاك، والظرافة، والبراعة في التكيف مع الواقع القائم.

ويروي لنا جحظة أنه اجتمع وإخوانه مع أبي العِبَر في «براح أراد أن يبنيه داراً، فقال: «فأقبلنا نقدر البيوت، وأين موقعها، فبينا نحن كذلك ضرط بعض من كان معنا، فقال أبو العِبَر: مهما شككنا فيه فما نشك أن هذا الموضوع الكنيف»(٨٠)، فهي لقطة ذكية تدل على سرعة خاطر، وتصريف للموقف بدعابة ظريفة، وهذا النمط من النوادر يظل وثيقة تدل على رهافة حس أبي العِبَر، وقدرته على استلهام الأحداث، والتفاعل معها بطريقة آنية، لا تكلف فيها، ولا تصنع، وتشير أحياناً إلى مفارقات يمكن أن يقع بها الإنسان، وينقلب عليه الموقف، كهذه النادرة التي رواها الحصري في جمع الجواهر، قائلاً: «مرض رجل فجاء أبو العِبَر يعوده، وقد ثقل، فصاحت امرأته: من لي بعدك يا سيدي؟ فغمزها أبو العِبَر، وأومأ إليها، أنا لك من بعده، فلما مات الرجل، وأنفقت عدتها، تزوجها أبو العِبَر، فأقامت عنده حيناً ثم حضرت أبا العِبَر الوفاة فجاءه عواده، فصاحت: من لي بعدك يا سيدي: ففتح عينيه، وقال: لا يغمزها إلا من تكون أمه زانية»(٨١).

وهكذا تتبدى لنا في شخصية أبي العِبَر ومواقفه مفارقات مدهشة، لا تكشف عن ذاته كشخص بمقدار ما تكشف عن طبيعة عصره، وبنية مجتمع في أطوارها اللامعقولة، وإن ارتدت في الظاهر لباس العقل، وادعت مظاهره.

فأبو العبَر في سلوكه وحماقاته، يعكس صورة التفاعل السلبي بين المجتمع والأديب، فهو نموذج الضحية في تحولاته القسرية، وهو مثال الساخط والمشاكس في رفضه، وعدميته وثورته الفوضوية على كل ما يحيط به، من ثوابت ومقدسات.

وإذا كنا هنا لسنا بصدد إطلاق أحكام على شخصية أبي العبَر، وجدوى ما قام به وفائدته في إحداث الارتباك أو الإزعاج لما هو ساكن، وهادئ فيما حوله وزرعه بذور الفوضى، والتمرد في وسط كان يمل إلى الاسترخاء واللامبالاة، فإن شغب أبي العبَر، وسرياليته المبكرة تمنحنا أفضل وثيقة لقراءة عصره، قراءة نوعية في خصوصيتها، وتمنحنا الفهم الواسع لاستيعابه، والإلمام بدقائق مشكلاته، وتشعباتها التي تثير الالتباس في التصور والتفكير، ولكن هذا التحامق المقصود يجعلنا نمضي مع مقولة ديدرو المشهورة: «إنه من الأعماق الدفينة للاختلال يمكننا أن نتساءل عن العالم، وحقيقة الكائن»(٨٢).

والواقع أن أبا العبَر كان يأتي بكل ما يناقض العقل، في ثورته وتمرده، وتحطيمه للبنية الاجتماعية ، ومنظومة القيم والأعراف، وكان لا يتوانى عن الإتيان بكل ما ينقض ذلك، ترى هل كان عالم أبي العبَر معقولاً كي يُلام أبو العبَر على حماقاته؟ وهل أبو العبَر في حقيقة أمره، وطوية نفسه إنسان مجنون لا يعي، ولا يدرك أم أنه غير ذلك؟ تساؤلات تنم عن مرارة الإجابة، وتثير من التأمل والرثاء في أدب أبي العبَر وأقرانه أكثر وأعمق مما تثير من الإضحاك والتهريج، فلقد كان أدب هؤلاء وسلوكهم تعبيراً عن عمق التحولات الاجتماعية والفكرية، وصراع العقل والجهل، عبر عنه بوضوح وجلاء فكري شديد الكَتَنْجِي زعيم الحمقى وأميرهم بعد وفاة أبي العبَر عندما قال: «نحن في زمان رأى فيه العقلاء قلة منفعة العقل فتركوه، ورأى الجهلاء كثرة منفعة الجهل فلزموه، فبطل هؤلاء لما تركوا، وهؤلاء لما لزموا، فلا ندري مع من نعيش»(٨٣).

هوامش الفصل الرابع

١- الفاخر: أبو طالب المفضل بن سلمة، تحقيق عبد العليم الطحاوي، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠، ط١، ص ٧١، والقاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيرروز آبادي، دار الجيل، بيروت، مادة: قرقر.
٢- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر ١٩٦٥، ص ١٠٩.
٣- لسان العرب: ابن منظور، مادة حمق.
٤- غرر الخصائص الواضحة: أبو إسحاق برهان الدين الوطواط، دار صعب، بيروت، طبعة بولاق، القاهرة ص ٧٢، ونهاية الأرب في فنون الأدب: أحمد بن عبد الوهاب النويري، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ص ٣٥٣/٣.
٥- أخبار الحمقى والمغفلين: ابن الجوزي، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت ص ٢٨.
٦- عقلاء المجانين: الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٩-٢٣.
٧- غرر الخصائص الواضحة: الوطواط،، ص ١٧٨.
٨- أشعار أولاد الخلفاء: أبو بكر محمد بن يزيد الصولي، نشر دار المسيرة بيروت، ص٣، ص ٣٢، والفهرست: أبو الفرج محمد بن اسحاق بن النديم، تحقيق رضا تجدد، طهران، ١٩٧١، ص١٦٩، ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي، ١٢٢/١٧، وفوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ص ٣٠١، والوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق محمد بن إبراهيم، اعتناء س. د ترينغ، دار شتاينز فيسبادن، ١٩٧٤، ط ٢، ٤١/٢.
٩- طبقات الشعراء: عبد الله بن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، ص ٣٤٢، وتاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٤٠/٥.
١٠- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ط١، ١٩٦/٦، طبقات الشعراء: ابن المعتز ص ٣٤٢، معجم الأدباء: ياقوت الحموي ١٢٢/١٧.
١١- معجم الشعراء: أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق عبد الستار أحمد الفراج، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠، ص ١٨٤، تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٤٠/٥.

١٢- القاموس المحيط: الفيروزآبادي، مادة عبر.
١٣- الفاخر: المفضل بن سلمه ص ٨٨.
١٤- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩١/٢٠، أشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٢٧.
١٥- فوات الوفيات: الكتبي ص ٢٨٩.
١٦- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩١/٢٠، وأشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٢٧.
١٧- طبقات الشعراء: ابن المعتز ص ٣٤٢.
١٨- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩٠/٢٠، أشعار أولاد الخلفاء: الصولي ٣٢٣، ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي ١٢٣/١٧.
١٩- معجم الأدباء: ياقوت الحموي ١٢٣/١٧.
٢٠- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ١٢٣/١٧.
٢١- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ١٢٢/١٧.
٢٢- فوات الوفيات: الكتبي، ص ٢٩٨.
٢٣- الفهرست: ابن النديم، ص ١٦٩.
٢٤- الفهرست: ابن النديم، ص ١٦٩.، معجم الأدباء: ياقوت الحموي ١٧ /١٢٢.
٢٥- أشعار أولاد الخلفاء: الصولي، ص ٣٢٣.
٢٦- أشعار أولاد الخلفاء: الصولي، ص ٣٢٣.
٢٧- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، ٩٠/٢٠.
٢٨- فوات الوفيات: الكتبي، ٢٩٨/٣.
٢٩- طبقات الشعراء: ابن المعتز ص ٣٤٢، الوافي بالوفيات: الصفدي ٤٢/٢.
٣٠- أشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٢٩.
٣١- مروج الذهب: المسعودي ٨٦/٤.
٣٢- الفاخر: المفضل بن سلمة ص ٧١، ومجمع الأمثال: أبو الفضل محمد بن محمد النيسابوري الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار النصر، بيروت، ٩٤/١.
٣٣- الفهرست: ابن النديم ص ١٧٠.
٣٤- طبقات الشعراء: ابن المعتز ص ٣٤١.
٣٥- الوافي بالوفيات: الصفدي ٤٢/٢، الفهرست: ابن النديم ص ١٦٩.
٣٦- الفهرست: ابن النديم ص ١٦٩.
٣٧- طبقات الشعراء: ابن المعتز ص ٣٤٢.
٣٨- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩٠/٢٠، وأشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٣٠.
٣٩- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩٢/٢٠، وأشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٣٠.

٤٠- طبقات الشعراء: ابن المعتز ص ٣٤٢.
٤١ - مقالات في أدب الحمقى والمتحامقين: أحمد الحسين، دار الحصاد، دمشق ١٩٩١، ص ٨٨، ٩٥، ١٠١، ١٠٣، ١١٠.
٤٢- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، ٢/٩٠، وأشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٢٣.
٤٣- معجم الأدباء: ياقوت الحموي ١٢٣/١٧.
٤٤- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩٠/٢٠، وأشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٢٥.
٤٥- جمع الجواهر في الملح والنوادر: إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، تحقيق محمد علي بجاوي، مطبعة السعادة، القاهرة، ص ١٤، والرقيع: الأحمق، والرجيع: الروث والعذرة، والسويق: طعام يتخذ من الحنطة والشعير.
٤٦- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ٣٤٣.
٤٧- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩٠/٢٠.
٤٨- أشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٢٩، وفوات الوفيات: الكتبي ٣٠٠/٣، الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩٢/٢٠.
٤٩- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ٣٤٣.
٥٠- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩٠/٢٠.
٥١- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩٠/٢٠، وأشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٣٠.
٥٢- أشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٢٦.
٥٣- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩٠/٢٠، أشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٢٤، جمع الجواهر في الملح والنوادر: الحصري القيرواني ص ٨٢، والوافي بالوفيات: الصفدي ٤/٢، ضعضع: أنهك وأضعف، والسابغة من الدروع: الضافية، وهي التي تجرها في الأرض طولاً وسعة، والفرق: موضع فرق الشعر في الرأس.
٥٤- الفهرست: ابن النديم ص ١٦٩، ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي ١٢٣/١٧، ونمَّ عليه: وشى به، ودلَّ عليه.
٥٥- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩٠/٢٠، جمع الجواهر في الملح والنوادر: الحصري القيرواني، ص ٨٣.
٥٦- أشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٣٢.
٥٧- معجم الأدباء: ياقوت الحموي ١٧/ ١٢٦.
٥٨- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩٠/٢٠، والوافي بالوفيات: الصفدي ٤٣/٢، فوات الوفيات: الكتبي ص ٣٠٠، وعارضا الإنسان: صفحتا خده.
٥٩- معجم الأدباء: ياقوت الحموي ١٧ /١٢٧.

٦٠- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٢٠/٩٠، والوافي بالوفيات: الصفدي ٢/٤٣، والدن: إناء من فخار، والبزال: الشق.

٦١- معجم الأدباء: ياقوت الحموي ١٧/١٢٦، والمشجب: أداة تعلق عليها الثياب، والحافر: للخيل والبغال والحمير، كالقدم للإنسان، والأشهب: صفة للفرس الذي غلب بياضه سواده.

٦٢- أشعار أولاد الخلفاء: الصولي ص ٣٢٣، ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي ١٧/١٢٤.

٦٣- فلسفة السريالية: فردنيان آلكيه: ترجمة وجيه العمر، وزارة الثقافة - دمشق ١٩٨٧، ص ٦.

٦٤- فلسفة السريالية: فردينان آلكيه، ص ٧٤.

٦٥- فلسفة السريالية: فردينان آلكيه، ص ١٠٥.

٦٦- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ٢٤٢.

٦٧- جمع الجواهر في الملح والنوادر: الحصري القيرواني، ص ٨٢.

٦٨- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، ٢٠/٩١.

٦٩- فلسفة السريالية: فردينان آليكه، ص ١٤٣.

٧٠- جمع الجواهر في الملح والنوادر: الحصري القيرواني، ص ٨٢.

٧١- جمع الجواهر في الملح والنوادر: الحصري القيرواني، ص ٨٢.

٧٢- جمع الجواهر في الملح والنوادر: الحصري القيرواني، ص ٨١.

٧٣- فلسفة السريالية: فردينان آليكه، ص ١٤٦.

٧٤- فلسفة السريالية: فردينان آليكه، ص ١٤٦.

٧٥- طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ٣٤٣.

٧٦- الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، ٢٠/٩٠، والوافي بالوفيات: الصفدي، ٢/٤٢.

٧٧- الفهرست: ابن النديم، ص ١٧٠.

٧٨- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، ٥/٤٠.

٧٩- جمع الجواهر في الملح والنوادر: الحصري القيرواني، ص ١٤.

٨٠ - معجم الأدباء: ياقوت الحموي، ١٧/١٢٧.

٨١ - جمع الجواهر في الملح والنوادر: الحصري القيرواني، ص ٢٢٩.

٨٢ - مجلة الكرمل: صالح هاشم، مقال: فيلسوف القاعة الثامنة، العدد ٣، سنة ١٩٨٣، ص ٢١.

٨٣ - طبقات الشعراء: ابن المعتز، ص ١٧٠.

ملحق

نصوص مختارة

قال أبو الشَّمَقْمَق(١):

ولقــد قلْــتُ حيــنَ أجْحرَني البرْ — دُ كمــا تُجْحِــرُ الكِــلابُ ثُعَالــه

فــي بُيَيْــتٍ مــن الغُضَــارة قَفْرٍ — لــيسَ فــيه إلا الــنَّوى والنُّخَاله

عطَّلــتَه الجِــرْذانُ من قِلَّةَ الخيْرِ — وَطَــارَ الذُّبَــابُ نحْــوَ زُبَالــه

هاربــاتٍ مــنه إلــى كــلَّ خِصْبٍ — حَــيْدةٍ لــم يَرْتجيْــنَ مــنْهُ بِلالَه

وأقــامَ السَّــنورُ فــيه بشّــر — يَســألُ اللهَ ذَا العُــلا والجَلالــه

أنْ يَــرى فَــأرةً، فلــم يَرَ شَيْئاً — نَاكِســاً رأسَــهُ لطُــولِ المَلاَلــه

قلْــتُ لمَّــا رأيْــتُه نَــاكِسَ الــرأْ — سِ كئيْــباً يمشــي علَى شَرِّ حَاله

قلْــتُ: صَــبْراً يا نازُ رأسَ السَّنا — نــيرِ، وعلّلــتُه بحُسْــنِ مَقَالــه

قــالَ: لا صَبْرَ لي، وكيفَ مُقامي — فــي قِفــارٍ كمِــثْلِ بــيْدِ تــباله

---

(١) الحيوان: أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ٥/٢٦٦، وأجحره: أدخله في الجحر، وثعاله: اسم للثعلب، والسنور: الهر، وهو فارسي معرب، أنغض رأسه: حركه إلى فوق وإلى أسفل، والبيد: الصحراء، وتباله: تهامة، والكربج: الحانوت، وهو فارسي معرب.

لا أرى فـيهِ فـأرةً أنْغـضَ الرَّأ | سَ ومشي في البيتِ مشيِ خيْاله
قلْـتُ: سِـرِ راشداً فَخَار لكَ اللهُ | ولا تَغْـدُ كُـرنُبَجَ الـبقَّاله
فـإذا سـمعْتَ أنَّـا بِخـيْرٍ | فـي نَعـيمٍ مـن عِيْشَـةٍ ومَنَاله
فأتِـناَ راشِـداً، ولا تَغْدُونَّـا | إنَّ مَـنْ جـازَ رحْلَـنا في ضَلالِه
قـالَ لـي قولـةً: علـيكَ سلامٌ | غـيرَ لغـبٍ مـنهُ ولا بِـبَطاله
ثـمَّ ولَّـى كأنَّـهُ شـيخُ سـوءٍ | أخْـرجُوْهُ مـن مَحْـبِسٍ بِكَفَالـه

●وقال(١):

وإبْطُـكَ قـابضَ الأرواحِ يَرْمـي | بسـهمِ المَـوْتِ مِن تحْتِ الثِّيابِ
شِـرَابُكَ فـي السَّرابِ إذا عَطِشنا | وخـبزُكَ عـند مُـنْقَطعِ الـتُّرابِ
ومـا رَوَّحتـنا لِـتذُبَّ عـنَّا | ولكـنْ خِفْـتَ مُـرزِئَةَ الذُّبـابِ

●وقال في الشكوى(٢):

أتُرانـي أرى مـن الدَّهـرِ يَوْماً | لـيَ فـيهِ مَطـيَّةٌ غـيْرَ رِجْلـي
كلَّمـا كنْـتُ فـي جَمْـيعٍ فقالوا: | قَـرِّبوا للرَّحـيْل قَرَّبْـتُ نَعلـي

---

(١) طبقات الشعراء: ابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف مصر، ص ١٢٩، وفوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٢٩/٤ والمحاسن والمساوئ: إبراهيم بن محمد البيهقي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢٥٧، والعقد الفريد: أبو عمر أحمد بن محمد عبد ربه، تحقيق أحمد أمين، وإبراهيم الأبياري، وعبد السلام هارون، القاهرة، مطبعة لجمة التأليف ١٩٤٩، ١٩١/٦، والمرزئة: المصاب.

(٢) العقد الفريد: ابن عبد ربه، ٢١٥/٦، والمحاسن والمساوئ: إبراهيم بن محمد البيهقي، نشر دار صادر بيروت، ١٩٦٠، أي دون نسبة، ص ٢٧٨.

حيـثُما كنْـتُ لا أخـافُ رحـيْلاً … مَـنْ رآنـي، فقـد رَآني ورَحْلي

● وله أيضاً[1]:

لو قد رَأيْتَ سَرِيري كُنْتَ تَرْحُمني … اللهُ يعلَـمُ مـا لـي فـيه تَلْبِيسُ

واللهِ يعلَـمُ مـا لـي فيه شَادِكَةٌ … إلاَّ الحَصِـيرَةُ والأَطْمَـارُ والدِّيْسُ

● وقال يصف فأر بيته[2]:

نَـزلَ الفـأرُ ببيتـي … رُفْقَـةً مـن بَعْـد رُفْقَـه

وابـنُ عـرْسٍ رأسُ بيتي … صَـاعداً فـي رَأسِ نَـبْقَه

سَـيفُه سـيفُ حديـدٍ … شَـقُّهُ من ضِـلْعِ سِلْقِه

جاءَنـا يَطْـرقُ باللَّـيلِ … فـدقَّ البـابَ دَقَّـه

دخـلَ البيـتَ جِهَـاراً … لـم تِـدعْ فـي البيْتِ فَلْقَه

(١) العقد الفريد: ابن عبد ربه، ٦/٢١٥، تلبيس: ما يكسى بها السرير، والديس: نبات من شوك.

(٢) الحيوان: الجاحظ، ٥/٢٦٧.

● وقال الأَحْنَفُ العُكْبري في قصيدته الساسانية(●):

لقد هَاجَ لِي الوَجْدُ ... غَزَالٌ دَائِمُ الصَّدِ
أنيقُ الحُسْنِ ميَّاسٌ ... مَلِيحُ الخَدِّ والقَدِّ
لـه وَجْهٌ هِلاَلِيٌّ ... إذا ما لاحَ فِيْ المُرْدِ
ففي مُقْلَتِهِ سِحْرٌ ... وفي الرِّيْقَةِ كالشُّهْدِ
إذَا مَا سُمْتُهُ الوَصْلَ ... بلا بِرٍّ ولا رِفْدِ
تَجَافَانِي فَقَدْ ذُبْتُ ... مِنَ الفِكْرَةِ والوَجْدِ
يَقُولُونَ: سَلاَ عَنْهُ ... وقَدْ حَالَ عن العَهْدِ
ومَا بِيْ سَلْوَةٌ عَنْه ... ولَكِنْ قَلَّ ما عِنْدي
إلَى مَنْ أشْتَكِي مَا بِي ... مِن الإفْلاَسِ والجُهْدِ
لَقَدْ أتْعَبَنِيْ الدَّهْرُ ... بِقَصدٍ شرَّ ما قَصْدِ
فَدَاخَلْتُ ذَوِي الأَعْمَا ... ل فِيْ هَزْلٍ وفي جِدٍّ
فَلَمْ أَرْبَحْ مِن الحِرْصِ ... سِوَى الغُربةِ والكَدِّ
تَقَمَّصْتُ مِن الحُرْفِ ... قَمِيصاً بَاقِياً بَعْدِي(١)
طِرَازَاهُ مِن الحِرْمَا ... ن والخَيْبَةُ قد تُغْدي(٢)

(●) ديوان الأحنف العكبري، تحقيق سلطان بن سعد السلطان، الرياض، ط١، ١٩٩٩، ص ١٥٨، وقد وردت بعض الأبيات مع اختلافات يسيرة في الألفاظ في يتيمة الدهر: أبو منصور الثعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة مصر، ١٩٥٦، ص ١٢٣/٣، وكتاب الروزنامجة: الصاحب أبو قاسم بن اسماعيل بن عباد، تحقيق محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف بغداد، ١٩٥٦، ص ١٠٧، وشرح مقامات الحريري: أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٥٢، ط١، ص ٢٤٥/٤.

وكُمَّـــاهُ مـــن الإفـــلاَ س مِنْسُـــوجَانِ كالـــبُرْدِ
عَلَـى أنّـي بِحَمْـدِ اللّـــ ـــه فـي بَيْتٍ من المَجْدِ
بِفَخْـرِي ببنـــي سَاســا ن أهْـلِ الشُّـكْرِ والحَمْدِ[٣]
مُلُـــوكٌ لَهُـــمُ الأرضُ فمـن غَـوْرٍ إلـى نَجْـدِ
وَأبْـــنَاءُ العَمَالــــيقِ كَمِـثْلِ الـدُرِّ فـي العِقْـدِ
هُـــمُ السَّـــادَةُ والــذاد ةُ أهْـلُ الحَـلِّ والشَـدِّ
بَهَالِــيلٌ مَحَـــاوِيلٌ مَعَـادِيْلٌ عـن المُكْـدِي[٤]
أحِـــبَّاءٌ ألِـــبَّاء أطِـبَّاء بمـــن يُجْـــدِي
لَهُـــمْ أرْضُ خُرَاسَـــانِ وَقَاسَـــانَ إلـــى السَّـــدِّ[٥]
إلـــى السَّـاحِلِ فالـزَّابِـ ــجِ والسِّنْدِ إلى الهِنْدِ[٦]
إلـــى الشَّـامَاتِ والمَاهَـا تِ فـي قُـرْبٍ وفي بُعْدِ[٧]
إذَا مَـا أغـوَزَ السَّـيْرُ علـى القُـوّادِ والجُـنْدِ
حَـــذاراً لأعَـــادِيْهِمْ مـن الأعـرابِ والكُـرْدِ
قَطَعْـنَا ذَلِـكَ الخَـوْفَ بِـلا سَـيْفٍ ولا غِمْـدِ
ومَــنْ خَـافَ أعَادِيْــه بِـنَا فـي الخَوْفِ يَسْتَعْدِي
لَـنَا الفَخْـرُ علـى الخَلْقِ بِلُـبْسِ الدَّلْـقِ في البَرْدِ[٨]
وبالتِّرْمِـيْذِ فـي القِمَّـيـ ــن يَوْمَ البَرْقِ والرَّعْدِ[٩]
وبالـنَّفْخِ وبالـــزَّنْقِ وبالـنَّوْدَلِ فـي الوَقْـدِ[١٠]

وبالحــــاجُورِ والمكلُـــوْ ذِ إذْ شُـدَّت مــن الزَّنْدِ[١١]

وشــدٌ الــبَغْلَةِ الدَّهْمَــا ءِ فِعْــلَ الــبَطَلِ الــنَّجْدِ

وبالميْسَـــرِ والمخْطَــــ ـــر في جَمْعٍ وفي حَشْدِ[١٢]

وقَــصٌ فـــي الشَّــغَاثاتِ بِتَضْــرِيْبِ لَـــهُ أَفْــدِي[١٣]

وبالكَـــاز إِذَا أذْعَـــــ ــــنَ بالهَــبْرَة والفَرْدِ[١٤]

وتَجْويْـــــدِ الغَـــدَاوات بتَدْمِـــيْعِ علــى الخَــدِّ

ومِــــنَّا البَاتُوَانِـــــيُّ إذا صَـــنَّفَ بَـــالعقْدِ[١٥]

ومِــــنَّا كُـــلُّ إسْــطِيْلِ مــن المُــبْرِمَةِ الــنُّكْدِ[١٦]

ومَـــنْ يَسْــتَعْرِضُ الناسَ ومَـــنْ يَشْــحَذُ بالقصدِ[١٧]

ومِـــنْ أخلاَفِـــنا قَـــومٌ فَمِــنْ مَوْلَــى ومِــن عَبْدِ

ومَـــنْ يُــنْفِذُ سِــرْمَاطاً ومَـــنْ يُــرزَق بـــالكَدِّ[١٨]

وأَلْمِــــــيٌّ وكَحَّـــــالٌ ومــن يلْعَــبُ بالقِــرْدِ[١٩]

ومَـــــنْ يَعْبَــــثُ بالهَـــا لِجِ في الفَصْلَينِ والفَصْدِ[٢٠]

وعَـــــدَّادٌ سُــــفُوْقِيٌّ مَلــيْحُ الوَصْــفِ والعَدِّ[٢١]

وصُـــوْفِيٌّ لَـــهُ سَـــمْتٌ يَهُــدُّ القَــوْلَ فــي الــزُّهْدِ

فلَـــوْ أبْصَـــرتَا الخُشْــنِيُّ كالآطــامِ فِـــي الخُلْــدِ[٢٢]

بَهَالِـــيلٌ بنـــي الغُــرْبَةِ فِـــي الأَغْشَــاشِ كالأُسْــدِ

وقَــد عُدْنَــا مِــنَ الكديــ ــــةِ مَقْتُولِيْـــنَ بالــبُعْدِ

يُحَيِّـــي بَعْضُـــنا بَعْضــاً إذا مَــات مــن الــدُّرْدِ[٢٣]

وقـــد قُمـــنا بِتَصنــــفيقٍ وتَغْدِيـــدِ إلـــى الـــنَّهْدِ
وَأَلْقَيْـــنَا الشَّـــقَاعَاتِ بِـــتَجْرِيْدٍ علـــى وَكْــدِ(٢٤)
وَأَظْهَـــرنَا البَتِـــيكَاتِ وَمَـــا فِـــي ذَاكَ من بُدِّ(٢٥)
فَهَـــذَا يَطْـــبَخُ القِـــدْرَ وذا يُحْسِـــنُ فـــي الوَقْــدِ
وَهَـــذَا يُصْنـــلِحُ المَجْلِـــ ـــسَ بالـــرَّيْحَانِ والـــرَّنْدِ
فَقَشَّـــــمنَا وبَادَرْتَـــــا إلَـــى الأُشْـــنَانِ والسُّعْدِ(٢٦)
ودَارت بَيْنَـــنَا الكـــأسُ علـــى الخُطَّـــةِ والـــنَّرد
وأصنـــمَينا وبَخَّـــرْنَا بـــلا عُـــوْدٍ ولا نَـــدِّ(٢٧)
وَلَكَـــنَّا تَضَـــارَطْنَا بإيقـــاعٍ علـــى عَمْـــدِ
علـــى بَشْبَاشَـــةِ الخُشَـــنِي أبِـــيْ مُوْســـى بـــلا رَدِّ(٢٨)
وَطَـــنْجَرنا وشَرْشَـــرْنا بـــلا حَـــرٍّ ولا بَـــرِدْ(٢٩)
وغَـــنَّانا فَأَلْهاتَـــــا فَـــتًى ذو شَـــعَرٍ جَعْـــدِ
لَـــهُ غَـــنَّامَةٌ تُشْـــجِي أخَـــا الصَّبْوةِ والفَقْــدِ(٣٠)
فَغَـــنَّانا: لِمَـــنْ دَارٌ خَلَـــتْ بالـــرَّمْلِ مـــن دَعْدِ
يَقُـــولُ الأَخْـــنَفُ الـــبَائِـ ـــسُ قَدْ حُوْصِرتُ في جِلْدِي
فَلَـــوْلاَ خَشْـــيَةُ الـــنَّاسِ ومَطْـــلُ الـــنَّقْدِ بِـــالوَعْدِ
لمـــا تُبْـــتُ مـــن الشَّـــحْذِ مِـــنَ المَهْـــدِ إلـــى اللَّحــدِ

هوامش وإحالات

١ – الحُرْف: الفقر والحرمان

٢ – الطَّرز: البزّ والهيئة، وهو: الشكل، أصله ترز، فارسي معرب.

٣ – ساسان: شخصية ينسب إليها الشحاذون، تعددت الآراء فيها، فقيل: هو ساسان بن بهمن بن اسفنديار حرمه أبوه بن الملك، فعاش يرعى الماشية في الجبال، وقيل بل هو: ساسان بن قاقان الذي يعزى إليه اختراع المهن والحرف.

٤– بهاليل: هم زعماء المكدين، مفردها بهلول، محاويل: أصحاب مكر وخديعة وحيلة، معاديل: يريد أنهم يمتطون ظهور الدواب مثنى، مترادفين أو متعادلين، يقال: عدل الرجل في المحمل، وعادله: إذا ركب معه.

٥– خراسان: بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق، وآخر حدودها مما يلي الهند، قاسان: مدينة في حدود بلاد الترك، وترد في بعض النصوص قاشان: وهي مدينة قرب أصفهان، والسد: قرية بالري.

٦– الساحل: من قرى الري، الزابج: جزيرة في بلاد الهند، والسند: بلاد بين الهند وكرمان وسجتان.

٧– الشامات والماهات: قرى في كرمان.

٨– الدّلق: الغارة والشدة، ونظن أن الدال فيها مصفحة من الزاي، أو الذال، فقد ورد في رائية الخزرجي الزلق، وجاء في شرحها: هم العراة من المكدين، يخرجون إلى الأسواق، ويصيحون بآمين، كما ورد المذلقة الضمر، ولكن دون شرح، ويستدل من سياق المعنى أنها تشير إلى العراة من المكدين.

٩– الترميد: أن يطرح نفسه في الأتون، ويخرج وعليه غبرة الرماد، ليوهم الناس أنه أوى إليه من شدة البرد، وعدم الملبوس، القمين: الأتون.

١٠– الزنق: أن يثقب بدنه ثقبة، وينفخ فيها حتى يتورم بدنه، النودل:

١١– الحاجور: الذي يثقب بيضة ويجعلها في حجره، وهي تسيل ماء أصفر، والمكلوذ: المقطوع اليد.

١٢– الميسر: ويقال له الميسراني، وهو الذي يكدي على أنه من أهل الثغور، المخطراني: الذي يبلع لسانه، ويوهم أن الروم قطعوه، وقد يأتي في زي ناسك، ويري أن بابك قور لسانه من أصله، لأنه كان مؤذناً هناك.

١٣- قصَّ: وهو المكدي الذي يروي الأحاديث عن الأنبياء والحكايات القصار، الشغاثات: المساجد، وأحدتها شغاثة، التضريب: هؤلاء قوم يحضرون الأسواق، فيروي أحدهم فضائل أبي بكر، ويروي الأخر فضائل علي، فلا يفوتهما درهم الناصبي أو الشيعي، ثم يتقاسمان الدراهم

١٤- الكاز: المكوز: هو الذي يقوم في مجالس القصاص، الهبرة: المقاسمة، وهي أن يقاسم المكدي شركاءه ما يأخذه، أو يجمعه.

١٥- البانواني: هو المكدي الذي يقف على الباب، ويسل الحلق، ويقول: بانوا، ومعناها يا مولاي، كما يقال: بنون: إذا انتسب إلى البانوانية وهم الشطار.

١٦- الإسطيل: وهو المتعامي، إن شاء أراك أنه منخفس العينين، وإن شاء أراك أن بهما ماء، وأنه لا يبصر للخسف ولريح السبل.

١٧- المستعرض: الذي يعارضك، وهو ذو هيئة في ثياب صالحة، وكأنه قد مات من الحياء، ويخاف أن يراه معرفة، ثم يعترضك اعتراضاً، فيكلمك خفياً.

١٨- ينفذ: الذي يبيع الهياكل والتعاويذ، السرماط: الكتب.

١٩- ألميّ: اللَّمى: سمرة الشفتين واللثات، وذلك مما يستحسن، يقال: رجل ألمى، وامرأة لمياء.

٢٠- الهالج: عقار من الأدوية، وهو معرب.

٢١- السفوف: الأدوية والعقاقير.

٢٢- الخشني: الذي لا يكدي، وهو عندهم عيب كبير.

٢٣- الدَّرد: داء يصيب اللثة، فيؤدي إلى سقوط الأسنان.

٢٤- الشقاعات: جمع شقاع، وهو الكساء إذا كان من ألوان، أو لون واحد، يدور بها المكدون، ويبسطونها، ويصلون عليها.

٢٥- البتيكات: الفلوس.

٢٦- قشم: غسل واستحمَّ.

٢٧- أصمى: شرب الخمر، والصمي: السكر.

٢٨- بشباشة: لحية.

٢٩- طنجر: لم نجد لها معنى، وشرشر: إذا لعب القمار.

٣٠- غنّامة: صوت في الخيشوم، وقيل صوت فيه ترخيم عند الغناء.

وقال العُكْبُري :

سـكَنْتُ إلـى حُسْنِ التوكُّلِ والصَّبر ... فَقَـدْ طِبْـتُ نَفْساً بالعِرَاقِ عَلى الفَقْرِ
إذا كَـان هـذَا الفَقْـرُ ضَرْبَة لاَ زبِ ... على المرءِ لَمْ تُغْنِ السِّفَار إلى مِصْرِ
يقُولُـونُ: فـي أرْضِ الجزيرة مَغْنَمٌ ... ورِقَّـةُ عَيْشٍ في المَكَاسِب والشِعْرِ(١)
فقْلـتُ: وبَارمًـا ومـن دُوْنِ قَطْعِـه ... سِـباعٌ وَأعْـرَابٌ أُولُو قُضُبٍ بُتْرِ(٢)
وقَطْـعُ قِفُـارِ بالبُقَـيْعَةِ كُلَّمـا ... تَذَكَّـرْتُها طَـارَ الفُؤَادُ عن الصَّدْرِ(٣)
غبـناهُمُ واللهِ فـي كُـلِّ أمْـرِنا ... وفُـزْنا بِـتَرْويحِ القُلُـوبِ من الفِكْرِ
لـنا ألـفُ مِصْرٍ في الزَّوَارِيْقِ بيْنَها ... نَسِـيْرُ فمـن بَـرٍّ أنيْقٍ إلى بَحْرِ(٤)
ومرْحَلُـنا فـي كُـلِّ يَوْمَيْـن فَرْسَخٌ ... بِـلاَ حَـذَرٍ بَـلْ فـي نَعِيمٍ وفي سِتْرِ
تَسـيْرُ بِنَا تِلْكَ الزَّوارِيْقُ في الضُّحى ... خِـلاَلَ ديـارِ مُونِقَـاتِ الذُّرى ضُمْرِ
وهُـمْ يتَسَـاعُوْنَ المَراحلَ في الدُّجى ... علـى عَطَـشٍ بين المَخَافَةِ والذُّعْرِ
تَّرانـي أبـيْعُ العَيْشَ بالقَصْفِ ساعةً ... بِـتَلٍّ بنـي سَيَّار مـن بَلَـدٍ قَفْرِ(٥)
غُبْنُـت إذنْ عَيْشي وضاعَت فَراسَتي ... وَأسْـلَمَني سُوْءُ القَضَاءِ إلى الصَّبْرِ
إذْا أكلُـوا الخـرُوب جِئْـنَا بِـيَانعٍ ... مـن الرُّطَـبِ الآزاذ يَلْمَـعُ كالتِّبْرِ(٦)
وَإنْ فَاخَـرُوا بالتِّيْـن جِئْـنَا بِمِـثْلِهِ ... وزِدْنَـا علـيهم بالمُعَـرَّقِ والبُسْرِ(٧)
عَلَـى أنَّ فـي التِّيْنِ الوَزِيْرِيِّ سَلْوَةً ... عن الشَّامِ تُغْني ذَا الحِجَى آخِرَ الدَّهْرِ
وإن ذَكَـروا الصَّهباء فالقُفْصُ دَارُها ... وَأرْضُ أوَانا مَعْدِنُ القَصْفِ والخُمْرِ(٨)
أمـا نَوْمَـةٌ تَحْـتَ النَّخـيْلِ يَحُفُّهـا ... مِـنَ المـاءِ أشْـجَارٌ بأفْنَانِها الصُفْرِ
سُـطُوْرُ نَخـيْلٍ بَيْـنَ مَـوزٍ مُسَطَّرٍ ... وأشْـجارُ نَـارِنْجٍ علـى نَهرٍ يَجْري
يَصُـبُّ إلـى نَهْـرِ الأُبُلَّـةِ مَـاؤُهُ ... وقـد عَطَفَ المَدَّ العَقَارُ إلى الجَزْرِ(٩)
ألَـذُّ وأشْـهى للفَـتَى مـن مَسِيْرِهِ ... إلى أرْضِ قَبْرَاثَا على فَرَسٍ يَسْري(١٠)

هوامش وإحالات

•- ديوانه ص ٢٢٥.

١- الجزيرة: اسم يطلق على الأرض التي تقع بين دجلة والفرات، وتقسم إلى ديار بكر، وربيعة، و مضر.

٢- بارما: جبل يقع بين الموصل وتكريت.

٣- البقيعة: الأرض البقعاء ذات الحصى الصغار، التي اختلط بياضها وسوادها، ويطلق هذا الاسم على أكثر من موقع وقرية.

٤- الزواريق: السفن الصغيرة.

٥- القصف: اللهو واللعب، ويقال إنها كلمة مولدة، وتل بني سيار: موضع في الجزيرة بين رأس العين والرقة والجزيرة.

٦- الخَرُّوب: بالتشديد، ويقال له أيضاً الخُرنُوب، وهو الشوك، له ثمرلا يؤكل إلا في الجهد والضرورة، يقبض اللسان، والرُطب: نِضيج البُسر قبل أن يُتمِر، واحدته رُطْبَة، والآزاذ: نوع من التمر.

٧- المُعَرَّق: عَرَق التمر: دبسه، والمُعَرَّق من الخمر: الذي يمزج قليلاً، والعَرَق: اللبن، والبُسر: من التمر ما لوَّن دون أن يَنْضَج، فإذا نضج فهو الرُطب.

٨- القُفْصُ: موضع في جبال كرمان، نسبت إليه طائفة من اللصوص ذوي الشدة والقسوة والبطش، أُوَّانا: مدينة صغيرة بالقرب من دُجيل بغداد، تشهَر بالبساتين والأشجار.

٩- الأُبلَّه: مدينة تقع قرب البصرة، من جانبها البحري، وهي اسم نبطي مُعَرَّب.

١٠- قبراثا: قرية في نواحي الموصل.

قال أبو دُلَف الخَزْرَجي في قصيدته الساسانية[*]:

جُفُـــوْنٌ دَمْعُهـــا يَجْـــري لطُـــوْلِ الصَّـــدِّ والهَجْـــرِ
وقلـــبٌ تـــركَ الوجْـــدُ بـــه جَمْـــراً علـــى جَمْـــرِ
لقـــد ذُقْـــتُ الهوى طَعْميـــ ـــنِ مـــن حُلْوٍ، ومن مُرِّ
ومَـــنْ كـــانَ مـــنَ الأحْرا رِ يسْـــلو سَـــلْوة الحُـــرِّ
ولا سَـــيما وفـــي الغُرْبَــ ـــةِ أوْدى أكـــثرُ العُمْـــرِ
تعرّيْـــتُ كغُصْـــنِ الـــبَا نِ بيـــن الـــوُرْقِ والخُضْرِ
وشـــاهَدْتُ أعاجيـــباً وألوانـــاً مـــن الدَّهـــرِ
فطابَـــتْ بالـــنَّوى نفســـي علـــى الإمْسَـــاكِ والفِطْـــرِ
علـــى أنِّـــي من القَوْمِ الـــ ـــبَهَالـــيْلِ بنـــي الغُـــرِّ[1]
بني سَاسَانَ والحامي الـــ ـــحِمى في سَالِفِ العَصْرِ
تغرّبْـــنا إلـــى أنّـــا تَنَاءَيْـــنا إلـــى شَـــهْرِ[2]
فظـــلَّ البَيْـــنُ يَرْمِيْـــنَا نَـــوَىً بَطْـــناً إلـــى ظَهْـــرِ
كمـــا قـــد تَفْعَـــلُ الـــرِّيحُ بكُثْـــبِ الـــرَّملِ فـــي الـــبَرِّ
فَطِبْـــنا نَـــأخُذُ الأوقـــا تِ فـــي العُسْرِ وفي اليُسْرِ
فمـــا نَـــنْفَكُّ مِـــنْ صَـــمْتٍ ومـــا نَفْـــتُرُ مِـــنْ مَـــتْرِ[3]
فـــأحلَى ما وجدْنا العَيْـــ ـــشَ بيـــن الكَمْدِ والخَمْرِ
فنحـــنُ الـــناسُ كـــلُّ الـــنَا سِ فـــي الـــبَرِّ وفي البَحْرِ
أخذْنـــا جِـــزْيَةَ الخَلْـــقِ مـــن الصـــينِ إلـــى مِصْرِ
إلـــى طَـــنْجَةَ بـــل في كلِّ أرضٍ خيلُـــنَا تَسْـــري

---

[*] يتيمة الدهر، أبو منصور الثعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة مصر، ١٩٥٦، ص ٣٥٨.

إذا ضَاقَ بـنا قُطْرٌ ... نَزَلْ عنهُ إلى قُطْرِ
لنا الدُّنيا بما فيها ... من الإسلامِ، والكُفْرِ
فنصْطافُ على الثَّلج ... ونشتو بلدَ التّمْرِ
فنحنُ المَيْزَقَانيُّو ... نَ لا نُدْفَعُ عن كِبْرِ[٤]
همُ شتى فَسَلْني عنـ ... ـهُم يُنْبِكَ ذو خَبَرْ
فمنّا كلُّ كماذ الـ ... ـلّبوساتِ مع الهرّ[٥]
ومنّا كلُّ صَلّاجٍ ... بكَيذٍ وافرٍ، نُكْرِ[٦]
قد استكفى بكفيّه ... عن الثّيّبِ والبِكْرِ
فلا يخشى من الإثْمِ ... ولا يُؤْخَذُ بالمَهْرِ
ولا يحذَرُ مِنْ حَيْضٍ ... ولا حَمْل على طُهْرِ
ومنّا الكاغُ والكاغـ ... ـةُ، والشَّيْشَقُ في النّحرِ[٧]
وأشكالٌ وأغلالٌ ... منَ الجِلْدِ أو الصُّفرِ[٨]
ومَنْ دَرْوزَ أو حرّ ... زَ أو كوَّزَ بالدَّغْرِ[٩]
ومَنْ درّعَ أو قَشَّـ ... ـعَ أو دَمَّعَ في القَرّ[١٠]
ومَنْ رغَّسَ أو كبَّـ ... ـسَ أو غَلَّسَ في الفَجْرِ[١١]
وحَاجُورٍ، وكذّابـا ... ت أهلِ الأَوجهِ الصُّفْرِ[١٢]
ومَنْ شَطَّبَ أو ركَّـ ... ـبَ للضّرْباتِ، والعَقْرِ[١٣]
ومَنْ مَيْسَرَ أو مَخْطَـ ... ـرَ، واستَنْفَرَ للثَّغْرِ[١٤]
ومَنْ ناكذَ في القَيْنُو ... نِ من جَوْفِ أبي شِمْرِ[١٥]
ومَنْ رَشَّ، وذو المَكْوَى ... ومَنْ دَرْمَكَ بالعِطْرِ[١٦]
ومَنْ دَكَّكَ، أو فَكَّـ ... ـكَ أو بَلْقَكَ بالحرّ[١٧]
ومَنْ قَصَّ لإسرائيـ ... ـلَ أو شَبْرَاً على شِبْرِ[١٨]

ومَنْ بَشْرَكَ أو نَوذَ   كَ، أو أشْرَكَ بالهَبْرِ[١٩]

ومَنْ قَدَّسَ أو نَمَّـ   ـسَ، أو شَوْلَسَ بالشَّعْرِ[٢٠]

ومنَّا العَشْيَرِيُّونَ   بنو الحَمَلَةِ والكَرِّ[٢١]

ومنَّا المَصَنْطَبَانِيُو   نَ، مَنْ مَيْزَقَ بالأسْرِ[٢٢]

ومنَّا كلُ زَمَكْدَانٍ   غدا مُحدودبَ الظَّهرِ[٢٣]

ومنَّا كلُ مطْراشٍ   من المُكْلوذَةِ البُتْرِ[٢٤]

وفي المُدْرجَةِ الغَبْرا   ءِ منَّا سَادَةُ الغُبْرِ[٢٥]

ومنَّا كلُ قَنَّاءٍ   على الإنْجِيلِ والذِّكْرِ[٢٦]

ومَنْ سَاْقَ الوَلا بالما   ءِ، أو قَوْسِ أبي حجْرِ[٢٧]

ومَنْ طَفْشَلَ أو زَنْكَـ   ـلَ أو سَطَّلَ في السِّرِّ[٢٨]

ومَنْ زَقَّى الشَّغَاثَاتِ   غَدَاءاتٍ، وبالعُصُرِ[٢٩]

ومَنْ دَشَّشَ أو رَشَّـ   ـشَ أو قَشَّشَ يَستذري[٣٠]

ومَنْ يَزْنُقُ، أو يَخْنُـ   ـقُ، أو يَذْلَقُ بالدُّبْرِ[٣١]

ومنَّا كلُ مُسْتَعْشٍ   من النَّعَارةِ الكُذْرِ[٣٢]

ومَنْ شَدَّدَ في القولِ   ومَنْ رَمَّدَ في القَصْرِ[٣٣]

ومَنْ يَزْرَعَ في الهادُو   رِ تكْسِيْحاً من البَذْرِ[٣٤]

إلى أنْ يَقَعَ التَّنبـ   ـلُ في مَحْصَدَةِ الجَزْرِ[٣٥]

ومَنْ قَنْوَنَ أو بَنْوِ   نَ، أو طَيَّنَ بالشِّعْرِ[٣٦]

ومنَّا مُنْفذُ الطِّينِ   وأصْحَابُ اللّحى الحُمْرِ[٣٧]

ومَنْ شَقَّفَ بالماءِ   ومَنْ شَقَّفَ بالجَمْرِ[٣٨]

ومَنْ كدَّى على كينسَا   نَ في السِّرِ وفي الجَهْرِ[٣٩]

ومنَّا النَّائِحُ المُبكي   ومنَّا المُنْشِدُ المُطْري[٤٠]

ومَنْ ضَرَّبَ في حُبَّ   عليّ، وأبي بكْرِ[٤١]
ومَنْ يروي الأساتيدَ   وحَشْوَ كُلِّ قِمَّطْرِ[٤٢]
ومنّا كُلُّ ممرور   غدا غَيظَ بني البَظْرِ[٤٣]
ومَنْ يكْحَلُ من مُستغـ   ـرض، دمعتُهُ تجري[٤٤]
وفي المَوْقفِ منّا كلُّ   جَبّارِ أخي الصَّبْرِ[٤٥]
متى يُخْفَ يقُلْ بشَبا   شَةُ الخُشْنيّ في خَصْرِ[٤٦]
وقُرّاءُ أبي موسى   لديهِ دُبَّةُ البزّرِ[٤٧]
ولايَنْطسُ أو يَلْحـ   ـنُ، ما يَطْلُبْ بالقَسْرِ[٤٨]
وجَرّارُ عَيالاتِ   عليهم أثَرُ الضُّرّ
ومَنْ يُنْفِذُ سُبْحَاتِ   وحلَوَى، وأبا شُكْرِ[٤٩]
ومِنّا حافرُ الطِّرْسِ   بلا خَرْطِ، ولا جَهْرِ[٥٠]
وبَرْكُوشٌ، وبَرْكُكٌ   ومُغطي هالكَ الجَزْرِ[٥١]
ومَنْ قَرْمَطَ أو سَرْمَـ   ـطَ، أو خطَّط في سِفْرِ[٥٢]
وحَرّاقٌ، وبُزّاق   بني الشُّخَير، والنَّشْرِ[٥٣]
ومَنْ زكَّرَ والقَومِ الزَّ   كوريونَ في الصَّدْرِ[٥٤]
ويَشْري عُشَّ رَضْوانِ   بنَذْرِ الثَّمَنِ النَّزْرِ[٥٥]
ومَنْ دَهْشَمَ بالكَرْشِ   ويَسْتبردُ في النَّهْرِ[٥٦]
ومَنْ يُغطِي الضَّماناتِ   مِنَ الزّنكلةِ العُفْرِ[٥٧]
ومَنْ حنَّنَ كفَّيهِ   وحَفَّ الطَّستَ كالحَرِّ[٥٨]
ومنّا الشيخُ هفصُويَه   ويحيى وأبو زُكُرِ[٥٩]
ومَنْ كان على رأي ابـ   ـنِ سيرِينَ من العَبْرِ[٦٠]
وشَكّاكٌ، وحكّاكٌ   ومُعطِي بلحِ الأجْرِ[٦١]

وسَـــمقُونٍ علـــيه السَّـــر مَـــك الكُحْلُ، وذو الغَزْر(٦٢)
ومَـــنْ ربّـــى، ومَـــنْ فتىً وأجْـــرى عُقَـــد الـــزّرّ(٦٣)
ومـــــنّا قَافَـــــةُ الـــــرّزْقِ وأهـــلُ الفَـــالِ والزَّجْرِ(٦٤)
ومَـــنْ يَعْمَـــلُ بالـــزِّيجِ وبالتَّـــنُّورِ، والجَفْـــر(٦٥)
ومـــــنَّا البَشْـــــتَداريُّو نَ، تحت الرَّحْلِ كالحُمْرِ(٦٦)
ومَـــنْ مـــرَّقَ في مَصْطـ ـــبةِ الفتـــيان في قِذرِ(٦٧)
ومـــــنَّا كـــــلُّ مَـــرَّاسٍ جَسُـــورٍ، جـــاهلٍ، هَزِرِ(٦٨)
يـــرى الحِـــنشَ فَيأتـــيهِ بـــلا خَـــوفٍ، ولا ذُعرِ(٦٩)
فيسْـــتَلّ الـــذي يخشـــا هُ من شَصُوْصَةَ الخَزْرِ(٧٠)
ويُبقـــي مـــنه ما يصلـــ ـــحُ للمِخْـــنةِ والسَّـــبْرِ
فقـــد أنْـــزَلَ فـــيه مـــ ـــلكُ المـــوتِ علـــى قَبْرِ
فهـــذا هـــالِكٌ لَسْـــعاً وهـــذا كَفُّـــه يُـــبري
وقـــد يلْـــتَمسُ الخَـــبْزَ بمكْـــروهٍ مـــنَ الأمْـــرِ
ومـــــنَّا كـــــلُّ نُطَّـــاسٍ علـــى البَزْرَكِ مُستجري(٧١)
ومـــنَّا كـــلُّ من شَرْشَـــ ـــرَ بـــالهُلابِ والكَسْرِ(٧٢)
إذا خَـــافَ علـــيه بخـــ ـــتَهُ سَـــقَّفَ بالنَّحْرِ(٧٣)
ومـــــنَّا كـــــلُّ إســـطيلٍ نقـــيّ الذِّهْـــنِ، والفِكْرِ(٧٤)
ومـــــنَّا كـــــلُّ سَـــبَّاعٍ عظـــيمِ اللـــيْثِ، والببْرِ(٧٥)
ومَـــن قَـــرَّدَ أو دبّـــ ـــبَ، منَ كلّ فتى غَمْرِ(٧٦)
وسَـــــمَّانٌ، وسَـــــنَّانٌ ومَـــنْ قَتَّـــت كالكَـــبْرِ(٧٧)
ودكَّـــــالكُ السُّــــفوفاتِ لرِيْحِ الجَوْفِ، والخَصْرِ(٧٨)
ومـــنَّا ذو الوفـــا الحُرُّ الـ ـــمُدلجُ ذو الكَـــرّ(٧٩)

ومنَّا شعراءُ الأرْ ض، أهلُ البدو، والحَضَرِ

ومنَّا سائرُ الأنصا رِ، والأشرافِ من فهْرِ(٨٠)

ومنَّا قيّمُ الدينِ الـ ـمطيعُ، الشائعُ الذكْرِ(٨١)

يُكدِّي من مُعزَ الدو لةِ الخُبزَ على قَدْرِ

ومَنْ يَطْحَنُ ما يُطْحَـ ـنُ بالشدَّةِ والكَسْرِ(٨٢)

ومَطليَ دمَ الأخِ مع المَصْمُوغِ كالبَثْرِ(٨٣)

ومنَّا كلُّ مشْقَّاعٍ من الفِتْيانِ كاللُّغْرِ(٨٤)

يَلذُّ الشَّورزَ الوجدا ن بالخَبِّ، وبالمكْرِ(٨٥)

إلى أنْ يأكُلَ الخَشْبُو بَ كَرْساً أكْلَ مُضْطرِ(٨٦)

وما في البيتِ غيرُ البّـ ـتَ أو باريةُ القَفْرِ(٨٧)

وما للشورز السُّوء سوى الغِيْلَةِ والغَدْرِ

وأنْ يصنميهِ حتى تراهُ طافحِ السُّكْرِ(٨٨)

فتجري فيهِ كَيْذاتُ الـ ـبهاليلِ ولا يَدْري(٨٩)

ومنَّا سعْفَةُ الرّيْحِ لضَرْبِ الكَلْبِ والهرّ(٩٠)

وذو القَصْعةِ، والمَسْرَا دِ، والمكْنَاسِ، والعُشْرِ(٩١)

وفي الأسواقِ، والأنها رِ، والبيْدرِ، والقَصْرِ

ومَنْ يقرأ بالسّبْعِ وإدغامِ أبي عَمْرو

وأصحابُ المقالاتِ من الفاجِرِ، والبَرِّ

ومِنْ عَلاَّفةِ ركّـ ـبتِ البازَ مع الصَّقْرِ(٩٢)

ومنَّا الكابليُّونَ ومَنْ يلْعَبُ بالجرّ

ومَنْ يمشي على الحَبْلِ ومَنْ يَصْنعدُ بالبكْرِ

ومنَّا الزّنْجُ والزُّطُّ سوى الكبَّاجةِ السُمْرِ(٩٣)

ومــــنَّا مَــنْ صــما يومــاً فقــد هُــرِّبَ في المِصرِ(٩٤)
ومـــــنَّا كــلُّ ذي سَـــمْت خشــوعِ القــنّ كالحَــبْرِ
يُرَقّـــيّ، وتـــراهُ بـــا كـــياً دمعــــتُهُ تجــري
فـــإنْ كبَّــنَ فــي السّــرِّ فــبالمذقانِ يســـتذري(٩٥)
وإنْ كَــرَّسَ لا واللـــــــــهِ لا تَمَّ إلى الظُّهرِ(٩٦)
ومَـــنْ صَـــاحَ بآميـــن مــن المــزلقِ، والذّعرِ(٩٧)
سُــخَامِ القَــصِّ قد نقَّـــ ـــعهم مــثلَ بني النّمرِ
فـــذا بقالُـــنا ســـطّلْ وذا أســــتاذنا خَــرّي
وذا قصّـــابُنا عَسّـــم وذا الـــبزّازُ لا تُــبرِي(٩٨)
ومَـــنْ ردَّهُـــمُ غلّـــــ ـــفَ مــن غالــيةِ الحَجْرِ
ومـــنَّا كـــلُّ مَـــنْ يَمْــرَ حُ في الإسطيلِ كالمُهْرِ(٩٩)
ومـــن كَـــدَّةِ بُهْلُـــولِ تخطّــى ثــمَّ كالحَجْــرِ(١٠٠)
ومَــنْ يَخْــرجُ باليابـــــ ـــس يــومَ الفطْـــرِ
ومــنَّا مَنْ تمشّى يمســـ ـــحُ الــبُلدان كالنّسْــرِ
ومـــن يـــأوي المصاطيبَ مــع المَذْلَقَــةِ الضُمْرِ(١٠٢)
ومَـــنْ يـــأوي الشَــفَلَاتِ مــع العقَّــةِ في السِّتْرِ(١٠٣)
وأصــــحابُ التجّافـــيفِ مــع الــثّامُولةِ الصُبْرِ(١٠٤)
وأصــــحابُ الشُــــقاعاتِ مــنَ المَشّــاطحِ العُكْرِ(١٠٥)
بــنو التغريبِ، والتّدريـــ ـــبِ والتّفتيقِ والأطْرِ(١٠٦)
تــرى للقمــل فــي كــلِّ شُـــقاعِ مائتـــي وكْــرِ
ومَــنْ دَمــجَ فــي الــثّلج وفـــي الوَحْلِ بلا طِمْرِ(١٠٧)
ولايَـــــنظُرُ إلا كـــــا لحـــاً ذا نَظْــرِ شَـــزْرِ

فــلا يَــبرَحُ أو يــأخُــــ ـــذ، مــا يــأخذُ بالصَّقْرِ
وفـــي الغمّـــيزِ مــــنّاً فتــيةٌ مــن رغلٍ قُذْرِ(١٠٨)
هـــمُ بيـــتُ المشـــاميلِ مــع القَــنّابرِ الحُفْــرِ(١٠٩)
غــدوا مــثلَ الشــياطين علــيهم أثَــرُ الفقْـــرِ
فـــيأتون بَــــبرباز ا رَ كالقُفيا من المُجْري(١١٠)
وعــــبّوه أنابـــــيرَ مــنَ الزُغــبُلِ والــبُرِّ(١١١)
كمـــا يُقتسَـــمُ البـــيد رُ بالقُفــزان، والكِسْــرِ
وظَلُّـــــوا يتفـــــتّونَ علـــى مــالكِ بالعُسْــرِ
وخصُـــــوه بجـــــوزاتِ ونصــفِ فجلةِ تُمْري(١١٢)
ســقى الله بنـــي سَأسَــا نَ غَيْـــثاً دائــمَ القَطْــرِ
تــرى العُــرْيانَ مــنهم ظا هــرَ السّــمرةِ والخَطْــرِ
كــنمرودِ بـــنِ كــنعانَ قــويُّ الصَّــدرِ والأزْرِ
رجــالٌ فطِــنُوا للــثقْــــ ـــلِ، والأغْلال والإصْرِ
خَلَنجــيُّونَ مــا حَاضــوا ولا بــاتُوا على طُهْرِ(١١٣)
رَأوْا من حِكْمةِ خرطَ الــ ـــقِلاداتِ مـــع العُــذْرِ
يقُولُــونَ لمَــنْ رقــيَ تحــولْ فبــنا تُــزْري
ورواحــوا خــارجَ الــدَّارِ بواريـــةِ مَـــعَ الحَصْــرِ
فحيــثما اكــتروا قــالوا مــنَ الخشــني لا نكــرِي
إذا مــا ســمَّروا القشــقا شَ ذا العُثْنونَ والزَّجْرِ(١١٤)
لَقْـــوهُ بنُـــثَاراتِ مــن البُنْدقِ، والبُسْرِ(١١٥)
وحـــيَّوهُ بــــآلافِ مــن القَــنّادرِ الفُطْــرِ(١١٦)
وكــمْ بيــنَ الغرابيـــبِ وبيــنَ البَــبْغ، والقُمْــرِ

ألا إنّـي حلبْتُ الدهــــــ ـــرَ مــن شَطْرٍ إلى شَطْرِ
وجُبْـتُ الأرضُ حتى صرْ تُ فــي التَّطوافِ كالخِضْرِ
وللغُــربةِ فـــي الحُـــرِّ فَعَـالُ الـنَّارِ فــي التِـبْرِ
ومـــا عــيْشُ الفــتى إلا كَحَـــالِ المَــدِّ، والجـــزْرِ
فـــبعضٌ مـــنه للخـــيْرِ وبعـــضٌ مـــنه للشَّـــرِّ
فـإنْ لُمْتَ على الغُرْبَـــــ ـــةِ مثلي فاسمعنْ عُذْري
أمـــا لـــي أسْـوَةٌ في غُرْ بتـــي بالسَّـــادةِ الطُّهْـــرِ
هـــــم آلُ الحوامــــيم هـــمُ المُوفُـــونَ بالـــنَّذْرِ
هـم آلُ رســولِ اللـــــ ـــهِ، أهلُ الفَضْلِ، والفَخْرِ
بكُوفَـــانَ، وطفَـــى كــر بــلا كَـمْ ثَـمَّ من قَبْرِ(١١٧)
وبغـــــدادَ، وســـــامرّا وباخَمْـــرا على السُكْرِ(١١٨)
وفي طُوسٍ مناخُ الركْـــ ـــبِ، في شَعْبَانَ، في العُشْرِ(١١٩)
وســــلمانٌ، وعمّـــارٌ غريـــــبٌ، وأبـــــو ذَرِ
قـــبورٌ فـــي الأقالـــيم كمـــثْلِ الأنْجـــمِ الزُّهْـــرِ
فـــإنْ أظْفَـــرْ بآمالـــي شـــفيتُ غُلَّـــةَ الصَّـــدْرِ
وألْمَمْـــــتُ بأوطانــــي قـــويَّ النُّهـــي، والأمْـــرِ
وقـد تَخْفُـقُ فوقـي عِزَّ ةَ ألويـــــةُ النَّصْــــرِ
وإمـــا تكُـــنِ الأخـــرى وعـــزَّ جائِـــزُ الكَسْـــرِ
فــلا أُبْــتُ مــع السَّـفْرِ غَـــدَاةَ أوبـــةِ السَّـــفْرِ
ولا عُـــدْتُ مـــتى عُـــدْتُ بـــلا عِـــزٍّ، ولا وَفْـــرِ
وحســبي القصبُ المطحو نُ فــيه وَرَقُ السَّـــدْرِ(١٢٠)
وأثْـــوابٌ تواريـــني مـــنَ الإيْـــذاءِ والأزْرِ

هوامش وإحالات

١- البهاليل: جمع بهلول، وهم شيوخ المكدين ورؤساؤهم.

٢- شهر: اسم يطلق على أكثر من مدينة، ويراد بها هنا: شهر زور: وهي مدينة واسعة في الجبال، بين أربل وهمذان بناها زور بن الضحاك.

٣- الصمي: الشرب، والمتر والكمد: الوطء، والمواقعة.

٤- الميزقانوين: جمع ميزقاني، وهو المكدي، وميزق: كدى واستجدى.

٥- كمَّاذ: فعَّال ، اللبوسات: الأحراح، والهر: الدبر.

٦- الصلاج: الذي يستمني، أي يجلد عميرة، والكيذ: عضو الذكر.

٧- الكاغ والكاغة: المتجانن والتجاننة، والشيشق: الحدائد والتعاويذ التي يعلقونها على أنفسهم.

٨- الجلد: يريد أنها من الجلود، الصّفر: يقصد أنها من المعادن.

٩- دروز: إذا دار على السكك والدروب، وسخر بالنساء، وحرَّز: إذا كتب التعاويذ والأحراز، وكوزَّ: إذا أقام في المجلس، والمكوّز: الذي يقوم في مجالس القصاص، فيأمر القاص أصحابه بإعطائه، ثم إذا تفرقوا تقاسموا ما أعطوه، والدغر: المقاسمة.

١٠- درَّع: إذا جاء الهرَّاس، وطلب قصعة من الهريسة، فإذا أعطاه إياها لحسها، وقشَّعَ: إذا مشى وعينه إلى الأرض لطلب القطع، دمَّع: إذا بكى في الأسواق عند البرد حتى يعطى.

١١- رغَّس: إذا طاف على حوانيت الباعة، فأخذ من هنا جوزة، ومن هنا تمرة، وتينة. كبَّس: إذا دار، فإذا نظر إلى رجل حل سفتجته، وأخذ منها قطعة.

١٢- الحاجور: المكدي الذي يثقب بيضة ويجعلها في حجره، وهي تسيل ماء أصفر، الكذَّابات: العصابات: يشدونها على جباهم، فيوهمون أنهم مرضى.

١٣- شطَّبَ: إذا عقر نفسه بالموسى، وجعل يكذب على الأعراب والأكراد واللصوص، ركَّب: إذا طلى جسمه بالشيرج حتى يسودَّ جلده، وأوهم أنه جلد، أو لطمته الجن ليلاً.

١٤- ميسر: إذا كدَّى على أنه من الثغر، ويقال له: الميسراني، مخطر: إذا بلع لسانه وأوهم أن الروم قطعوه.

١٥- المناكذة: أن يتقاسموا ما يأخذونه من الثياب والسلاح بعلة الغزو، والقينون: موضع القسمة، أبو شمر: أول من كدّى بعلة الغزاة.

١٦- رشٌ: إذا أكدى بعلة ماء الورد يرشه على الناس، وذو المكوى: الذي يبخّرُ الناس، درمك: إذا باع العطر على الطريق.

١٧- المدكِّك: الذي يخرج اللوي من العصيان، ويحتال على مَنْ به وجع الضرس، حتى يجعل دود الجبن فيما بين أسنانه، ثم يخرجه، ويوهم أنه أخرجه بالرقية، فكِّك: إذا فكَّ السلاسل على الطريق، بلفك: إذا جرَّ الخواتيم بالإبر يسم الرقيق.

١٨- قصٌّ: الذي يروي الأحاديث عن الأنبياء، والحكايات القصار، ويقال لها: الشبريات.

١٩- بشرك: إذا تزيّى بزّي الرهبان تزهداً، ونونك: إذا أكدى على أنه من الحجاج، أشرك بالهبر: إذا قاسم شركاء، ما يأخذه.

٢٠- قدَّس: إذا أكل الكبد المطحونة، المجففة في شهر رمضان خاصة، وأوهم أنه يطوي ولا يفطر في الشهر إلا مرة أو مرتين، نمَّس: من الناموس، شولس: من الشالوسة، وهم الزهاد، يكدون بلباس الشَّعر.

٢١- العشيريون: الذين يتثاقلون على دوابهم كالغزاة يكدون.

٢٢- المصطبانيون: قوم يزعمون أنهم خرجوا من الروم، وتركو أهاليهم رهائن عندهم، فطافوا البلاد، ليجمعوا ما يفكونهم به، وتكون معهم شعورهم، ويقال لذلك الشعر: المصطبان، وميزق: كدّى.

٢٣- زمكدان: لم أعثر لها على معنى، وفي العامية الدارجة: الزمك، زري الهيئة، وضئيل الجسم.

٢٤- مطراش: الذي معه يده يكدي عليها، ويقال لليد المقطوعة: المكلوذة.

٢٥- المدرجة: هؤلاء قوم يقعدون، وينامون في السكك والأسواق على طريق المارة، ومدرجة الرياح، فتعلوهم غبرة التراب، حتى يرحموا ويُعْطَوا.

٢٦- القنَّاء: الذي يقرأ التوراة والإنجيل، ويوهم أنه كان يهودياً أو نصرانياً فأسلم.

٢٧- ومن ساق: هؤلاء يسقون الناس الماء، والوَلا: أن يقف فيقول: أنا المولى الأبطحي، ومنهم من يكون معه قوس عربية، وأول من فعل ذلك في الحضر أبو حجر.

٢٨- طفشل: إذا علق لسانه، وتشبّه بالأعراب، زنكل: إذا احتال في سلبهم، سطَّل: إذا تعامى وهو بصير، يقال للأعمى: الإسطيل.

٢٩- زقّى: صلّى، والشغاثات: المساجد، واحدتها شغاثة، يكدون فيها إذا صلى الناس.

٣٠- دشَّش: إذا جعل في استه شبه حشوة كحقنة، وينام على الطريق، ويخرج من استه كالدشيشة، رشَّش: إذا كانت معه مبولة مع خصاه، فإذا جاءه البول رششه على الناس، ويقال له: المرشِّش، قشَّش: إذا فسا في المساجد فيتأذى به المصلون، فيعطونه حتى يخرج.

٣١- يزنق: يثقب في بدنه ثقبة، وينفخ فيها حتى يتورم بدنه، يخنق: يضع المنديل في رقبة نفسه، ويفتله حتى ينتفخ رأسه ووجهه، يذلق: يمشي عريان الاست.

٣٢- مستعش: قوم يدورون على أبواب الدور فيما بين العشاءين، ويقولون: رحم الله من عشَّى الغريب الجائع، وينعرون بذلك حتى يأخذوا من كل دار كسرة، ويرجعوا بها، والنعير: الصياح.

٣٣- من شدَّد: قوم يكون معهم دفاتر حديث يروونها، ويشددون على الناس في اللواط، وشرب الخمر، القصر: الأتون، يدخله الواحد من القوم، فيطرح نفسه في الرماد، ثم يخرج وعليه غبرة الرماد، ويوهم أنه آوى إليه من شدة البرد، وعدم الملبوس.

٣٤- من يزرع في الهادور: هم قوم ينظرون في الفال والزجر والنجوم، ويعطون قوماً دراهم حتى يأتوهم ويسألوهم عن نجمهم، وعما هم فيه، فينظروا إليهم ثم يردون الدراهم عليه، وربما أخذوها، وقالوا: لا نأخذها لأن نجمك ما خرج كما تريده، الهادور: كلام الحَلَقَةَ التي يجتمع الناس عليها: والتكسيح: الممانعة.

٣٥- التنبل: هو الأبله الذي يقبل المخاريق على نفسه، ويغتر بما يورد المنجم عليه: فيخرج هو أيضاً دراهمه طمعاً في ردها، فيأخذها منه، ويسخر به.

٣٦- قنون: المقنون هو الذي يقول: كان أبي نصرانياً وأمي يهودية، وأن النبي ﷺ جاءني في النوم، وقال: لا تغترَّ بدين أبويك، واتبع ملتي، فأسلمت، بنون: إذا انتسب إلى البانوانية، وهم الشطار، وقال: كنت محبوساً فاحتلت بكذا حتى خرجت، طيَّن: إذا طيَّن وجهه وساعديه بطين الحمرة، وروى الأشعار على رؤوس الأشهاد في الأسواق.

٣٧- منفذ الطين: قوم يخضبون لحاهم بالحناء، ويدعون أنهم شيعة، ويحملون السبح والألواح من الطين، ويزعمون أنها من قبر الحسين بن علي ﷺ، فيحتفي بهم الشيعة.

٣٨- المشقَّف: هو الذي يأخذ ماء النوشادر، فيكتب بها الرقاع، ويتركها بين يديه، فإذا مرَّ به الأبله قال له: جرّب بختك، وخذ رقعة من هذه، فيأخذها، ثم يعطيه إياها فيقذفها في النار، فيظهر المكتوب أسود، وقد يعمل هذا الجنس بماء العفص، فإذا غمس في ماء الزاج خرج أسود، ويقال للرقعة: الشقيفة.

٣٩- كيسان: قوم عرفوا قوماً من الكيسانية، والغلاة فيجيبونهم، ويكدون عليهم بالمذهب.

٤٠- النائح المبكي: قوم ينوحون على الحسين بن علي، ويروون الأشعار في فضائله، ومراثيه.

٤١- ومن ضرّب في حب: قوم يحضرون الأسواق، فيقف واحد جانباً ويروي فضائل أبي بكر، ويقف الآخر جانباً، ويروي فضائل علي ﷺ، فلا يفوتهما درهم الناصبي والشيعي، ثم يتقاسمان الدراهم.

٤٢- ومن يروي الأسانيد: هؤلاء قوم يروون الأحاديث على قوارع الطرق.

٤٣- كل ممرور: قوم يلبسون الثياب المخرقة، ويحلقون لحاهم، ويوهمون أنهم موسوسون، وأن المرار غلب عليهم، فيروون ما يريدون من فضائل أهل البيت، وينسبهم العامة إلى الجنون، فلا يؤاخذونهم بما يقولون، ويأخذون من الشيعة ما يريدون.

٤٤- ومن يكحّل: هو الذي معه قطنة مغموسة في الزيت، يمرها على عينه لتدمع، ويأخذ في شكاية حاله، واستعراض الناس في مسألته، وذكر قصته، وأنه قطع عليه الطريق، أو غصب على ماله، والمستعرضون: أمهر القوم.

٤٥- كل جبَّار: هو الذي يقف في المقام قائماً أو قاعداً، ولا يبرح، أو يأخذ ما يريد.

٤٦- البشباشة: اللحية، والخشني: الذي لا يكدي، وهو عندهم عيب كبير.

٤٧- وقرّاع أبي موسى: هو الخشني، يقول: إن رأس هذه السفلة عنده أهون من دبة البزر استخفافاً به وبجفائه.

٤٨- لاينطس: لا يذهب، ويلحن: يعطي، وجرار عيالات: هو الذي يكتري الصبيان والنساء، ويكدي عليهم.

٤٩- من ينفذ سبحات: هو الذي يطرح على أبواب الحوانيت السبحات، وأقراص الحلوى، فمنهم من يعطي ويرد عليه، ومنهم من يلقي الملح، ويقال للملح: أبو شكر.

٥٠- حافر الطِّرس: الذي يحفر القوالب للتعاويذ، فيشتريها قوم أميون لا يكتبون، وقد يحفظ البائع النقش الذي عليه، فينفذ التعاويذ إلى الناس، ويوهم أنه كتبها، ويقال للقالب: الطِّرس.

٥١- البركوش: هو الذي يتصامم، ويقول للإنسان: تكلَّم على هذا الخاتم باسمك، واسم أبيك، فيسمع ما يقول، وينبئه به، والبركك: هو الذي يقلع الأضراس، ويداوي منها، والهالك: الدواء، والجزر: البصر، ويقال للعين: الجزارة.

٥٢- المقرمط: هو الذي يكتب التعاويذ بالدقيق والجليل من الخط، والمسرمط: الذي يكتب، والسرماط: الكتاب.

٥٣- الحرّاق: الذي يكون معه مرآة تشعل منها النار، ويسمى حراقة، والبزاق: الذي يرقي المجانين، وأصحاب العاهات، ويتفل عليه.

٥٤- زكّر: كدٍّى على الأبواب، وهو من أجلائهم.

٥٥- يشري عش رضوان: يعني أنه يقول: إذا لم أحج عنك فحظي من الجنة وقف عليك، اللهم أشهد بشراء البيع، والعش: البيت، يريد به الجنة.

٥٦- دهشم: مخرق، وموّه بأنه صائم، والكرش: الصوم والجوع أيضاً، ويكون قد أكل في منزله، فإذا عطش نزل في النهر بعلة الاستيراد، وشرب ما أراد.

٥٧- الزنكلة والعفر: واحد، وهم المعافرون الذين يأخذون الحجيج، ويضمنون الجنة.

٥٨- حنّن: هو من يخضّب كفيه بالحناء، وحفّ شاربه فيتركه كالطست المجلوة، فيدّعي أنه من الصوفية العلماء الزهاد، فيتشبث به لذلك.

٥٩- هفصويه ويحيى وأبو زكر: هؤلاء قوم نبط وعجم، يكدّون ولا يتكلمون بالعربية.

٦٠- ومن كان على رأي: هؤلاء من البصراء، يعبرون الرؤيا، ويكدون من هذه الجهة.

٦١- الشّكاك: الذي يبيع دواء الفأر واسمه الشّك، والحكّاك: الذي يكون معه حجارة محمولة من درنبد يظهر فيها الحديد من الدراهم، والدنانير، يقال للواحد منها: المحكّ، وبلح الأجر: السبح التي تحمل من الجيل ويقال لها دموع داود، ودَرَنْبَد: مدينة على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر.

٦٢- السمقون: الصبي الذي يأخذ بيد الضرير، يوهم أنه ابنه، والسرمل: القميص المخرق.

٦٣- ومن ربّى: هؤلاء قوم من الشطار، يقولون بالصاحب، والغلام، فيربون الصبيان.

٦٤- قافة الرزق: قوم يتعاطون التنجيم.

٦٥- الجفر: الذي يكون بين أيديهم على هيئة الفلك يدور.

٦٦- البشتداريون: قوم يستأجرهم المكدون الذين يخرجون إلى القرى، فيحملون رحالاتهم، وما يجمعون من الحب والصوف وغيره.

٦٧- ومن مرّق: الذين يطبخون المرق في دار القوم فيبيعونها إلى المرضى والضعفاء منهم.

٦٨- المرّاس: الحواء، معه سلال فيها حيات.

٦٩- الحنش: الأفعى.

٧٠- الشصوص: الأنياب، يقلعها ويترك واحدة.

٧١- النّطاس: القوي القلب من الدستكاريين، تراهم على الدروب، ومعهم الكلاليب، والمباضع يداوون المرضى، وغيرهم من الأعلال، والبزرك: الموضع.

٧٢- الشرشرة: القمار، والهُلاب: الثياب، والكسر: الدراهم والمرجان والدينار.

٧٣- حاف عليه: يعني أنه إذا قمر، فانقلب عليه، رفع طرفه إلى السقف، ونظر نحو السماء، وتكلم بالكفر.

٧٤- الإسطيل: الأعمى.

٧٥- الببر: ضرب من السباع.

٧٦- ومن قرَّد، أو دبَّب: هم الذين يكدون على الدببة والسباع والقردة.

٧٧- السَّمان: الذي يعطي النساء دواء السمن، والسنان: الذي يعطي دواء الأسنان، وقتت: إذا أكل القت بين أيدي الناس كالجمل.

٧٨- الدَّكاك: الذي يرقي من القولنج، ويكون معه حب مصنوع يحتال حتى يبلعه العليل فيزعم أنه انحل بالرقية.

٧٩- المدلج: الذي يأخذ حاجته من البقال والجبان، ويحصل عليه أجرة الشهر لبيته، فيهوب ليلاً، ويفوز بما يلزمه أداؤه.

٨٠- فهر: بطن من كنانة من العدنانية، تنتسب إليه قريش.

٨١- مطيع الدولة: هو الفضل بن جعفر (٣٠١-٣٦٤هـ) بويع بالخلافة بعد خلع المستكفي بالله، كانت أيامه أيام ضعف وفتور، ولم يكن له من الملك إلا الخطبة، فإن الديلم استولوا على كل شي، وأصبح الحل والإبرام في عهده للوزير معز الدين بن بويه، الإعلام ٣٥٢/٥.

٨٢- ومن يطحن: هم الذين يطحنون النوى، والحديد والزجاج بأيديهم وأضراسهم.

٨٣- ومطلي دم الأخ: هم الذين يضربون دم الأخوين، والكثيراء والصموغ، وينفخونها على أجسادهم، فتخرج بها بثور يمرضون منها فيكدون.

٨٤- المشقاع: الأرعن الذي يكتري الثياب البيض ويلبسها، واللغر: هم السفل من الناس.

٨٥- الشورز: الأمرد، ويلذ: يدور به العرب من المكدين فيؤدبه، ويقول: هذه الفتوة، ولا يجوز أن تكون وحدك، فإما أن تصير غلاماً لأحدنا، وإما أن تخرج من دار الفتيان، فإن صار مع أحدهم طبخ له قدر الدسكرة، ويقال للقدر بما فيها: الخشبوب.

٨٦- الخشبوب: طعام يطبخ للفتيان من المكدين، يرغمون على تناوله، الكرس:

٨٧- البت: الطيلسان، والبارية: الحصيرة.

٨٨- يصميه: يسقيه الخمر.

٨٩- الكيذات: مفردها كيذ، وهو عضو الذكر، البهاليل: رؤساء المكدين.

٩٠- سعفة الريح: قوم يرعدون رعدة شديدة، تهتز لها مفاصلهم، وتصطك أسنانهم، ويقول أحدهم: إنه قتل سنوراً أو كلباً، فلطمته الجن.

٩١- ذو القصعة والمسراد: هؤلاء ينخلون التراب في الطرق، ويعلقون على أنفسهم القصاع، ويغسلون الأسواق بالماء، ويخرجون إلى البيادر، فيلقطون القصرى، وهي ما بقي في السنبل من الحب بعد أن يداس.

٩٢- العُلافة: هذه امرأة تتزوج بمن يحسن أن يكدي، فيشدُّ يدها من مجموعة الأصابع، ويدَّعي أنها مقطوعة، ويسمى الباز، وربما عوَّجها كأنها مفلوجة، والصقر: هو أن يشد عينيها، ويقول: إنها رمدى أو عوراء، ويقال لها أيضاً: النعلة.

٩٣- الكباجة: اللصوص، كبج: إذا سرق.

٩٤- من صمى: يقول إن من شرب منا الخمر، وعرف به، فقد أفسد على نفسه البلد، والشيء الرديء والفاسد يقال له: الهريب، والشيء الجيد يقال له: الكسيح.

٩٥- كبَّن: خري، والكبن: الاسم منه، يقول: إنه يظهر الورع والزهد، فإذا خلا المسجد، وأخذه البطن يخري تحت السارية، أو خلف المنارة، ويمسح استه بالمذقان، وهو المحراب.

٩٦- كرَّس:صام ، المزلق: العراة، الواحد مزلق، يصيحون بآمين في الأسواق.

٩٧- سخام القص: سواد الأتون.

٩٨- عسم: من العسوم، وهو المفلوج.

٩٩- الإسطيل: الجامع، والكدة: المرأة التي تسأل الناس، ومعها زوجها في الجامع.

١٠٠- الحجر: الفرس الأنثى، والجمع أحجار، وحُجُورة، وحُجُور.

١٠١- من يخرج باليابس: قوم يخرجون في أيام الأعياد إلى المصلى عراة، حفاة يكدون.

١٠٢- المصاطيب: مفردها مصطبة، وهي بيوت المكدين، المذلقة: لم أجد لها معنى.

١٠٣- الشغاثات: المساجد.

١٠٤- أصحاب التجافيف: قوم يأوون المساجد عليهم مرقعات كالتجافيف، بعضها مركبة فوق بعض، يقال لهم الثامولة: الصبر: لصبرهم على شدة فقرهم.

١٠٥- الشقاعات: جمع شقاع، وهو الوطاء إذا كان من ألوان، أو لون واحد، يكون مع جنس منهم فيدورون في المواضع، ويبسطون الشقاع، ويصلون عليه، ولا يأوون إلى موضع، فلهذا يقال لهم: المشاطح، لأن المشطح هو الذي يطوف دائباً لا يفتر.

١٠٦- بنو التغريب والتدريب: قوم ليس لهم عمل إلا جمع الخرق، فهم أبداً في رتق أو فتق.

١٠٧- دمج: إذا أقام في البرد.

١٠٨- الغميز: لم أجد لها معنى.

١٠٩- المشاميل: الرغفان، واحدهما مشمول، والقنابر: جمع قنبرة، وهي الكسرة من الخبز.

١١٠- برباز ار: ذو ألوان، والقفيا: خبز السبيل الذي يجريه الأعلاء على الفقراء والضعفاء.

١١١- عبُّوه أنابير: يعني أنهم إذا جمعوا الخبز، جعلوه كالأنبارات بين أيدهم من ألوان، وكل ما خالف الحنطة فهو الزغبل، ثم يتقاسمون ما يجتمع لهم منها، والبُرُّ: القمح.

١١٢- خصوه بجوزات: يعني أن ما تبقى من المأكول يجعلونه لصاحب الموضع، وإن كانوا في أتون جعلوه للوقاد.

١١٣- الخلنجي: الذي يتغوط ولا يغسل استه، ما حاضوا: ما تطهروا.

١١٤- سمَّروا القشقاش: أي رأوه، والقشقاش: الشيخ الطويل اللحية، ذو الزجر: العالم المتقشف الورع.

١١٥- البسر: التمر قبل أن يرطب، واحدته بُسرة.

١١٦- القنادر: للضراط، والفطر: الذي لم ينضج بعد، ويعني أنهم إذا رأوا شيخاً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ضرطوا عليه، فيصيح الواحد إلى الأخر: بندقة، بسرة، ويضرط.

١١٧- كوفان: اسم أرض سميت بها الكوفة، والطف: أرض من ناحية الكوفة في طريق البرية، كان فيها مقتل الحسين بن علي ﷺ، وقيل: هي أرض بادية قريبة من الريف، فيها عيون ماء جارية.

١١٨- باخمرا: موضع بين الكوفة وواسط،، قتل فيه إبراهيم بن عبد الله بن الحسين ﷺ، والسكر: من أعمال فارس، وسكرّة: ماء قرب القادسية.

١١٩- طوس: مدينة بخراسان، بها قبر علي بن موسى الرضا، وقبر هارون الرشيد.

١٢٠- السدر: شجر النبق واحدتها سدرة، لها ورقة عريضة مُدَّورة.

وقال أبو العِبْر الهاشمي(١):

إنْ يَكُــنْ للعُيُونِ في وَجْهِكَ العَيْــ ـــشُ، فإنَّ القُلُوبَ تُكْوَى بجمْرِ
يــا قَلِيلَ النَّظِيرِ، مُسْتَطْرَفَ الشَّــ ـــكْلِ، بَدِيْعَ الجَمالِ، مُغْرَى بِهَجْرِي
كُفَّ عَنِّي الصُّدُوْدَ، يا واْحِدَ الحُسْــ ـــنِ، فقد عِيْلَ من صُدُوْدِكَ صَبْرِي

وقال (٢):

هَــوَى دَفِيْــنٌ، وهَــوَىَ بَــادِ أظْلِــمْ فجــازِيْكَ بِمِرْصَــادِ
يــا واحــدَ الأُمَّــةِ في حُسْنِه أسْــرَفْتَ فــي هَجْرِي وإبْعَادي
قــد كنْتُ ممَّا نَاْل مِنْه الهَوَى أخْفَــى عَلَــى أعْيُــن عُوَّادي
عَــبْدُكَ يَحْــيى بِــأخْذِهِ قُــبْلَةً يَجْعَلُهــا خاتِمــةَ الــزَّاد

وقال في بعض حماقاته(٣):

أنــا أنــا، أنْــتَ أنــا أنــا أبــو العِــبَرنَهْ
أنــا الفَتَــي الحَمْقموقَــوَا أنــا أخــو المجَــنَّهْ
أنــا أحَــرَّرُ شِــعْري وَقَــدْ يَجِــي بَــرْدَنَّهْ
فَلَــوْ سَــمِعْتَ بِشِــعْرِي فــي الــدَّسَ والوتَــرنَّهْ
لِسَــقْرٍ قَــرْ سَــقَرْ نَقَــرْ ومــا [تَــرنَ] تارنَــه
لكنــتَ تضــحكُ حَــتَّى لتُمْسِــك البَطَنَــنَهْ

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء: أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، عني بنشره ج. هيورث. دن، دار المسيرة بيروت، ط٣، ١٩٨٢، ص ٣٣٢.
(٢) أشعار أولاد الخلفاء: أبو بكر الصولي، ص ٣٣٢.
(٣) طبقات الشعراء: عبد الله بن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر، ص ٣٤٣، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة ١٩٦، ص ١٩٥.

خاتمة

لعلنا من خلال الفصول السابقة قد أحطنا ببعض جوانب النزعة الشعبية وتجلياتها الشعرية، ودلالتها الفكرية من حيث اتجاهاتها العامة واقترابها من الشرائح والفئات الهامشية التي عاشت في القاع الاجتماعي، وعلى ضفاف المدن وأطرافها.

وقد بدا لنا أن هذه النزعة التي صدرت عن معاناة تلك الشرائح، كانت تعبّر عن التمايز الاجتماعي الذي تجلى في مفارقات اجتماعية، برز في مقدمتها التباين الاقتصادي الذي حوّل الكثير من أفراد المجتمع العباسي إلى شرائح وفئات لا تجد سبيلاً إلى كسب القوت إلا بطرق الاحتيال، والاستجداء والكدية حيناً، وبالزهد والتصوف والعزلة، والشطارة واللصوصية في أحايين أخرى.

وقد أثّرت تلك التحولات في طبيعة الأدب وتوجهاته، فلم يعد يقتصر الشعر على طبقة معينة أو فئة محددة، وإنما اتسع مداه ليشمل شرائح الشعب كافة، ومن الطبيعي عندئذ أن تنعكس حياة الشعب، ومظاهر حرمانه في موضوعات هذا الأدب، الذي صار يصدر عن أدباء كانوا من أوساط المعدمين والفقراء، فكان الشعر لسان حالهم، والمعبّر عن معاناتهم.

ومن الطبيعي أن تتجلى في هذا الشعر خصائص وسمات جديدة، تتلاءم وهذه التحولات في ابتعادها عن الأوساط الرسمية، واقترابها من البيئات الشعبية، وقد بدا ذلك على صعيد الشكل والبناء الفني للقصيدة الجديدة، كما تجلى في موضوعاتها والقضايا التي تناولتها أو دارت حولها.

ويمكننا القول في ضوء المعطيات السابقة: إن أهم النتائج والدلالات التي يمكن استخلاصها من خلال دراستنا للنزعة الشعبية في العصر العباسي، ووقوفنا على عدد من شعرائها كأبي الشَّمقمق والأَحْنف العُكْبري، وأبي دُلَف الخزرجي، وأبي العِبَر الهاشمي بصفتهم أكثر الشعراء تعبيراً عنها، وتمثيلاً لتحولاتها الاجتماعية، تتمثل بالآتي:

تجلت سمات النزعة الشعبية من حيث الموضوعات بالتعبير عن أوضاع الطبقات الدُنيا، وما كانت تكابده من ألوان الشقاء والحاجة، والبؤس والفقر، ولهذا برز غرض الشكوى، ووصف البيوت المعدمة، التي خلت من كل شيء، البيوت التي فرت منها حشراتها، وحيواناتها؛ لأنها لم تعد تصبر على البقاء والعيش فيها.

أما على الصعيد الفني فقد تبين لنا أن القصيدة الشعبية لم تعد تحفل بالبنية التقليدية للقصيدة الرسمية، فأصبحت في أغلب الأحيان تختص بموضوع واحد، أو تقتصر على أمر عارض، وفكرة طارئة، وقد أدّى ذلك إلى تحرر القصيدة من تنوع الأغراض، وصارت أكثر تركيزاً وخصوصية ذاتية ، وصار الشاعر يعبر عما يريد قوله في بيت أو بيتين، على شكل قطع قصيدة لا تتجاوز في أغلب الأحيان عشرة الأبيات.

وإذا كانت القصيدة الشعبية قد اقتربت من حيث الموضوعات من بيئة العامة، فإنها كذلك اقتربت من ذهنية العامة من حيث الصور والأخيلة والتشبيهات المستمدة من حياتها ومهن أفرادها، والمتداول والشائع بينها من مصطلحات اجتماعية وتعبيرات دلالية، ومفردات لغوية شعبية واصطلاحية غالباً ما كانت تحتاج إلى تفسير يوضح معناها على غير ما نجد في المعاجم وقواميس اللغة.

وقد تبين لنا أن القصيدة الشعبية، كانت قصيدة المواقف واللقطات العابرة، التي يرصدها الشاعر، ويعبّر عنها بعفوية مباشرة، لا تتطلب منه إعادة النظر فيها، لاعتمادها على المباشرة والبساطة في إطار من الصدق والشفافية الذاتية، التي تجعل تلك النصوص أكثر قرباً من الشرائح الشعبية وتأثيراً فيها.

ولعل الإشارات السريعة إلى العديد من الأسماء الشعرية الأخرى التي حفلت هذه الدراسة بذكرها والإشارة إليها، أعطتنا تصوراً واضحاً عن انتشار الظاهرة الشعبية، وازدياد شعرائها وأدبائها، وكثرة المنخرطين في تياراتها، وهذا ما كشفت عنه ودلت عليه مؤلفات الجَاحظ، والتّوحيدي، والثّعالبي، وهو ما عبّر عنه أدب المقامات، وسواها من المصادر الأدبية الأخرى، مما يستدعي إعادة النظر في تقويم ذلك التراث، برؤية موضوعية، تسعى إلى تقصي نتاج أدبائه، والبحث عن مصادره والعمل على تحقيقها ونشرها، وإعداد الدراسات والبحوث الجادة والمعمقة عنها بما يكشف عن سمات ذلك الأدب وخصائصه الفنية واللغوية، وإعادة الاعتبار له بصفة أدباً نشأ وترعرع في بيئة العامة، وعبر عن الوجه الآخر للحياة ومعاناة الشرائح الشعبية ومعاناتها الإنسانية.

المصادر والمراجع العربية والمترجمة

الآبي منصور بن الحسين

- نثر الدر، تحقيق محمد علي قرنة، مراجعة علي محمد البجاوي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.

الآمدي الحسن بن بشر

- المؤتلف والمختلف، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة ١٩٦١.

الأبشيهي شهاب الدين محمد بن أحمد

- المستطرف، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الأصبهاني أبو الفرج علي بن الحسين

- الأغاني، نشر صلاح الخليل، دار الفكر، بيروت ١٩٧٠.

الباخرزي علي بن الحسين

- دمية القصر، تحقيق محمد التونجي، نشر مؤسسة الحياة.

ابن برد بشار

- ديوانه، شرح محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

بروكلمان كارل

- تاريخ الأدب العربي، ترجمة يعقوب بكر، دار المعارف، مصر.

البغدادي أبو أحمد بن علي الخطيب

- تاريخ بغداد، مطبعة الخانجي، القاهرة، والمكتبة العربية بغداد، ١٩٣١.

البكري أبو عبيد البكري الأونبي

- سمط اللآلئ: تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الحديث، بيروت، ١٩٨٤.

البيهقي إبراهيم بن محمد

- المحاسن والمساوئ، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٦٠.

التوحيدي علي بن محمد

- مثالب الوزيرين، تحقيق إبراهيم الكيلاني، نشر دار الفكر، دمشق.
- الصداقة والصداقة، تحقيق إبراهيم الكيلاني، نشر دار الفكر، دمشق ١٩٦٤.
- البصائر والذخائر: تحقيق إبراهيم الكيلاني، مكتبة أطلس، دمشق.

الثعالبي عبد الملك بن محمد بن إسماعيل

- يتيمة الدهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٦
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر ١٩٦٥.
- خاص الخاص، القاهرة ١٩٠٩.
- التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء التراث، القاهرة ١٩٦١.
- لطائف المعارف: تحقيق إبراهيم الأبياري، وحسن كامل الصيرفي.

الجاحظ عمرو بن بحر

- الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة البابي، مصر، ١٩٦٣.
- القول في البغال، تحقيق شارل بلا، مطبعة الباني الحلبي، مصر ١٩٥٥.

ابن الجراح محمد بن داود

- الورقة، تحقيق عبد الوهاب عزام، وعبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر ١٩٦٣.

الجهشياري محمد بن عبد وس

- الوزراء والكتاب، تحقيق السقا والأبياري، وشلبي، مطبعة البابي الحلبي، مصر.

الحسين: أحمد

- أدب الكدية في العصر العباسي، دار الحصاد، دمشق ١٩٩٥.
- مقالات في أدب الحمقى والمتحامقين، دار الحصاد، دمشق ١٩٩١.
- أشعار الشحاذين في العصر العباسي، دار الجليل، دمشق ١٩٨٦.

ابن الجوزي جمال أبو الفرج عبد الرحمن

- المنتظم، تحقيق عبد العزيز مصر، دار المعرفة.
- أخبار الحمقى والمغفلين ، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٥، ١٩٨٣.

ابن حمدون محمد بن الحسن

- التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس، وبكر عباس، دار صادر، بيروت ط١، ١٩٩٦.

الحموي شهاب الدين ياقوت بن عبد الله

- معجم البلدان، دار صادر، بيروت.
- معجم الأدباء، تحقيق أحمد فريد رفاعي، مطبعة المأمون، سلسلة الموسوعات العربية، مصر.

الحميري محمد بن عبد المنعم

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٥.

أبو دلف الخزرجي مسعر بن مهلهل الينبعي

- الرسالة الثانية، تحقيق محمد منير مرسي، القاهرة.

خفاجي محمد عبد المنعم

- أبو دلف الخزرجي عبقري من ينبع، دار الرفاعي، الرياض، ط٤، ١٩٨٦.

ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد

- وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

الدميري كمال الدين

- حياة الحيوان الكبرى، إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.

الراغب حسين بن محمد الأصبهاني

- محاضرات الأدباء، دار الحكمة، بيروت.

ابن رشيق أبو علي الحسين

- العمدة، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت.

الزركلي خير الدين

- الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

زكي أحمد كمال

- الحياة الأدبية في البصرة، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٦١.

الزمخشري محمود بن عمر

- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق سليم النعيمي، دار الذخائر، قمم، ط١.

الزهيري محمود غناوي

- الأدب في ظل بني بويه، مطبعة الأمانة، مصر.

سعد فهمي عبد الرزاق

- العامة في بغداد، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٣.

ابن سلمة المفضل أبو طالب

- الفاخر، تحقيق عبد العليم الطحاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٦٠.

السوداني مزهر

- جحظة البرمكي الأديب الشاعر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٧.

الشريشي أحمد بن عبد المؤمن

- شرح مقامات الحريري، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط١، مصر، ١٩٥٢.

أبو الشمقمق مروان بن محمد

- ديوانه، جمع وشرح واضح محمد الصمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥

الصاحب أبو القاسم بن إسماعيل بن عباد

- الروزنامجة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥٦.

صادر كارين

- مختارات من شعر أبي الشمقمق، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٣.

الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك

- الوافي بالوفيات، تحقيق محمد بن إبراهيم، اعتناء س.د ترينغ، دار شتاينز، فيسبادن، ١٩٧٤.

ضيف شوقي

- العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٧٢.
- الشعر وطوابعه على مر العصور، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٧٧.

الصولي محمد بن يزيد

- أشعار أولاد الخلفاء، نشر دار المسيرة، عني بنشره ج. هيورث . دن، بيروت، ط٣، ١٩٨٢.

العباسي عبد الرحمن بن أحمد

- معاهد التنصيص، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧.

ابن عبد ربه أحمد بن محمد

- العقد الفريد، تحقيق أمين والأبياري، وهارون، القاهرة، لجنة التأليف، ١٩٤٩.

أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم

- ديوانه، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٦٤.

العسكري أبو هلال

- ديوان المعاني، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٢هـ.

العكبري عقيل بن محمد

- ديوانه، تحقيق سلطان بن سعد السلطان، الرياض، ط١، ١٩٩٩.

غرنباوم غوستاف فون

- شعراء عباسيون، ترجمة وتحقيق محمد يوسف نجم، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين، ١٩٥٩.

أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير

- البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط١، ١٩٦٦.

فردينان آليكه
- فلسفة السريالية، ترجمة وجيه العمر، وزارة الثقافة، دمشق ١٠٨٧.
القالي إسماعيل بن القاسم
- الأمالي، دار الكتب العلمية، بيروت.
الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب
- القاموس المحيط، دار الجليل، بيروت.
القيروان إبراهيم بن علي الحصري
- زهر الآداب، تحقيق زكي مبارك، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٣، ١٩٥٣.
- الجواهر في الملح والنوادر، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة.
الكتبي محمد بن شاكر
- فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
كراتشكوفسكي إغناطيوس
- تاريخ الأدب الجغرافي، القاهرة، ١٩٦٥.
مال الله علي محسن
- أدب الرحلات عند العرب، كلية الإمام الأعظم، بغداد، ١٩٧٨.
المبرد محمد بن يزيد
- الكامل في اللغة والأدب، مكتبة دار المعارف، بيروت.
المرزباني محمد بن عمران
- معجم الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠.
- نور القبس المختصر من المقتبس، اختصار يوسف بن أحمد الحافظ اليغموري، تحقيق رودلف زلهايم، نشر دار فرانتس اشتاينر، فيسبان، ١٩٦٤.
ابن المعتز عبد الله
- ديوانه، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٦١.
- طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر.

ابن منظور جمال الدين محمد

- لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٩.

الميداني أحمد بن محمد

- مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار النصر، بيروت.

ابن النديم محمد بن اسحاق

- الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران، ١٩٧١.

النهر واني المعافى بن زكريا

- الجليس الصالح، تحقيق إحسان عباس، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

أبو نواس الحسن بن هانئ

- ديوانه، شرح عمر فاروق الطباع، نشر دار الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٨٨.

النويري أحمد بن عبد الوهاب

- نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب المصرية.

النيسابوري الحسن بن محمد بن حبيب

- عقلاس المجانين، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

هداره محمد مصطفى

- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.

الهمذاني أحمد بن محمد

- مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث، ط١، ١٩٨٨.

ابن الوزير نور الدين علي

- المرقصات والمطربات، نشر دار حمد ومحيو، بيروت.

الوطواط برهان الدين

- غرر الخصائص الواضحة، دار صعب، بيروت.

المراجع باللغة الأجنبية

بوزورت ١/٢٣، BOSWORTH ١٩٧٦ THE MEDIEVAL, ISLAMIC UNDER
WORLD THE BANU SASAN, IN ARABIC, SOCIETYA AND LETERATUNE
LEIDEN. BRILL:١:٢٣.

الموسوعات والدوريات

- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة الشنتاوي، والفندي، وخورشيد، مصر ١٩٣٣ .
- مجلة الاستشراق الروسي، أ - تروتسكايا، العدد ٥.
- مجلة المنهل، حمد الجاسر، مجلد ٦، عدد آذار ١٩٤٦.
- مجلة الكرمل، العدد ٣، سنة ١٩٨٣.

فهرس الموضوعات

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٦

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

حلب

١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

عاصمة الثقافة الإسلامية

مطابع وزارة الثقافة
٢٠٠٦

سعر النسخة داخل القطر ١٢٠ ل.س
في الأقطار العربية مايعادل ٢٤٠ ل.س